BIBLIOTHECA ISLAMICA

اقتداء الغافل باهتداء العاقل

قطب الدين محمد بن أحمد بن علي القسطلاني

حققه وقدم له

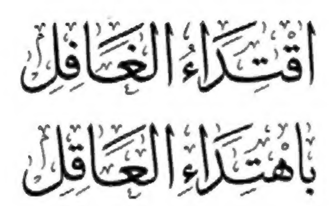
أحمد جمعة عبد الحميد

مراجعة

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية

للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

دار الفارابي


اقتداء الغافل
باهتداء العاقل

النشرات الإسلامية

أسسها هلموت ريتر

يصدرها

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

٥٤

اقتداء الغافل باهتداء العاقل

قطب الدين محمد بن أحمد بن علي القسطلاني

٦١٤ - ٦٨٦ هـ.
١٢١٨ - ١٢٨٧ م.

حققه وقدم له
أحمد جمعة عبد الحميد

مراجعة
المعهد الألماني للأبحاث الشرقية

بيروت ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

توزيع
دار الفارابي



الطبعة الأولى

بيروت ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

طبع على نفقة

وزارة الثقافة والأبحاث العلمية التابعة لألمانيا الاتحادية

بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت التابع لمؤسسة ماكس فيبر

طُبع في مطبعة درغام، بيروت-لبنان

يوزَّع

خارج الدول العربية: كلاوس شفارتس فيرلاغ-برلين

ISBN: 978-3-87997-698-0

9 783879 976980

في الدول العربية: دار الفارابي للنشر والتوزيع-بيروت

ISBN: 978-614-432-469-1

9 786144 324691

إهداء

إلى الصديق الذي صَدَقني، إلى الأبِ والأخِ اللذَين لم أجدهما فوجدتُهما فيه،
إلى الذي وثق بقدراتي فوثقتُ بها، عمّي العزيز أنور عبد الحميد أبو نمر

محتويات الكتاب

تمهيد

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسّلام على سيّد الأوّلين والآخِرين، الذي حَكَم بالباطنِ والظاهرِ، فنالَ الوِلايةَ قبل النُّبوّة، وعلى مَن نَهَجَ نَهْجَه، وتربّى على هَدْيِه، مِن صحابتِه وتابعيهم، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد

فإنّ المحدِّثَ والفقيه قُطبَ الدين القسطلانيّ يُعَدُّ مِن أبرزِ علماء الصوفيّة المجرّبين العاملين، ومِن أقطابِهم المعروفين، فقد كتبَ في التصوُّف كغيرِه مِن علماء الطائفة، ولا غرابةَ في الجمعِ بين التجربةِ والتأليف، فلا يكتُب في التصوّف إلا مَن عاشَ تجرِبةً عبّرت عن حالِه، ومارسَ رياضةً نفّسَ فيها عمّا في وِجدانه، فقد ذاقَ مذاقَ القومِ، ومَن ذاق عَرَف.

ولكن مِنَ المؤسِفِ أنْ لا يُنشَر لقطب الدين القسطلانيّ أيُّ عملٍ مِن أعمالِه في التصوّف الإسلامي[1]، والمؤسف أكثر أنّ ما كتبَه في التصوّف هو ما بين المجهولِ والمفقود.

---

(١) حقّق الأستاذ الدكتور: حبيب الله حسن أحمد ثلاث رسائل للقطب القسطلاني واطّلعتُ عليها مُؤخّرًا؛ نظرًا لعدم نشرها. رسالتان منها طُبعتا مع بحثه الموسوم بـ: «جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله». الأولى: «تحفة المفيد والمفاد في صفة المريد والمراد»، والثانية: «شعار الإظهار في منازل المقرّبين والأبرار». أمّا الثالثة فطُبعت ضِمن بحثِه الموسوم بـ: «الدعوى والشطح عند الصوفيّة»، وهي رسالة في المنع منهما بعنوان: «نصيحة صريحة مِن قريحة صحيحة في المنع مِنَ الدعوى والشطح، وما يتعلّق بهما مِنَ الذمّ والمدح». وقد عاني ما عانيتُ، مِن قلّة المعرفة بهذه النصوص، وعدم ذِكرها في كتب الببليوغرافيا والتراجم، وقد أحسن الرجل فيما كتب.

فقد ألّف القسطلانيّ هذا النصّ: «اقتداء الغافل باهتداء العاقل»، وقد عَدَدْتُه ممّا جُهل عنّا، وذلك لأسبابٍ سوف أشرحُها في الدراسة، وألّف: «الارتباط» وهو ما لم نعرف عنه إلّا عُنوانَه وموضوعَه، فقد ذكره السخاوي في «القول المُنبي» صراحةً، وذكره غيرُه تعريضًا، وهذا أيضًا تناولتُه في الدراسة[1].

والذين جاؤوا بعد القسطلانيّ لم يعتمدوا عليه، لأسبابٍ لم أقف عليها، وذلك باستثناء الجلال السيوطيّ، الواسِعِ الاِطّلاع، الكثير المعرفةِ بالمَظَانِّ، وهو الذي كان سببًا في معرفتي بهذا النصّ (اقتداء الغافل) عندما كنتُ أقوم بتحقيق رسالتِه «تأييد الحقيقة العَليّة وتشييد الطريقة الشاذِليّة» ضِمن مشروع «الأعمال الكاملة للسيوطي في التصوّف الإسلامي»، والذي يتولّى نشرَه المعهدُ العلميّ الفرنسيّ للآثارِ الشرقيّة بالقاهرة، وصدرت هذه الرسالة بالقسم الأول رقم ٤٧ لسنة ٢٠١١م، والمرتضى الزبيدي في كتابِه: «إتحاف السادة المتّقين في شرح إحياء علوم الدين». وسيأتي الحديث عنهما.

ويُعدّ هذا الكتاب «اقتداء الغافل» مِن أقدم وأهمّ الكُتُب في موضوع النّقد الذّاتيّ عند الصّوفيّة، فقد أخذ بعضُ مُصْلحيهِم على عاتقِهم نقدَ المذهبِ وتأصيلَه وتقعيدَه، وبيان الأصيلِ مِنَ الدَّخيلِ فيه، وقد عُرِف مؤلِّفُه بالإنكار على مُدَّعِي التصوّف، والتصدّي لهم، فهو المحدِّثُ والفقيه والصُّوفي، الذي أخذ التصوّف عن أربابِه العُدول المتشرّعين والمتسنِّنين، فاشتُهر بمؤلّفاتِه المليئة بالتّشهير بالأدعياء منهم.

(١) انظر فيما سيأتي ص١٩.

والكتاب يُوحي مِن خلالِ عنوانه أنّه مبادرةٌ منه لإصلاحِ حالِ المتصوِّفة، أو التّحذيرِ منهم، وحثِّهم على الإقتداءِ بأسلافِهم مِن أعلام التّصوّف الذين جعلوا التشرُّعَ مِنهاجًا لهم.

وهذه القضيّة (نقد المتصوّفة والمتفلسفين منهم) اهتمّ بها كثيرٌ مِن المُصنِّفين، كان أقدَمهم – كما ذَكَرَ السخاويّ في المصدر السابق – القطب القسطلانيّ المتوفَّى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٨م[1]، ويأتي بعده عماد الدين الواسطيّ المتوفَّى سنة ٧١١هـ/١٣١١–١٣١٢م[2]، وابن تيميّة المتوفّى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م[3]، وسيف الدين السّعودي المتوفّى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥–١٣٣٦م[4]، وتقي الدين السُّبكي المتوفّى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م[5]، وسراج الدين البُلقيني المتوفّى سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢–

---

(١) له: «اقتداء الغافل باهتداء العاقل» هذا، و«نصيحة صريحة من قريحة صحيحة»، و«الارتباط»، و«تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة»، و«تتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم»، وهما في الردّ على المتصوّفة في تحليل شربها، و«ارتفاعُ الرتبة باللباس والصُّحبة»، و«يقظة الاعتبار في موعظة أهل الاغترار»، و«تحفة المفيد والمفاد في صفة المريد والمراد»، و«شعار الإظهار في منازل المقرّبين والأبرار»، و«ورد الرائد في ورد الوالد». وانظر مؤلّفاته فيما سيأتي.

(٢) له: «باشورة النصوص في هتك أستار الفصوص»، في مناقشة ابن عربي حول كتابه «فصوص الحِكَم»، نشره عدنان أبو زيد، بيروت، دار النوادر، «البيان المفيد في الفرق بين الإلحاد والتوحيد».

(٣) له على سبيل المثال: «أهل الصُّفَّة وأباطيل بعض المتصوّفة فيهم وفي الأولياء وأصنافهم والدعاوى»، و«إبطال وحدة الوجود والردّ على القائلين بها» نشرهما محمد رشيد رضا، و«بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة والقرامطة والباطنيّة أهل الإلحاد، من القائلين بالحلول والاتحاد»، نشره موسى بن سليمان الدويش، «الحُجج النقلية والعقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية».

(٤) له: «الردّ على بعض ما جاء في فصوص الحكم لابن عربي»، و«الغيث العارض في معارضة ابن الفارض». انظر: الأعلام، ٤: ٥٩.

(٥) له: «المعجم المخرّج» وقد اعتمد عليه السيوطي في رسالتِه «تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذِليّة» كما أنّ له قصيدةً، جوابًا عن سؤالٍ وَرَدَ عليه في السَّماع: أيُّهما أحلُّ: هو أم الغِيبة؟ أوردها التاج السبكي في طبقات الشافعيّة الكبرى. انظر: طبقات الشافعية، ١٠: ١٨٢، والأعمال الكاملة للسيوطي في التصوّف الإسلامي، ١٠٨.

١٤٠٣م[١]، وشمس الدين الزبيريّ العيزريّ المتوفّى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥–١٤٠٦م[٢]، وابن نور الدين اليمانيّ الخطيب المتوفّى سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م[٣]، وتقيُّ الدّين الفاسي المالكي المتوفّى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨–١٤٢٩م[٤]، وشرف الدين ابن المقرئ الشافعي المتوفّى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣–١٤٣٤م[٥]، والعلاء البخاريّ الحنفي المتوفّى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧–١٤٣٨م[٦]، والأهدل الشّافعي المتوفّى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١–١٤٥٢م[٧]، والعماد الكازروني المتوفّى سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥–١٤٥٦م[٨]. فضلًا عن السّخاوي المتوفّى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م[٩]، وجلال الدين السّيوطي المتوفّى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م[١٠].

(١) له آراء في ابن عربي، وقال بتكفيره، نقل ذلك عنه ابن حجر العسقلاني. انظر: لسان الميزان، ٤:٣١٨.

(٢) له: «أسنى المقاصد في القواعد». انظر: الضوء اللامع، ٩:٢١٨.

(٣) له: «كشف الظلمة عن هذه الأمة». انظر: الضوء اللامع، ٨:٢٢٣.

(٤) له: «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» ضمّنه جزءاً خاصّاً في عقيدة ابن عربي وحياته وما قاله المؤرّخون والعلماء فيه، وله أيضًا «تحذير النبيه والغبي من الافتتان بابن عربي». انظر: شذرات الذهب، ٧:١٩٩.

(٥) له: «النصيحة»، «الذريعة لأنصار الشريعة»، «الحُجّة الدّامغة لرجال الفصوص الزائغة». انظر: الضوء اللامع، ٢:٢٩٢.

(٦) له: «فاضحة المُلحدين وناصحة الموحّدين». انظر: شذرات الذهب، ٧:٢٤١.

(٧) له: «كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحّدين». انظر: كشف الظنون، ٢:١٤٩١–١٤٩٢.

(٨) له: «حجّة السَّفَرة البَرَرة على المُبتدعة الفجَرة». انظر: شذرات الذهب، ٧:٢٩٧.

(٩) له: «القول المُنبي في ترجمة ابن العربي»، جمع كلام النقّاد فيه وفي طريقته الفلسفيّة، وما قيل في كُتبه واعتقاده. رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة أمّ القرى، للباحث خالد بن العربي مُدرك.

(١٠) له رسالة مهمّة في نقد منهج التصوّف والمتصوّفة، اسمها: «تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذِليّة»، اعتمد على القطب القسطلاني اعتمادًا كبيرًا، وقد حقّقتُ هذه الرسالة ضمن الجزء الأول من مشروع الأعمال الكاملة للسيوطي في التصوّف الإسلامي، نشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة بالقاهرة، اعتمدتُ عليها كثيرًا في ضبط نصّ هذا الكتاب. إلّا أنّ له في التصوّف كتاباتٍ قد يُنتقد بسببها ممّن لا يهوَون التصوّف ولا يعتقدونه، بعضها صدر في الجزء الأول من المشروع السابق الذِّكر، ومنها ما سيصدر إن شاء الله في الجزأين الآتيين.

وكما نَقَدَ القسطلانيُّ أوضاعَ المتصوّفةِ في عصرِه نَقْدًا لاذعًا، فقد كان لِزامًا عليه أن يتحدّث عن الأنموذجِ الأمثلِ لِما يجبُ أنْ يكونَ عليه الصُّوفيّ الحقيقي الكامل، فيقول: «فإذا تبيّن وَصْفُ هؤلاءِ للعاقل تعيّن عليه أنْ يَعلمَ وَصْفَ حالِ الرجلِ الكامل، وهو الرجلُ الذي فُوتِحَ قلبُه بإقبالِ الإنابةِ، فدخل مِن باب التوبةِ إلى الإجابة، ثمّ جاهدَ نفسَه في خَلْوَتِه وعُزْلَتِه بالانفراد، ثمّ صاحبَ التقوى والوَرَعَ والزهدَ في سَيْرِهِ، ثمّ ترقّى إلى المقاماتِ والأحوالِ، ثمّ إلى مقامِ المعرفةِ، ثمّ عَمِلَ على تركِ مُرَاداتِه، واجتنابِ المُلاحَظة لحظوظِه، فصار عبدًا حقًّا، آثر اللهَ على ما سِواه في سِرِّه ونَجْوَاه، ولم يعتمد في أمرِهِ شيئًا من هَواه ... إلخ»[1].

ويمتازُ هذا العمل بأنّه خصّص جزءًا منه للحديثِ عن المصطلح الصوفي، كما فعل سابقوه، أمثال سراج الدين الطوسي المتوفَّى سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨-٩٨٩م في كتاب: «اللُّمع»، فقال: «فافتقرتْ هذه الطائفةُ إلى مصطلحٍ تُعبِّرُ به عن معلومِها في مقاصدِها، وتُخبرُ به عن مصادرها في معارفها ومواردِها، حتى يقعَ الفَرْقُ بين مَنِ انتمى إليها، وتخلّق بأخلاقِها، وتأدّب بطريقِها، ومارَس علومَها، وبين مَن كان خَلِيًّا منها، مُعْرِضًا عنها، آخِذًا في غيرِ منهجِها، أو مُعاشرًا لها قد تزيَّا بزيِّها، ولم تَسْمُ هِمّتُه إلى طلبِ عِلمِها وفَهْمِ مصطلحِها، فظنّ مَن رآه أنّه مِن عُلمائها»[2].

كما يمتاز أيضًا بأنّه اعتمد فيما كَتَبَ عنِ الأحوال والمقاماتِ على نصوصٍ لم تصل إلينا، ككتاب أبي عبد الرحمن السُّلميّ المعروف بـ«مقامات الأولياء»، وكتاب «المقالات في المقامات» لأبي بكر محمّد بن علي الغازي المُطّوعي.

وفيما يلي الحديث عن الكتاب، ومصادره، وما وصل إلينا منها وما لم يصل، ثم الحديث عن المؤلّف وحياته ومصنّفاته، وطريقتي في إخراج النصّ.

(١) انظر: جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله، ٤٨؛ وفيما سيأتي ص٥٣.
(٢) انظر فيما سيأتي ص ١٣٤.

مقدمة: الكتاب ومؤلِّفه وطريقة إخراج النصّ

١ - الكتاب

نُدْرَة النصّ

لم تستطع كتب الببليوغرافيا مَدَّنا بكلِّ أسماء المصنّفات في تراثِ الحضارة الإسلاميّة، وبسبب ذلك فقدنا الكثير مِنَ المعلومات عن مصادرَ قد تكون موجودةً في مكتباتنا غير المفهرسة، وقد تجمّع عاملان على التعتيم على هذه النصوص، أولهما: عدم ذِكرها في الكتب المتخصّصة، وثانيهما: عدم وجود فهارس مطبوعة للمكتبات المحفوظة فيها هذه المصنّفات.

ومِن هذه المصادر هذا المصدر الذي نُقدِّمه مُحقَّقًا، حتّى وصفتُه بأنّه مِنَ الآثار المجهولة لقطبِ الدين القسطلاني في التصوّف الإسلامي، ويُعْزَى هذا الجهل إلى الأسباب الآتية:

١ – عدم ذِكر هذا العنوان في كُتب التراجِم التي ترجمت لصاحبِه، باستثناء كتاب «الأعلام» للزركلي[1]، الذي ذكر المؤلَّفَ مع عدم ذِكرِه في المصادر التي اعتمد عليها في ترجمةِ المؤلِّف. كما لم تذكره كتب الببليوغرافيا كافّة، ولا فهارس المخطوطات، ولا كارل بروكلمان في كتابِه «تاريخ الأدب العربي».

٢ – قلّة مَن اعتمدَ عليه ممّن كَتبَ في التصوّف بعد القسطلاني؛ فلم يعتمد على الكتاب – كما سنذكُر بعدُ إنْ شاء الله – إلّا المرتضى الزَّبيدي في كتابِه: «إتحافُ السادة المتّقين» وفي بعض المواضع فقط، وجلال الدين السيوطي في كتابِ: «تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذِليّة».

---

(١) انظر فيما سيأتي ص١٨.

٣- عدم قيام أيّة دراسات على هذا المؤلَّف ولا عن نسخِه، لا في الغرب ولا في الشرق، حتى في سؤالي عن معلوماتٍ - تخصُّ النصّ - لبعضِ المستشرقين المهتمّين بالتصوف الإسلامي أمثال: الأستاذ الدكتور جوزيبي سكاتولين، والأستاذ الدكتور ديني جريل، والأستاذ الدكتور ميشيل شودكيفيتش Michel Chodkiewicz، فلم تتوفّر أيّة معلومات لديهم، لا عن النصّ ولا عن نسخه.

مصادر القسطلاني

لم يذكر القسطلاني المصادر التي اعتمد عليها في كتابه صراحةً، وإنْ كان قد ذَكَرَ بعض المصادر لمصنِّفين سابقين عليه في موضِعَين:

الأول: عندما ذَكَرَ سبب عدم ذِكر الأسانيد في كتابه قال إنّه اكتفى بذِكْر مَن سبقوه لهذه الأسانيد، مثل: أبي نصر عبد الله بن محمّد السرّاج في كتاب: «اللُّمع»، وأبي عبد الرحمن محمّد بن الحسين السُّلمي في كتابِ المفقود: «مقامات الأولياء»، وأبي القاسم عبد الكريم بن هَوازِن القشيري في كتاب «الرسالة»، وأبي بكر محمّد بن علي الغازي المُطّوعيّ في كتابه المفقود: «المقالات في المقامات».

الثاني: عند حديثِه عمّن ألّف في علومِ القوم وذِكر آدابهم وأحوالِهم ومقاماتِهم قال: «وقد صنّف أئمّةُ هذه الطائفةِ في علومِهم وأدبهم كُتبًا كثيرة، كالحارثِ ابن أسد المُحَاسِبيّ، وعَمْرِو بنِ عثمانَ المكيّ، وأبي عبد الرحمن السُّلميّ، وأبي القاسم القُشيريّ. وصنّف الشيخُ أبو عبد الرحمن السُّلميّ مصنّفًا في آدابهم، وكذلك شيخُ شَيخِنا ضياءُ الدين أبو النَّجيب السُّهْرَوَرْديّ، وغيرهما. فمَن تطلّع إلى عِلْم ذلك طلبَه مِن مَظَانِّه».

ولكنْ بعد ذلك يكشفُ صراحةً عن تلخيصِه لبعض المصنّفات السابقة عليه، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل، ولم تتحدّث عنه كتب الببليوغرافيا، فقال: «وقد تقدّم الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلميّ، وقبلَه الحكيمُ التِّرمذيّ،

وبعدَه الأستاذ أبو القاسم القشيري، وقبله أبو نصرٍ السرّاج، وغيرهم، وأبو محمّد إسماعيل بن إبراهيم بن محمّد بن عبد الرحمن الهرويّ الفقيه المقرئ، له كتاب: «درجات التائبينَ ومقامات القاصدين»، وأبو إسماعيل عبد الله بن محمّد الهرويّ، له: «مقامات الراغبين إلى منازل السائرين»، وحَذَا كلّ واحدٍ منهما حَذْوًا حسنًا. إلّا أنّ «مقامات الراغبين» أحسنُ ترتيبًا وأكثر تهذيبًا. ونحن نختصر ما يَنتفعُ به مَن يَرغبُ إلى الِاقتداءِ بالِاهتداء، ويَرهبُ من الِاعتداءِ في الِابتداء والِانتهاء.

المصادر الواردة في النصِّ إمّا مجهولة لا نعرفُ عنها أيّة معلوماتٍ، أو نعرفُ عنها بعض المعلومات، ولكنها فُقِدت ولم تصل إلينا. مثال الأوّل: النصّ الذي ذكره لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي «مقامات الراغبين إلى منازل السائرين» وشدّدَ عليه بقوله: «إلّا أنّ مقاماتِ الراغبينَ أحسنُ ترتيبًا وأكثرُ تهذيبًا»، وهذا الكلام - بالطبع - لا ينطبقُ على الرسالة المشهورة المسمّاة بـ«منازل السائرين»؛ لأسباب:

١ - أنّ رسالة «منازل السائرين» ليس لها إلّا هذا الِاسم، ولم يذكُر الذين اعتنَوا بها - تحقيقًا ونَشْرًا - أنّ لها اسمًا آخر.

٢ - أثناء مقابلتي للنصوصِ الواردة في النصّ بُغْيَة توثيقها، لم يتطابق أيّ نصّ مع رسالة «منازل السائرين».

٣ - لم تَذكر كتب الببليوغرافيا ولا كتب التراجِم هذا العنوان مطلقًا. إذن هو كتابٌ آخر مجهول عنّا وليس «منازل السائرين» الموجود بين أيدينا.

ثمّ ذَكَرَ كتابًا آخرَ لأبي محمّد إسماعيل بن إبراهيم بن محمّد بن عبد الرحمن الهرويّ الفقيه المقرئ، يسمّى: «درجات التائبينَ ومقامات القاصدين»، ولم يُعرف للهروي كتابٌ بهذا العنوان، ولم تتحدّث عنه كتب الببليوغرافيا ولا كتب التراجم، وإنّما الذي ذُكر فيما سبق هو: «درجاتُ التائبين ومقاماتُ الصدّيقين»،

لأبي محمّد إسماعيل بن أحمد بن الفرات السرخسيّ الشافعي المتوفّى سنة **٤١٤**هـ، ولذا صحّحتُ ذلك في المتن، وعَدَدْتُه خَلْطًا وانتقالَ نظَرٍ من الناسخ.

ثم تحدّث عن أهم مصدرٍ كَتَبَ عن المقاماتِ وهو «مقاماتُ الأولياء» لأبي عبد الرحمن السُّلميّ، وهو من المصادر المفقودة التي لم تصل إلينا.

وذَكَر مصنِّفِينَ ولم يُحدِّد مصنّفاتِهم، كالحكيم الترمذيّ، واعتمد كثيرًا على «الرسالة القشيرية» للقشيري، و«عوارف المعارف» للسُّهْرَوَرْدِيّ.

صحّة نسبة الكتاب إلى القسطلاني

بعد الحديث عن نُدْرة هذا النصّ وعدم ذِكْر هذا العنوان في كتب التراجم والببليوغرافيا وفهارس المخطوطات، يبقى الشكُّ في النِّسبة إلى القسطلانيّ، فأقولُ: إنّ نسبتَه إلى القسطلانيّ سليمةٌ ومُؤكّدة مِن عدّة جوانب:

١ – روايته عن أبيه في أكثر مِن موضع قائلًا: «فقد سمعتُ بمكّةَ المُشَرَّفةِ والدِي أبا العبّاس أحمدَ بنَ عليٍّ القَسْطلانيَّ يقول: سمعتُ الشيخ أبا عبد الله القرشيّ يقول: لو لَمْ ألقَ مِنَ المشايخِ مَن رأيتُ، لتوهّمتُ أنّ الطّريقَ ما عليه الناسُ اليوم»[(١)] .

وقال في موضعٍ آخَر: «كما أنشدَني والدي أبو العبّاس أحمدُ بنُ عليّ القسطلاني بمكّة المشرّفة لبعضِهم:

ولستَ بِرَاءٍ عَيْبَ ذي الوُدِّ كُلَّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضيَا
فعينُ الرِّضَى عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنّ عَيْنَ السُّخط تُبدي المَساويا»[(٢)]

وقال في آخر: «وأنشدني والدي أحمدُ بنُ عليّ، رحمه الله، بمكّة المشرّفة لبعضِهم:

(١) انظر فيما سيأتي ص٣٦.
(٢) انظر فيما سيأتي ص١٠٤.

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائدًا ... لقلبكَ يومًا أعقَبَتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلَّه أنتَ قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضِه أنت صابرُ»[1]

٢- ذِكْرُ السيوطي له في رسالتِه «تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذليّة»، حيث قال: «وقال الشيخ قُطبُ الدِّين محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ القسطلاني، رحمه الله، أحدُ أئمّة الشافعيّة، وأحد أئمّة الحديث، وأحد أئمّة التصوّف، أخذ عن السُّهْرَوَرْديّ، واجتمع بالشاذِليِّ، وترجمه الإسنوي في «الطبقات»[2]، فقال: كان ممّن جَمَعَ العِلْمَ والعمل والهَيبة والورَع والكرَم. وطُلِبَ من مكَّة، وفُوِّضت له مشيخةُ دار الحديث الكامليّة بالقاهرة، إلى أنْ مات بها في محرّم سنة ٦٨٦هـ، في كتاب له في التصوُّف، سمَّاه «اقتداءُ الغافلِ باهتداءِ العاقل» ما مُلخَّصه ... »[3].

٣- ذِكْرُ الزَّبيدي له في كتابه الذي شرح فيه «إحياء علوم الدين» للغزالي واسمه: «إتحاف السادة المتّقين»، حيث قال: «قال القطب القسطلاني في كتابه «اقتداء الغافل باهتداء العاقل»: «وطلبُ العِلْم مِن أعظمِ الحِجَابِ. وما ذكروه فهو كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ، وصفةُ نقصٍ تحلّى بها مَن هو عنِ الكمالِ عاطلٌ... »»[4].

(١) انظر فيما سيأتي ص١٠٨.
(٢) انظر: طبقات الشافعية، ٢: ١٦٥.
(٣) انظر: الأعمال الكاملة للسيوطي في التصوّف الإسلامي، ٦٧؛ وحسن المحاضرة، ١: ٤١٩.
(٤) انظر: إتحاف السادة المتقين، ١: ٢٥١.

وصف النُّسخ المعتمدة في التحقيق

١- نسخة الأصل

محفوظة بمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، كُتبت في حياة المؤلِّف، في السادس مِن ذي الحجّة سنة ٦٨٢هـ/ الخامس والعشرين من فبراير ١٢٨٤م، أي قبل وفاة القسطلاني بأربع سنوات، وذلك كما جاء في حَرْدِ مَتْنِها:

«وافَقَ الفراغُ مِن نَسْخِه صُبْحَ اليومِ المُبارَكِ، يومِ الجُمُعةِ سادسِ ذِي الحِجّةِ سنة اثنين وثمانين وستّ مئة».

يبلغ عدد أوراقها ١٤٧ ورقة، كُتبت بخطّ نسخ، على يد محمّد بن قيماز ابن محمّد بن عبد الله بن محمّد بن رضوان الشافعيّ السعوديّ، وتبلغ مسطرتها ١٥ سطرًا، جاء على ظهريّتها «كتاب اقتداء الغافل باهتداء العاقل في التصوّف، تصنيف الشيخ الإمام المتقن الحافظ [قطب] الدين، ثقة الناقلين، قدوة العارفين، منهج السالكين، مُفتي الفِرَق، محلِّل المشكلات، مفتي المسلمين، قطب الدين أبي بكر محمد ابن الشيخ الإمام العالم العلّامة الفاضل أبي العبّاس أحمد بن علي ابن محمد بن الحسن القسطلاني، أعاد الله على المسلمين مِن بركاتِه، ونفع بصالحِ أدعيته في خلَواتِه».

ويأتي بعد مصدر معلومات المخطوط السابقة مُقَيَّدةٌ فيها ترجمةُ المؤلِّف مأخوذة من كتاب «العِبَر في خبر مَن غَبَر» للذهبي:

وُلِدَ المصنِّف بمصرَ سنة أربعَ عَشْرَةَ وستٍّ مئة، وسمع بها الحديث من جماعة، وتفقّه وأفتى، ثم رحل سنة تسعٍ وأربعين، فسمع بالشام والجزيرة وبغداد، واستقرّ بها، وكان ممّن جمع العِلمَ والعملَ، والهيبةَ والورعَ والكرمَ، فطُلِب من مكّة، وفُوّضَتْ له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن تُوفّي في المحرّم سنة ستٍّ وثمانين وستٍّ مِئة. كلّه في «العِبَر».

ومن شِعره:

إذا طاب أصلُ المرء طابت فُروعُه ... ومِن غلَطٍ جاءت يدُ الشّوك بالوردِ
وقد يَخبُثُ الفرعُ الذي طاب أصلُه ... ليظهر صنعُ الله في العكس والطّردِ

وهذه النسخة فيها استدراكاتٌ كثيرة على هوامشها، منها استدراكاتٌ من «سَقْطٍ» كُتب عليه «صح»، واستدراكاتٌ من «ضَرْبٍ» كُتب عليه «بيان»، كما جاء في هامش الصفحة ١٣و، ٨٧ظ:

كما أنها مُطالَعة ومُقابَلة على مخطوطٍ آخر، وكُتبت إشاراتٌ لذلك على هوامشها، كما جاء في ٧٦و، ٨٢و:

كما وُجِدَ عليها بعض التملُّكات غير المقروءة والمطموسة، ممّا أفقدنا معلومات عن رحلة المخطوط وانتقالاته حتى وصل إلى مكانِه الحالي، ونظرًا لاعتمادنا على مصوَّرة؛ لم نستطع تقديم وصف كوديكولوجي كامل لها.

٢ - نسخة مكتبة عاطف أفندي باستنبول رقم ١٣٨٣

نسخة ضمن مجموع، به رسالتان للمؤلِّف، الثّانية بعنوان «الأدوية الشّافية في الأدعية الكافية»، كُتبت هذه النّسخة سنة ٨٩٨هـ كما جاء في حَرْدِ متنها:

«تمّ جميعُ الكتاب بحمد الله وحسن عونه وتأييده وتوفيقه على يد العبد الفقير إلى الله، الرّاجي فضل مولاه، محمود بن محمد بن محمود النّقاتيّ، رحم الله السّلف، وثنّى بالبركةِ على الخلفِ، وذلك بتاريخ أواسط شوال يوم السّبت من عام ثمانية وتسعين وثمان مئة».

يبلغ عدد أوراقها ٤٩ ورقة، كُتبت بخطٍّ مغربي حسن، بالمداد الأسود، تبلغ مسطرتها ٢٥ سطراً، بها خَرْم مقدار ورقة وجهًا وظهرًا، ورمزت لها بالرمز (ع).

٣- نسخة جامعة استنبول رقم ١٣٩٥ A

كُتِبَتْ سنة ١١٢٤هـ، كما جاء في حَرْدِ مَتْنِها: «نُجِزَ بحمد الله وعونه في أواخر من شهر ذي القعدة ... سنة ١١٢٤».

يبلغ عدد أوراقها ٨٢ ورقة، كُتبت بخط نسخ بالمدادِ الأسود والأحمر، على يد شخص يسمّى أحمد بن عثمان، تبلغ مسطرتها ١٩ سطراً، جاء على ظهريّتها:

«كتاب اقتداء الغافل باهتداء العاقل للشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلّامة بقيّة السّلف، عُمدة الخَلَف قطب الدّين أبي بكر محمّد ابن الإمام العارف بقيّة المشايخ كمال الدّين أبي العباس أحمد بن علي بن الحسن القسطلّاني، تغمّده الله تعالى بالرّحمة والرّضوان».

ويأتي بعد هذا العنوان خاتم جامعة استنبول، وعلى وجه الورقة الأولى بيتٌ مِنَ الشِّعر نصّه:

لا يُصْلِحُ النّفسَ إذ كانت مدبرة   إلّا التّنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ

بها نظام تعقيبة، ولا يوجد على ظهريّتها أو في غاشيتها ما يفيد قراءتها أو مطالعتها على أحدٍ أو من أحد، ورمزتُ لها بالرمز (س).

٢ – المؤلّف

مولده وحياته

هو محمّد بن أحمد بن علي بن محمّد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد بن الميمون القيسي التُّوزري، الشّيخ قطب الدّين ابن القسطلاني، الفقيه المحدِّث، الأديب الصُّوفي، العابد.

وُلِدَ في ذي الحجّة سنة أربعَ عشْرةَ وسِتِّ مئة. وسمع مِن والده، ومِن الشّيخ شهاب الدين السُّهْرَوردي، ولَبِسَ منه خرقة التّصوف، وسمع الكثير بمصر ودمشق من أصحاب السِّلفي، وأصحاب ابن عساكر، وببغداد من جماعة[1] .

وُلِدَ بمصر ونشأ بمكة[2] وسمع بها «جامع الترمذي» من أبي الحسن بن البنّاء، وسمع من أبي القاسم السُّهْرَوَرْديّ كتاب «عوارف المعارف»، وسمع من الحسن ابن الزُّبَيْديّ وجماعة[3].

وقرأ العِلم ودرّس وأفتى، ورحَل في طلب الحديث سنة تسعٍ وأربعين، فسمع من: محمد بن نصر ابن الحصري، ويحيى بن القميرة، وإبراهيم بن أبي بكر الزعبي، وطائفة كبيرة ببغداد والشّام ومصر والموصل. واستجاز حينئذٍ لأولاده السّبعة: محمّد والحسن وأحمد ومريم ورُقيّة وفاطمة وعائشة. وأسمع بعضهم[4].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية، ٨: ٤٤ ولحظ الألحاظ، ٧٦.

(٢) قال الفاسي: إنّه وُلِدَ بمصر وحُمِلَ في موسم سنة تِسعَ عشْرةَ إلى مكّة، فنشأ بها. انظر: العقد الثمين، ١: ٣٢١؛ والنجوم الزاهرة، ٧: ٣٧٣.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، ١٥: ٥٧٨؛ ولحظ الألحاظ، ٧٦؛ والعقد الثمين، ١: ٣٢١.

(٤) انظر: لحظ الألحاظ، ٧٦؛ والعقد الثمين، ١: ٣٢١.

كان شيخًا عالـمًا، عاملًا، زاهدًا، عابدًا، نبيلًا، جليلًا، مهيبًا، جامعًا للفضائل، كريمَ النفْسِ، كثيرَ الإيثار، حَسَنَ الأخلاق، قليلَ المِثْل. طُلِبَ من مكةَ إلى القاهرة فوُلّي مشيخةَ الكامليّةِ إلى أنْ مات[1].

قال فيه الأديب ناصر الدين أبو علي شاور طرخان، المعروف بابن النقيب:

استوحشَتْ مكةُ من قُطْبها ... واستأنسَتْ مصرُ به الديار
شيخُ شيوخِ الحرم المقتدَى ... برأيه عند الأمور الكبار
فيا له قطبٌ مدارُ العُلا ... عليه، والقطبُ عليه المدار[2]

وقال عنه اليونيني: «كان له صِيتٌ حسن، وتوجُّهٌ وانقطاعٌ إلى الله تعالى ... وكان من مشايخ العصر المشهورين بسَعةِ العِلم»[3].

وقال عنه ابن سعيد الأندلسي: «اجتمعتُ به في داره بالفسطاط، وهو مشهورٌ بالزُّهد، مُلازِمٌ لِلمُجاوَرة بمكّة، فقيهٌ متميّزٌ، مُدرِّسٌ كأبيه، وبيتُه لطيفُ الشمائل، غزيرُ الُمروءة، مُعِينٌ لمن يَرِدُ على مكّةَ من المغاربة بجاهِه ومالِه»[4].

نسبتُه

يُنسب القسطلاني إلى «قُسْطَلِينة»، بضمّ القاف وتخفيف اللام، وبعضُهم ضبط: «قَسْطَلِّينة»، بفتح القاف وتشديد اللام المكسورة، من إقليم إفريقيا بالمغرب[5].

(١) انظر: تاريخ الإسلام، ١٥: ٥٧٨؛ وفوات الوَفَيات، ٣: ٣١١؛ ولحظ الألحاظ، ٧٧.
(٢) انظر: العقد الثمين، ١: ٣٢١.
(٣) انظر: ذيل مرآة الزمان، ٤: ٣٣٠.
(٤) انظر: المُغْرِب في حلي المغرب – القسم الخاص بمصر، ٢٦٩.
(٥) انظر: الديباج المذهب، ١: ٢٤٠؛ والرسالة المستطرفة، ١٢٣.

قال ابن رُشيد في رحلتِه: «وأخبرني (أي القسطلاني) أنها نسبة إلى «قسطيليّة» من بلاد الجريد، وأنّ أصل آبائه منها»[1].

رحلاتُه في طلب العِلم

رحل إلى مكّة – كما سبق ذِكْره – وسمع بها مِن أبي الحسن بن البناء «جامع الترمذي»، ومِن أبي طالب عبد المحسن بن أبي العميد الخفيقي، إمام مقام إبراهيم، ومن الشيخ شهاب الدين السُّهروردي[2].

ورحل إلى دمشق، فسمع بها من إسماعيل بن أحمد العراقي، وأحمد بن المفرِّج بن سلمة الأموي، وغيرهما[3].

ورحل إلى بغداد، فسمع فيها سنة خمسين وستّ مئة من إبراهيم بن أبي بكر الزعبي، وأبي السعادات عبد الله بن عمر البَنْدَنِيجي، وفضل الله بن عبد الرازق الجِيلي، وموهوب بن أحمد الجواليقي، ويحيى بن قميرة، وغيرهم[4].

ثم رحل إلى مدنٍ أخرى، فسمع بالكوفة ومَنْبِج وحرّان وحمص والمعرّة والقدس ومصر والمدينة واليمن[5].

وقرأ الشيخ قطب الدين القسطلاني الفقهَ والتفسير والخلافَ وأنواع العلوم على شيخ الحَرَم نجم الدين بشير بن حامد التبريزي، ودرّس بمدرسة «دار زبيدة» بالحرم بحضرة والده، وأفتى سنة ثلاثٍ وثلاثين وستّ مئة، وحدّث بكثير من مسموعاته وببعض تآليفه[6].

قال ابن فهد الهاشمي: «ثم أخذ في طرق التصوّف والتسلُّكِ، والتعرُّفِ بأرَجِ سلفِه الصالح والتمسُّك، ففاضت عليه عَوَارِفُها، فاجتنى غُروسًا يانعةً، واجتلى

---

(١) انظر: ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة، ٣: ٤١٥.

(٢) انظر: العقد الثمين، ١: ٣٢١.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه.

شُموسًا طالعة، وجمع في ذلك مجموعاتٍ، وأوضح في مجلسه موضوعات ... ولم يزل مُعَظَّمًا عند الخاصّ والعامّ، مُتصدِّيًا لإبلاغ السُّننِ، وإسباغِ المِنَن، قائمًا بقضاءِ الحاجِ على أحسن منهاج»[1].

مؤلّفاته:

١ – الإفصاح عن المعجم من الغامض والمُبهَم[2].
٢ – اقتداء الغافل باهتداء العاقل[3].
٣ – تفسير آيات من القرآن الكريم[4].
٤ – لسان البيان عن اعتقاد الجَنان[5].
٥ – مراصد الصِّلات في مقاصد الصلاة[6].
٦ – مدارك المرام في مسالِك الصيام[7].
٧ – تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة[8].
٨ – تتميم التكريم لِما في الحشيشة من التحريم[9].

(١) انظر: لحظ الألحاظ، ٧٨.

(٢) انظر: الرسالة المستطرفة، ١٢٣؛ وكشف الظنون، ٢:١٥٨٣.

(٣) الذي نحن بصدد تحقيقه، ولم يُذْكَر هذا المؤلَّف إلّا عند الزركلي، ولم يُذْكَر فيما اعتمدَه من مصادر. فقد اعتمد «طبقات الشافعية»، و«فوات الوفيات»، و«الرسالة المستطرفة»، و«شذرات الذهب»، و«النجوم الزاهرة»، و«حسن المحاضرة»، و«المُغْرِب» القسم الخاص بمصر. ولم يذكر «الاقتداء» في أيٍّ منها، فربما شاهد المخطوط ونسَبه إليه. انظر: الأعلام، ٥:٣٢٣.

(٤) انظر: الأعلام، ٥:٣٢٣. اطّلعت على نسختِه مؤخرًا، وجدتُه يتحدّث فيها عن تفسير صوفي لقوله تعالى في قصّة عُزير عليه السلام: ﴿قال كم لبثتَ قال لبثتُ يومًا أو بعض يوم﴾ نسخة ضمن مجموع بدار الكتب ٥٠٨ مجاميع.

(٥) انظر: العقد الثمين، ١:٣٢٢؛ والأعلام، ٥:٣٢٣. ويسمّى: «التعريف للشّيب والشّبان في اعتقاد الجنان»، هو ما تحمله نسخة دار الكتب ٥٠٨ مجاميع.

(٦) انظر: تاريخ الأدب العربي، ٨:٤٣٦.

(٧) انظر: الأعلام، ٥:٣٢٣، وهديّة العارفين، ٢:١٧.

(٨) انظر: كشف الظنون، ٢:١٦٦١؛ وهديّة العارفين، ٢:١٧. النسخة موجودة بدار الكتب المصرية، وشرعت مؤخرًا في تحقيقها مع التتميم.

(٩) انظر: هديّة العارفين، ٢:١٧.

٩- الارتباط[١].

١٠- نصيحة صريحة من قريحة صحيحة في المَنع من الدَّعوى والشطح[٢].

١١- ارتفاع الرُّتبة باللباس والصُّحبة[٣].

١٢- عروة الوثيق في النار والحريق[٤].

١٣- منهاج العلماء الأخيار في تفسير أحاديث كتاب الأنوار[٥].

١٤- المنهج المبهج عند الاستماع لمن رغب في علوم الحديث عن الاطّلاع[٦].

١٥- النُّصح من موارد المتالِف في الاقتداء بالموافق والمخالف[٧].

١٦- تأنيس النضارة على إقامة الوزارة[٨].

١٧- جلالة الدلالة في إقامة العدالة[٩].

---

(١) هو كتابٌ أُلِّف في زنادقة الصوفيّة لم يذكره صراحةً إلّا السخاوي. انظر: القول المُنبي عن ترجمة ابن العربي، ١٦٤، و٢٣٩. وذكره تعريضًا ابن العماد، قال: إنّه صنّف كتابًا في الطائفة الذين يَسْلُك طريقتهم ابن سبعين، وبدأ بالحلّاج وختمَ بالعفيف التلمساني. انظر: شذرات الذهب، ٧: ٦٩٤. كما ذكره تعريضًا أيضًا تلميذه أبو حيّان الأندلسي في البحر المحيط قائلًا: «وقد صنّف شيخُنا المحدِّث المتصوّف قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن القسطلاني كتابًا في هذه الطائفة، فذكر فيهم الحسين بن منصور الحلّاج، وأبا عبد الله الشوذي، وإبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان عرف بابن المرأة، وأبا عبد الله بن أحلى المتأمر بلورقة، وأبا عبد الله بن عربي الطّائي، وعمر بن علي ابن الفارض، وعبد الحق بن سبعين، وأبا الحسن الششتري من أصحابه، وابن مطرف الأعمى من أصحاب ابن أحلى، والصفيفير، والعفيف التلمساني. وذكر في كتابه مِن أحوالِهم وكلامِهم وأشعارهم ما يدلّ على هذا المذهب». تفسير البحر المحيط، ٥: ٣٣.

(٢) نفسه.

(٣) انظر: هديّة العارفين، ٢: ١٧. وذكرها بلُوط في كتابه بعنوان: «رسالة في إلباس الخرقة». انظر: معجم التاريخ التراث، ٢٥١٨؛ والعقد الثمين، ١: ٣٢٢ بعنوان: «ارتقاء الرُّتبة في اللباس والصُّحبة».

(٤) العقد الثمين، ١: ٣٢٢.

(٥) انظر: معجم التاريخ التراث، ٢٥١٨.

(٦) انظر: العقد الثمين، ١: ٣٢٢.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه.

(٩) انظر: العقد الثمين، ١: ٣٢١. وأعتقد أنها الرسالة المسمّاة: «إدالة العدالة على إقامة الجلالة» ضمن المجموع المذكور.

١٨ – فواضل الزمن في فضائل اليمن[١].
١٩ – منهاج النبراس في فضائل بني العبّاس[٢].
٢٠ – الورد الزائد في برّ الوالدين[٣].
٢١ – وسيلة العباد في فضيلة الجهاد[٤].
٢٢ – الأدوية الشافية في الأدعية الكافية[٥].
٢٣ – مجلس في فضل رمضان[٦].
٢٤ – مجلس في فضل ذي القعدة[٧].
٢٥ – المناسك[٨].
٢٦ – جَمْلُ الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز[٩].
٢٧ – رسالة «الحَمالة»[١٠].
٢٨ – مسألة تكلّم فيها العزّ بن عبد السلام في تفضيل الأنبياء[١١].
٢٩ – يقظة أهل الاعتبار في موعظة أهل الاغترار[١٢].

---

(١) العقد الثمين ١:٣٢١.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه. وأتوقّع أنّ هذا العنوان مُصحَّف عن عنوان: «الورد الرائد في ورد الوالد» ومنه نسخة محفوظة بمركز جمعة الماجد بدبي رقم ٢٣٩١٩٦.
(٤) نفسه.
(٥) انظر: هديّة العارفين، ٢:١٧.
(٦) انظر: العقد الثمين، ١:٣٢٢.
(٧) نفسه.
(٨) نفسه.
(٩) نفسه.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه.
(١٢) انظر: تاريخ الأدب العربي، ٨:٤٣٦. نسخة بالمجموع المذكور، يسقط منها آخر ورقة نتيجة خرم به.

٣٠– تحفة المفيد والمفاد في صفة المريد والمراد[١] (تحفة المفاد والمفيد في صفة المراد والمريد).

٣١– شعار الإظهار في منازل المُقرَّبين والأبرار[٢].

٣٢– ورد الرائد في ورد الوالد[٣].

٣٣– تذكرة اعتماد الفكر في صحّة اعتقاد البشر[٤].

٣٤– طرفة الإنسان وتحفة الإحسان[٥].

٣٥– تنضيد المعالم في تقدير المظالم[٦].

٣٦– وصيّة للسُّهْرَوردي[٧].

القطب القسطلاني والتصوّف الإسلامي

ملامحه الصوفيّة

يقول حبيب الله حسن: أمّا ملامحُ القسطلاني الباديةُ في أقوالِه، فإنّ ما وصلَنا من المأثور عنه مِن شِعْرٍ ونثرٍ – على نُدْرَتِه – يقدِّم لنا صورةً عن تصوّفِه، وتطلُّعِه إلى التصوف المنشود.

ومِن الناحية العلميّة فإنّ حياته صورةٌ صادقةٌ لِما كان يتطلّع إليه مِنَ التصوّف الحقّ، وقد يُعبِّر عن تجربتِه الصوفيّة شِعرًا، فيَشعرُ القارئُ له بصدق اللهجة، وهو يُترجم بشِعرِه عن سلوكِه الظاهر، وأحاسيسِه الباطنة.

---

(١) انظر فيما سبق ص ١

(٢) انظر فيما سبق ص ١

(٣) انظر فيما سبق ص ١

(٤) منها نسختان بمركز جمعة الماجد بدبي برقمي ٣٧١٥٩٤، ٣٧١٥٩٥.

(٥) يوجد منها نسخة خطّية بمركز جمعة الماجد برقم ٣٧٥٢٤٨.

(٦) ضمن المجموع المذكور، ومفقودة نتيجة خرم به.

(٧) ضمن المجموع المذكور ومفقودة نتيجة خرم به.

فمِن ذلك قولُه وهو يعزم على الزهدِ في الدنيا وأهلِها، ليُقبِل على الآخرةِ:

لَأَجْـهَـدَن عـلى ألّا أرى أحـدًا ... وأنثني خاليًا عن قُربِ مَن بعدا
وأُعْـمِـلُ الـفـكـرَ فـيها أستـفـيـدُ به ... يـومَ الـنشـورِ غـدًا عـند الإلـه يَدا
إنّي اعتبرتُ بَنِي الدنيا فما ظَفِرَتْ ... كفِّي بـودِّ امـرئٍ ألـقـاهُ مُعتـمَـدَا
لا في الـشـدائـدِ أعـوانٌ عـلى زمـنٍ ... ولا الـرخـاءِ أيـاديـهـم تَـمُـدُّ يـدا
ومَـن تـصـدّى إلى إتـيـان بـابِـهِـمُ ... أُهِـينَ حِينًا وأَلْـفَـى منهمُ نَكَـدَا
والحُـرُّ يَـأنَـفُ عـن ذُلٍّ يفيـد به ... عِـزًّا فكيف بـذُلٍّ قـاصرٍ أبـدا؟!
الـعـزُّ تـركُ الـدنـيـا بـأجمعـهـم ... لا عن هوانٍ بهم بل ترك مَن زَهدا[1]

روافده الصوفيّة

يُرجِعُ حبيب الله حسن روافد القسطلاني الصوفيّة إلى عدّة عوامل، كان مِن أبرزها: أسرته، وشيوخه، وظروف عصره السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

أمّا عنِ الرافد الأوّل، وهو أسرتُه، فقد عرفنا أنّ أسرتَه بيتُ عِلمٍ وتصوُّف، فوالدُه واحدٌ مِن صوفيّة عصرِه، وكثيرًا ما يَنقُل عن والدِه المأثوراتِ التي ينقلها بدورِه عمّن سبقه.

وأمّا عنِ الرافد الثاني، وهم شيوخه، فقد تتلمذ لكثيرٍ مِن صوفيّة عصرِه، وأبرزُهم شهابُ الدين السُّهْرَوَرْديّ صاحبُ كتاب «عوارف المعارف».

وأمّا عنِ الرافد الثالث، وهو ظروف عصرِه السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية، وهي المتمثّلة في النكَبات التي حلّت بالعالم الإسلاميّ، فقد هيّأت لانتشار التديُّنِ بصفةٍ عامّة، والتصوُّفِ بصفةٍ خاصّةٍ، على اعتبار أنّ المرء عندما يفتقد الحيلة لا يَملِك إلّا أنْ يلجأ إلى الله تعالى[2].

(١) انظر: جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله، ٢٦–٢٧.
(٢) انظر: جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله، ٢٧–٢٨.

رؤية القسطلاني للصوفية

ارتكزت رؤية القسطلاني للتصوّف على ركيزتين: نقديّة وبنائية. الأولى: تتمثّلُ في فضح ما لا يمتّ إلى التصوّف بصلةٍ، ويلتصقُ بالتصوّف وهو منه بريء. وأحسنُ ما استشهد به القسطلاني لتوضيح هذه الصورة بيتٌ من الشِّعر يقول:

[الكامل]

أمّا الخيامُ فإنّها كخيامِهم وأرى نساءَ الحَيِّ غيرَ نِسائها

والثانية: تتمثّل في رسم الطريق الصحيح للتصوّف، مِن بداية الطريق إلى منتهاه ... فهو لا يكاد يتحدّث عنِ الجانب النقدي إلّا ويُردِفُه بما ينبغي أن يكون عليه التصوّف، وما يفعلُه السالك، وما يتّصفُ به الشيخ(١).

وفاته

انتقل إلى رحمة الله في الثامن والعشرين من المحرّم سنة ستّ مئة وستٍّ وثمانين بالكامليّة، واجتمعت العامّة على الباب يضجّون بالبكاء عليه. وأُخرج عَقِيب الظُّهر مِنَ المدرسة والخلائقُ بين يديه مُمتدّون إلى تحت القلعة، فتقدّم عليه في الصلاة جمالُ ابن النقيب المُفسّر، ولم يُدخل إلى قبره بالقرافة إلّا بعد العصر؛ لكثرة الزّحام. وكان يومًا مشهودًا. وكان علَمُ الدين البِرْزاليّ ممن حضر دفنه(٢).

(١) انظر: جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله، ٢٩–٣٠.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، ١٥: ٥٧٩.

٣ – طريقة إخراج النصّ

لم يشإ اللهُ تعالى أنْ يخرج هذا النصّ إلى النّور لأوّل مرّة معيوبًا مبتورًا غير واضح تمام الوضوح لقارئِه، وذلك لأنّه كان سيخرجُ على نسخةٍ وحيدةٍ، ظننتُها أنا والمقرّبين منّي أنها نادرة، وهذا إنْ نجم عن شيء فإنما ينجمُ عن تقصيرٍ مني. لكنّ اللهَ سبّبَ لي الأسباب، وساقَ إليّ مَن بصّرني على استدراك هذا العيبِ، وأعطاني ما أُكْمِلُ به هذا النّقص، فبعد أنْ قام المعهدُ الألمانيّ للأبحاثِ الشّرقيّة ببيروت بتجهيز أوّل مسوّدات العمل، وأرسلها لي؛ كي أقوم بمراجعتِها، فُوجِئْتُ في ليلةٍ من ليالي معهد الدّراسات الشّرقية للآباء الدّومنيكان البحثيّة، والتي من النّادر أنْ يجتمعَ فيها عددٌ كبيرٌ من الآباءِ الفلاسفةِ، ومعهم ضيفٌ كريم، تبادلنا معًا أطرافَ الحديثِ، وما أحلى الحديث إذا كان مُتَنَاوِلًا في أطرافِه التراث والكتب والمخطوطات، حيثُ اهتمام وتخصّص الجلوس كلهم بلا استثناء، تحدّثتُ أمام الجميع عن نصّي المهمّ الذي حقّقتُه على نسخةٍ نادرةٍ، ليس لها ثانية في العالم، هكذا كان اعتقادي والجلوس العارفين بالأمر، وعن نشرتِه المستقبليّة في سلسلة «النّشراتِ الإسلامية» التي أسّسَها المستشرق الألماني هلموت ريتر منذ أكثر من ثمانين عامًا، ويصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقيّة بالتعاون مع جمعية المستشرقين الألمان، وإذا بالضّيفِ يصعقني بقوله: «معي منه نسختان»!. يا الله، النّص الذي حقّقتُه على نسخةٍ نادرةٍ معك منه نسختان؟! وقتها لم يصاحبني إلّا الصّمت والهمّ، وغبتُ عمّن حولي، فغادرتْ جسدي أفكاري، وراحت تُشرّق وتُغرّب، تخاطبُ النّاس دون رأيي، وتُقرِّر وتلغي، وتفعلُ ما يحلو لها، وجسدي الذي لم يتحرّك حركةً واحدة تَصبّبَ عرقًا مِن هولِ الموقفِ.

ظللتُ هكذا حتى لاحظ الجلوسُ ما أنا عليه، وأولهم صديقنا الحبيب المهموم بهمومنا، الفرنسي العربي، الذّائب في حبّ مصر، الأخ العزيز أحمد شُليلات، كان كلّ همّي في هذه اللحظة التي أقلعتني مِن جذوري، ماذا أنا قائلُ

لِلأستاذ الدكتور ستيفان ليدر؟، كيف ستكون الثّقة بيننا بعد هذا الموقف؟، وإذا بالقريب مني، والصّديق العزيز رونيه فانسان، مدير المكتبة يمدُّ يده ويُنقذُني مما أنا فيه قائلًا: سوف أقوم أنا بهذه المهمّة (الحديث مع ليدر إياه)، في هذه اللحظة خفّف عني، وبدأت مِن وقتِها أفيقُ من دهشتي، وأستشعرُ فضل ربّي عليّ، وأحسُّ بالنّعمةِ والمنّةِ عليّ، فقد ساق لي دون سابق أي مقدّمات مَن أنقذني – بفضله تعالى – من كارثةٍ أوشكت أنْ تحلّ عليّ، لو طُبِعَ الكتاب على وضعه الأوّل. على العِلْم أنّ الوضع الأوّل قد رضِي عنه الجميع، لكنْ يبقى خطر تحقيق النّص على نسخةٍ واحدةٍ ملازماً لصاحبِه لا يفارقه، فعند ظهور نسخة أو نسخ للنّص المحقَّق على نسخة واحدة وقتها فقط يُوضَع محقِّقُه أمام مسؤوليةٍ كبيرة، وتُطْرَحُ أقلّ الأسئلة: قرأتَ النّص قراءة سليمة أم زاغت الأبصار؟ في هذه اللحظة يُكرَم المرء أو يُهان. سلّمنا الله من العبثِ بتراث أمّة خير الأنام!.

وأتى في اليوم الثالث على التّحديد ردّ الأستاذ الدكتور ستيفان ليدر، أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية، ومدير المعهد الألماني، بكلّ بساطةٍ وتفاؤلٍ وصبرٍ وتقدير للكتاب ومحقِّقِه، وما فيه من جهدٍ: «نحن محظوظون إذْ ظهرت هذه النُّسخ في هذا الوقت الحرج».

بهذه الكلمة البسيطة انتهتْ الأزمة، وشمّرتُ عن ساق الجِدّ كي أقوم بمقابلة النُّسَخ مقابَلةً دقيقة.

والواقع أَنّ تحقيق النّص على نسخةٍ واحدةٍ يحتاج إلى عواملَ مساعدة ومحدّدة، وهي مصادر المؤلّف التي اعتمد عليها، والمصادر التي اعتمدت عليه، هذه العوامل هي التي يرتكزُ عليها الباحث أثناء قراءة الكلمات التي أُغلِقتْ عليه أو التي يشكّ فيها، ولكن ماذا نفعل لو كانت مصادر المؤلِّف التي اعتمد عليها قليلة للغاية، واعتمد في كتاباتِه بكثرة على بناتِ أفكارهِ، وماذا نفعل أيضًا لو أنّ نصّاً كالذي بين أيدينا ظلّ مجهولًا حتّى عمّن كتب بعمق في التصوّف من بعده،

بل عمّن كتب عن الكتب (الببليوغرافيا) فلم يطّلع عليه أحد من الببليوغرافيّين، ولم يعتمد عليه ممّن كتب في التصوّف سوى من ذكرنا سابقاً؟[1].

وقد حرصت على مقابلة الكتاب على مصادره أو المصادر التي نقلت عنه، فقد توصّلتُ إلى عددٍ مِن المصادر، مثل: «الرسالة» للقشيري، و«عوارف المعارف» للسُّهْرَوردي، وغيرهما.

ومِنَ المصادر التي اعتمدت عليه: رسالة السيوطي «تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذِليّة»، وفي مواضع معدودة «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي، لكن ظل الخطرُ كامناً وقائماً في المواضع التي لم يعتمد على مصادر فيها.

وقمتُ بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار، وأثبتُّ أرقام صفحات الأصل في المتن لتسهيل الرجوع إليه، فضلاً عن التوثيق المَرعِيّ في كلّ العمل.

كما كنتُ حريصًا على عدمِ إثقال الحواشي السُّفلية بالتراجِم والشُّروحات، واتّبعت المنهج المُعتمِد على إخراج النصّ فقط، مع كلّ ما يساعد على هذا الأمر، بالإضافة إلى تخريج الأحاديث والآثار وتوثيق النُّقول.

الرموز المستخدمة في التحقيق

الأصل = نسخة مجمع اللغة العربية بدمشق والتي كتبت في حياة المؤلّف.

ع = نسخة عاطف أفندي، السليمانية، اسطنبول.

س = نسخة جامعة استنبول.

ما تحته خط = مصادر المؤلِّف الشّفهيّة وأقوال المؤلف وتقريراتُه.

[ ] = زيادات من خارج النُّسَخ، وأرقام النسخة الأصل.

---

(١) انظر فيما سبق ص٢.

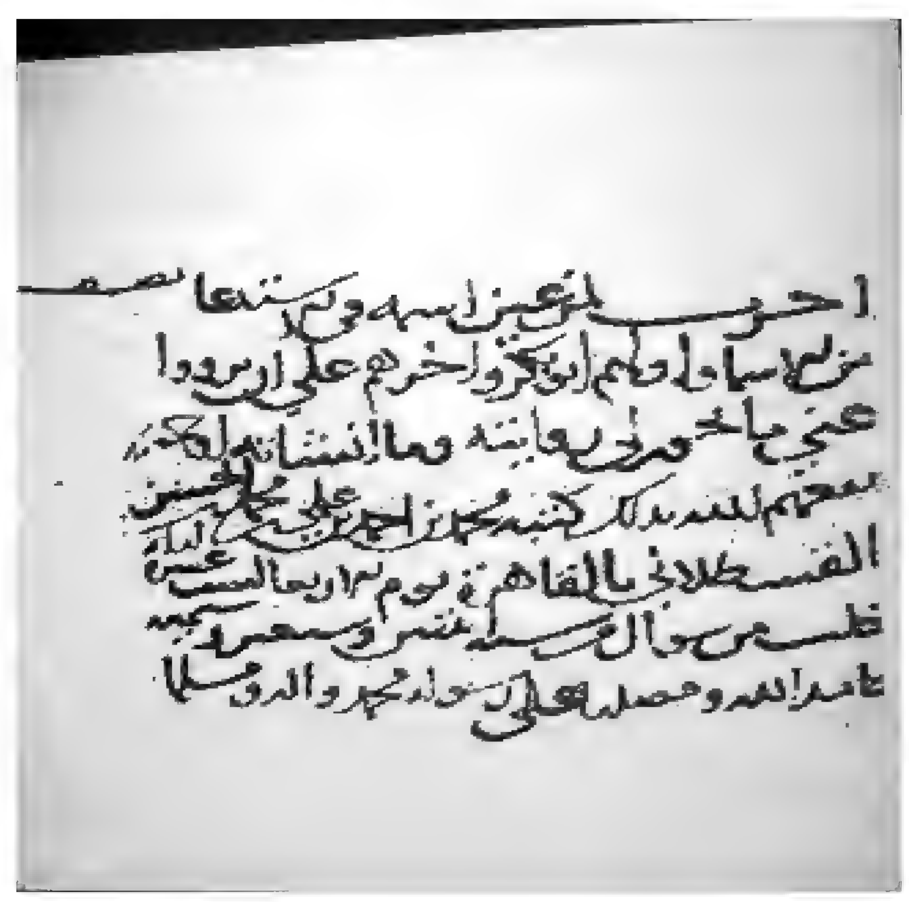
رَبَّنَا علَيْك توكَّلْنَا وإليك أَنَبْنَا وإليك المصير

وكتبه

أحمد جمعة عبد الحميد

القاهرة أول ديسمبر ٢٠١٤ م

نماذج من المخطوطات



خط القطب القسطلاني من خلال إجازة[1]

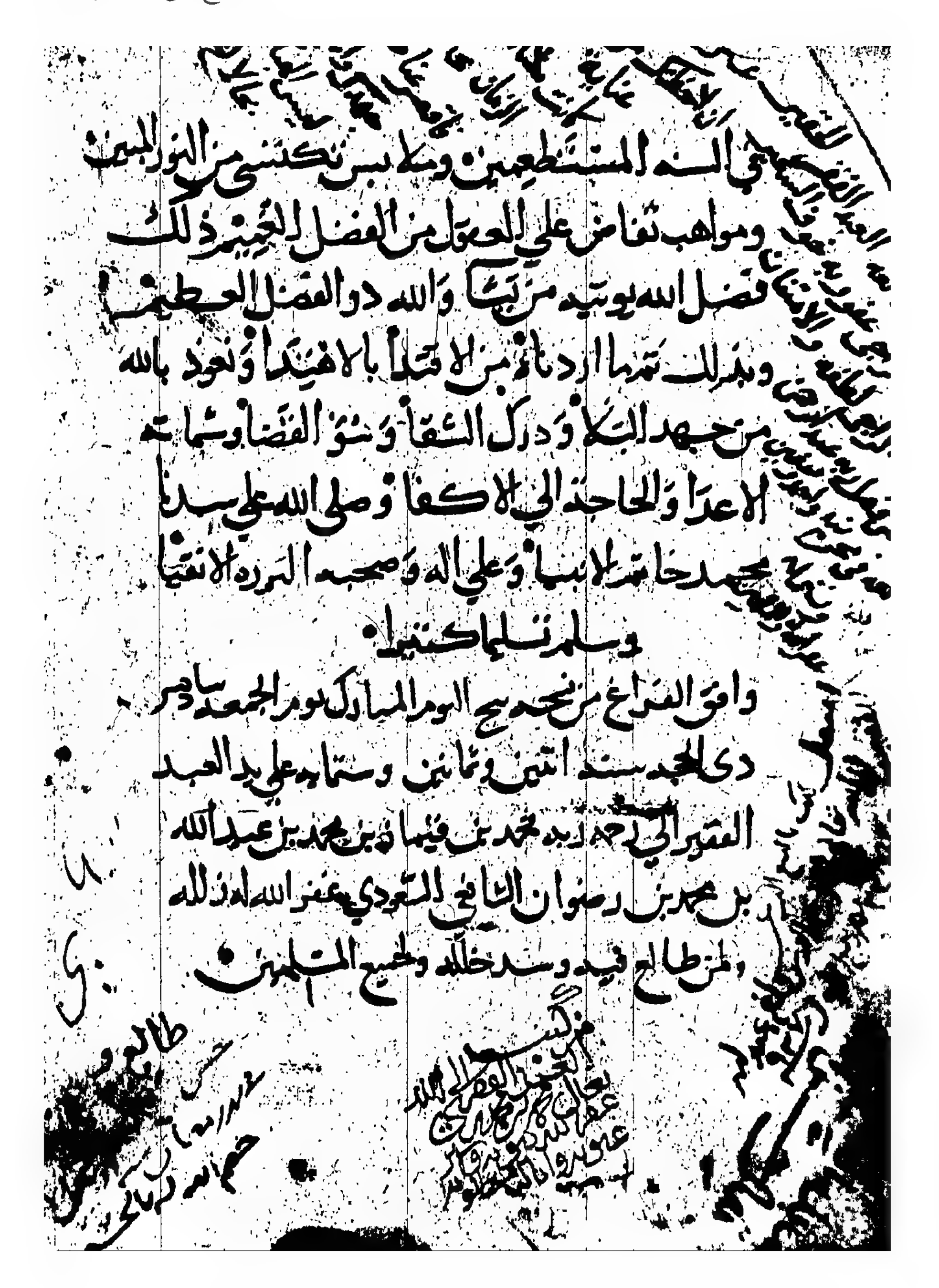
(١) لاتوجد بالأصول المخطوطة وانظر: المخطوطات الموقعة، أعمال المؤتمر الدولي الثاني لمركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية (أبريل 2005) ص 367.

بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الفقيه الامام العالم العامل
العلامة بقية السلف عمدة الخلف قطب الدين
ابو بكر محمد بن الامام العارف بقية المشايخ
كمال الدين ابو العباس احمد بن علي بن محمد بن
الحسن القسطلاني فسح الله في مدته ونفع
المسلمين ببركته.
الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى من احبهم فرضيهم
لخدمته وتجاوز عنهم وعفا. وملأ صدورهم بهيبته
حتى يتخلل احدهم العرق من الحيا منه ان يامر عنه او عفا.
شغلهم بنفوسهم حتى وردوا من شربهم بعد الكدر
على ما قد صفا. ورقاهم الى الاشتغال به عنها فطافت
بهم الطائفة فاثبت معرفته في قلوبهم والجهل به عنهم
نفا فطوبى لهم لما نعموا بالباس من العيش حسبنا قد صفا.
والصلوة والسلام على محمد عبده ورسوله الذي به ختم

الورقة الأولى من الأصل (= النسخة المحفوظة في مجمع اللغة العربية بدمشق،
والموجود صورة عنها في مركز جمعة الماجد تحت الرقم: 224542)

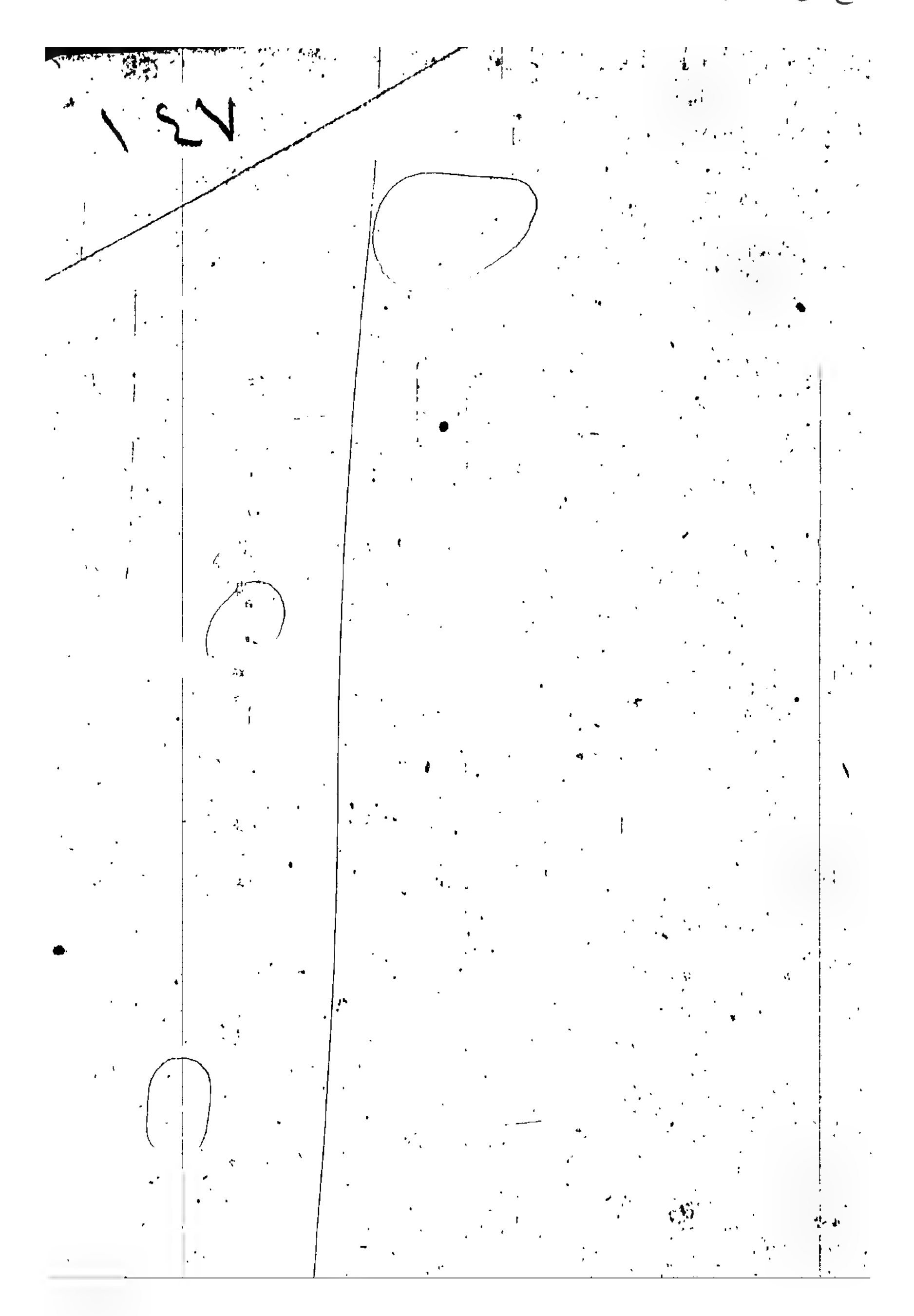
النبوة اكتفى وعلى آله وصحبه وتابعيهم ومن احتذى
واحتذى وآثار رشدهم اقتفى ولما كان الدين النصيحة
للعام والخاص والبر والفاجر من غدر في العهد او وفا
ولاطف في معاملته للخلق او جفا وتعين علينا بذل النصح
لتحصيل شفا الامراض التي اصابها منها على شفا وان الله
بحكمته التي حررها وبنعمته التي قررها اقام في كل
عصر من جعل له لسانا معبرا عن عوارف المعارف
مخبرا عن لطايف العواطف منتزرا لطرايف الوظايف
ونصب له سنانا طاعنا لمن جادل في الباطل وجا بالعوارف
المتعارف فيقطع به ما اتصل من الجهل المتكاثف
ويخمد به ما آثار من نار السخف المتضاعف ويثبت به
ما اظلم من هوس النفس العاكف ويقوي به ما
اضطرب من راي الهوى الطايف [illegible]
وتناهى الى ان طال فيه على ارباب الفضايل [illegible]
الرذايل وجال فيه بالمقال على الا[illegible]

*(ملحوظة: الترقيم الظاهر في أعلى يسار الصفحة ليس ذا بالٍ ولم نأخذه بعين الاعتبار)



في السنة المستطيعين وملابس تكتسي من النور المبين
ومواهب تفاض على العقول من الفضل التمييز ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم
وبذلك تم ما أردناه من الابتداء بالاهتداء ونعوذ بالله
من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة
الأعداء والحاجة إلى الأكفاء وصلى الله على سيدنا
محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه البررة الأتقياء
وسلم تسليما كثيرا.
وافق الفراغ من تخريجه اليوم المبارك يوم الجمعة سادس
ذي الحجة سنة اثنين وثمانين وستمائة على يد العبد
الفقير إلى رحمة ربه محمد بن عثمان بن محمد بن عبد الله
بن محمد بن رضوان الشافعي السعودي غفر الله له ولوالديه
ولمن طالع فيه وسد خلله ولجميع المسلمين.

الورقة الأخيرة من الأصل (مركز جمعة الماجد بدبي –(نسخة مجمع اللغة العربية بدمشق))


١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الشيخ الامام الفقيه العالم العامل العلامة بقية السلف عمدة الخلف
قطب الدين ابو بكر محمد بن الامام العارف بقية المشايخ كمال الدين
ابو العباس احمد بن علي بن محمد بن الحسن القسطلاني رحمة الله عليه
ونفع المسلمين ببركته الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى
ممن احبهم فرضيهم لخدمته وتجاوز عنهم وعفا وملأ صدورهم هيبة
حتى يتجلل احدهم العرق من الحيا منه ان نام عنه او غفا شغلهم بنفوسهم
حتى وردوا من شربهم بعد الكدر على ما قد صفا ورقاهم الى الاشتغال به عنها
فطافت بهم الطائفة فاثبت معرفته في قلوبهم والجهل به عنهم نفا فطوبى
لهم لما تنعموا بلباس من العيش حسنه قد ضفا والصلاة والسلام
على محمد عبده ورسوله الذي به ختم النبوة اكتفى وعلى اله وصحبه وتابعيهم
ومن احبه واحبهم واثار شرعتهم اقتفى وبعد لما كان الدين النصيحة للعام
والخاص والبر والفاجر ممن غدر في العهد او وفى ولا لطف في معاملته
الخلق او جفا تعين علينا بذل النصح لتحصيل شفا الامراض التي اصحابها
منها على شفا وان الله بحكمته التي حررها ونعمته التي قررها اقام في كل
عصر من جعله لسانا معبرا عن عوارف المعارف ومخبرا عن لطائف العواطف

الورقة الأولى من نسخة جامعة استنبول (رقمها: 2536)(1ظ-2و)

مقررا لطرايف الوظايف ونصب له لسانا طاعنا لمن جال في الباطل
وجا بالقول المتجازف فيقطع به ما اتصل من الجهل المتكاثف ويخمد به
ما اثار من نار السخف المتضاعف ويشرد به ما اظلم من هوس النفس
العاكف ويحقق به ما اضطرب من راي الهوى الطايف ولما دفعنا
في وقتنا هذا الى زمن طال فيه على ارباب الفضايل ارباب الرذايل وه
حارفيه بالمقال على الاماثل ولبسوا لهم بالمماثل تعين علينا ان
نصح اهل الوسايل ونبين لدينا ان نوضح ما التبس على الافاضل
من الفضايل ببيان الحق لمن اعرض عنه لما جهله وتقريب الطريق على
من قصر ان يصله وترتيب السير لمن اصغى لصدق المقال وقبله وانما
ينتفع بالنصح من تلقاه بالقبول وامتثله فحينئذ يزيل الله عنه ذلك
ويقصر به امله ويعدم منه علله ويستر منه خلله واما من اعرض عن قوله
استكبارا ونفارا وادبارا عن استماعه وفرارا فانه لا يهتدي للصدق
اصرارا واضرارا وكيف يصغي للاستماع من جعل الله في اذنه عنه وقرا
وفي قلبه لما يلقى اليه من العرف نكرا فهو من قوم ذكر الله حالهم لقوم يعتبرون
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وبعد فان السابق للاحق
قدوة ورحمة والاكابر للاصاغر حجة ونعمة والمشايخ عن الخطا في السير
للسالك عصمة وقد نبه الله على سر الاقتدا من كان عقله بالغفلة عن قصد
الصواب لم يرشده فقال تعالى اولئك الذين هدى الله فبهداهم
اقتده وانما امر بالاقتدا بهم وان علت رتبته على رتبتهم اما التقدم

عظيمة اذا ذكرت بشروطها في تنوير الباطن وضبط النفس عن التبدد في الخواطر
وجمع الهم فليداوم العبد على ذكر هذه الكلمة في خلوته لا يفتر عن ذكرها حتى يتمكن
في قلبه وتنزل منزلة حلاوة نفسه فاذا استهلت على اللسان ما صلت في قلبه بقي
القلب ذاكرا واللسان ساكت فيتجوهر القلب ويستقر فيه نور اليقين ويتحد الذكر
مع روية عظمة المذكور جل وعلا فيكون الذكر اذ ذاك ذكر الذات وذلك هو المشاهدة
والمكاشفة والمعاينة فيتجوهر القلب بنور الذكر وهذا هو معنى قوله عليه السلام
اللهم اجعل في قلبي نورا الى ان قال اللهم اجعلني نورا وهذا هو اقصى موضوع
الخلوة عند اهلها وهي موهبة عظيمة ورتبة علية وقد تنال هذه الحالة بتلاوة
القران بالتدبر والاعتبار والتفكر والافتقار حتى يشهد عظمة المذكور فيما
يحاوله في التلاوة في الصلاة وغيرها فيشرق نور الكلام على القلب ويستحضر
عظمة المتكلم فيجمع بين نور الكلام ونور عظمة المتكلم فيستفيد بما ذكرناه
من اللذاذة والحلاوة والانس سابقا هذا مع ما يفتح به عليه من العلوم اللدنية
والمطالع الغيبية بالاسرار الكشفية والمعارف الالهامية وان كان دون الاول
وقد يقوى عليه الحال في الذكر فيخرج حتى يبقى كانه في الذكر كصاحب السبات او النوم
الا انه ناطق فيتجلى له الحقايق كما يقع للنايم فيحتاج الى التعبير وقد يتجلى الحقايق
للذاكر من غير تنال فيكون كشفا وعلما من الله له فتارة بالعيان وتارة بالسماع
من خارج كالهاتف وتارة من الباطن وكل ذلك ينال صاحب الخلوة الجارية
على اصل الصحة فيصيب حظا من الفتح بما يزيده شغفا بالاستقامة والصدق
في المعاملة والفتوة في الزهادة والتلبس بمحاسن الاخلاق المعتاد وقد

يقع

الورقة الأخيرة من نسخة جامعة استنبول (78ظ-79و)

وقد يقع شيء في صورة الفتح على من واصل واعتزل ولم يانس نفسه
بالسياسة الشرعية فيكون ذلك القدر سببا لبعده وطرده فيزداد جماحا
واستطالة واحتقارا بالعباد ويتمادى به الامر في ذلك حتى يمرق من الدين
ولا يرى الاقتداء بالنبيين ويعتقد ان المراد هو الذكر المبين دون سنة بعض
المرسلين ذلك هو الخسران المبين فيخرج بذلك عن جملة من يعد من الموحدين
ويثبت في ديوان المتزندقين الملحدين وقد يقع التمويه على طائفة اخرى
بخيالات وهي ناشية عن جهالات وليست بوقائع عند ارباب الحالات وعلى كل واحد
ذاهل الاعوجاج والاستقامة دلالات وقصد الاختصار في المقالة يحملنا
على الاقتصار عن الاطالة والمواجيد التي ترد على قلوب المتوجهين لا يسع التعبير
عنها للمستمعين وانما لها اثار تلوح عند المتبصرين وروايح تفوح
عند المستنشقين ومطاعم تذاق في السنة المستطعمين وملابس
تكسى من نور المبين ومواهب تفاض على العقول من الفضل العميم ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وبذلك تم ما اوردنا
من الاقتدا بالاهتدا ونعوذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقا وسوء القضا
وشماتة الاعداء والحاجة الى الاكفاء وصلى الله على محمد خاتم الانبياء
وعلى اله وصحبه البررة الاتقياء نجز بحمد الله وعونه في اواخر
من شهر ذي القعدة على يد احقر العباد احمد بن عثمان
غفر الله ذنوبه ولوالديه ولجميع المومنين
١١٣٤ سنة ١١٣٤
١١٣٤

النصّ مُحقّقًا

[توطئة]

| بسم الله الرحمن الرحيم ٤ظ

(*وبه نستعين*[١])

قال الشيخُ الفقيهُ الإمامُ العالِمُ العامِلُ العلّامةُ بقيّةُ السلفِ، عُمْدةُ الخلَفِ، قُطب الدين أبو بكر محمّد ابن الإمام العارف بقيّة المشايخ كمال الدين أبي[*]العبّاس أحمد بن علي بن محمّد بن الحسن القَسْطلاني، (*فسَح الله في مُدّتِه*[٢])، ونفع المسلمين ببركتِه:

الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفَى، ممّن أحبّهم فرَضِيَهُم لخدمتِه وتجاوزَ عنهم وعَفَا، وملأَ صدُورَهم بهيبتِه[٣]، حتى يَتَخَلَّلَ أحدَهُمُ العَرَقُ مِنَ الحياءِ منه إنْ نامَ عنه أو غفا، شَغَلهم بنفوسِهِم حتى وَرَدُوا مِن شُربهم بعد الكدَر على ماءٍ قد صفا، ورَقّاهم إلى الِاشتغال به عنها، فطافت بهم ألطافُه، فأثبت معرفتَه في قلوبِهم، والجهلَ به عنهم نفَى، فطُوبى لهم لَمّا تنعّموا بلباسٍ مِنَ العيش خَشِنُه[٤] قد صفا.

والصلاةُ والسلام على محمّدٍ عبدِه ورسولِه الذي به في خَتْم | النبوّةِ اكتفى، ٥و وعلى آله وصحبِه وتابعِيهم، ومَن أحبّهُ وأحبّهم، وآثارَ شِرْعَتِهِمُ اقتفَى.

ولمّا كان الدِّينُ النصيحةَ، لِلعامّ والخاصّ والبَرّ والفاجر ممّن غدَرَ في العهدِ أو وَفَى، ولَاطَفَ في مُعامَلَتِه لِلخَلْق أو جَفَا، وتعيَّنَ علينا بذلُ النُّصح لتحصيلِ

(*-*١) لا يوجد في الأصل، ع. والمثبت من: س.
(*) في الأصل: أبو.
(*-*٢) س: رحمة الله عليه.
(٣) س: هيبة.
(٤) ع، س: حسنه.

شفاءِ الأمراضِ التي أصابها[١] منها على شفا، وأنّ الله بحكمتِه التي حرّرها، ونعمتِه التي قدّرها[٢]، أقام في كلِّ عصرٍ مَنْ جَعَلَ[٣] له لسانًا مُعبّرًا عن عوارفِ المعارفِ، مُخبرًا عن لطائفِ العواطِفِ، مُقرّرًا لِطَرائفِ الوظائفِ، ونصب له سنانًا طاعنًا لمن جالَ في الباطلِ وجاء بالقولِ المتحارفِ[٤]، يقطع به ما اتّصل مِنَ الجهلِ المتكاثِف، ويُخمدُ به ما أثَار مِن نارِ السُّخْف المتضاعف، ويُنِيرُ به ما أظلم مِن هَوَسِ[٥] النفسِ العاكِف، ويحقّق به ما اضطرب مِن رأيِ الهوى الطائف.

وإنّا[٦] لّما دُفِعْنا[٧] في وقتنا هذا إلى زمنٍ طالَ فيه على أربابِ الفضائلِ أربابُ الرذائلِ، وجال فيه بالمقالِ على (*الأمثال ما[٨] ليس لهم[٩] بالمماثِلِ*١٠) | ، تعيّن علينا أَنْ ننصحَ أهلَ الوسائلِ، وتَبيّن لدينا أنْ نُوضِّحَ ما الْتَبَسَ على الأفاضلِ مِنَ الفضائلِ، ببيان الحقِّ لمن أعرضَ عنه لَمّا جهلَه، وتقريبِ الطريق على مَن قصدَ أنْ يصلَه[١١]، وترتيب المسير لمن أصغى لصدقِ المقال وقَبِلَه، وإنّما ينتفعُ بالنُّصح مَن تلقّاه بالقَبولِ وامتثلَه. فحينئذٍ يُزيلُ اللهُ عنه زَلَلَه، ويُقصر به أملَه، ويُعدِمُ منه عِلَلَه ويسُدّ منه خلَلَه. ٥ظ

وأمّا مَن أعرضَ عن قَبولِه استكبارًا ونفارًا، وإدبارًا عنِ استماعِه وفِرارًا، فإنّه لا يهتدي للصوابِ إصرارًا وإضرارًا، وكيف يُصغي لِلاستماعِ مَن جعل اللهُ في

(١) س: أصحابها.

(٢) ع، س: قررها.

(٣) التأييد: جعله.

(٤) ع، س: المتجازف.

(٥) ع: تشوُّش.

(٦) مطموسة في الأصل، والمُثبت من: ع، التأييد، ٦٧ .

(٧) التأييد: دفعناه.

(٨) س: مَن.

(٩) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(*–*١٠) ع، س: نيله لمقاصده.

(١١) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٧، ضمن نشرتنا لأعمال السيوطي في التصوّف الإسلامي ١، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، المجلّد ٤٧، ٢٠١١م.

أُذنِه عنه وَقْرًا، وفي قلبه لِما يُلقى إليه مِنَ العُرفِ نُكرًا، فهو في قومٍ ذَكَرَ اللهُ حالَهُم لقومٍ يعتبرون، ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: ١٤].

وبعدُ، فإنّ السابقَ لِلّاحِقِ قدوةٌ ورحمةٌ، والأكابرَ للأصاغرِ حُجّةٌ ونعمةٌ، والمشايخَ عنِ الخطإِ في السَّيْرِ للسالِك عِصْمةٌ، وقد نبّه اللهُ على سِرّ الِاقتداءِ إنْ(١) كان عقلُه بالغفلةِ عن قصدِ الصّوابِ | لم يستهدِه(٢). فقال تعالى: ٦و ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وإنّما أمرَ بالِاقتداءِ بهم، وإنْ علَتْ رُتبتُه على رُتبتِهم، إمّا لتقديمِ زمنِهم، أو لتعظيمِ قَدْرِهم، فإظهارُ شرفِهم وفخرِهم بالِاقتداءِ بهم يقعُ بالموافقةِ لهم في الصبرِ والِاحتمالِ، والمحافظةِ على صالحِ الأعمالِ (*بالِاقتداءِ والتبعيّةِ*٣) في التزامِ الأحكامِ، فإنّ ذلك غيرُ مُندرجٍ في هذا النظامِ، ويشهدُ لِما قلناه قولُه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فلمّا أمرَ اللهُ رسولَهُ بالِاقتفاءِ لأهلِ الِاصطفاءِ، والِاقتداءِ بذوي الِاهتداءِ، ورأيتُ ما ظهر في زماننا هذا(٤) باعتناءِ(٥) العَوَامِّ بأهلِ الِادّعاءِ، وابتلاءِ الخَوَاصِّ بأربابِ الِاعتداءِ، واجتراءِ الأنفُسِ بالتوثُّبِ على مَنازلِ الأولياءِ بالِابتداعِ، والِاتِّباعِ لِلأهواءِ؛ لِفَقْدِ نُورِ الفرقانِ المُميِّزِ بينَ مَراتبِ الأصفياءِ، بذلتُ ما في الوُسْعِ مِنَ النُّصحِ للجَاهلِ، وأقمتُ ما رسمتُ في هذا الموضوعِ

(١) س: مَن.

(٢) ع: يشتده، س: يُرشده.

(*-*٣) س: اقتداء التبعية.

(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٥) التأييد: من اعتناء.

(*مقامَ الحُكْمِ الفاصِلِ*[١])[٢]، واللهُ على ما في الضميرِ أمينُ القائلِ[٣]، وجَعَلْنَا[٤] اسمَه تفاؤلًا[٥] | للناقلِ كتاب: «اقتداءُ الغافلِ باهتداءِ العاقلِ»، نُوضِّح به ما ٦ظ الْتَبسَ من حالِ العالِمِ بالجاهلِ، (*والنّاقصِ بالفاضل، والحالي بالعاطل*[٦]) ونُفْصِحُ فيه[٧] عن بَيان الفَرقِ بين طريقِ الحقّ والباطلِ، في (*سيرةٍ مِنَ المُنْتَمِينَ*[٨]) لِلعلماءِ والفقهاءِ والصُّوفيّةِ والفقراءِ[٩] الأماثلِ، ممّن مَهرَ فدَرسَ، وأفتى وتولّى القضاءَ وتقدّمَ في صدور المَحافلِ، واتّخَذه الأنامُ قُدوةً في الفتاوى والأحكام، يَرجِعُونَ إليه في النوَازِل، وهو عنِ العملِ بمقتضى العِلمِ في الصُّدورِ والورودِ في[١٠] سَيْرِهِ مُتثاقِل، وعلى سِواه مِن ذوي الجهل بما مُنح مِنَ الفضلِ مُتطاوِلٌ، ينظُر بعينِ الاِزدِراءِ إلى مَن قَدْرُه في دُنياهُ نازِلٌ، ولعلّه وإنْ بَانَ نقصُه في عين رائيه، حظُّه مِنَ اللهِ كاملٌ، وممّن ظهرَ بزيِّ القومِ في الخدمةِ والصُّورةِ وهو عن المعنى المَعنيّ بالاِعتناء به بينهم زائلٌ، وعلى المُراعاةِ لرُعُوناتِ نفسِه عاكفٌ، وفي فسيحِ المجالِ مِن ضلالها جائلٌ، وعن تأدُّبها بالآدابِ المَرعيّة في طَرْقِ الأبوابِ المَرْضيّة

(*-*١) مطموسة في الأصل، والمثبت من: س، التأييد، ٦٧.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٧.

(٣) في الأصل: الفضائل، والمثبت من: ع، س.

(٤) ع، س: وجعلت.

(٥) مطموسة في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(*-*٦) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٧) س: به.

(*-*٨) س: سيرة من انتمى.

(٩) ليس المقصود بالفقراء هنا فقيري المال والحاجة، إنما هناك في «عوارف المعارف» و«اللمع» تفرقةٌ بين الفقير/الصوفي/الزاهد. وفي معنى هؤلاء الفقراء يقول سيدي أبو مدين الغوث (ت ٥٩٤هـ): [البسيط]

ما لَـذّةُ العيشِ إلّا صُحبةُ الفُقَرَا ... هُـم السلاطينُ والسـاداتُ والأُمَـرَا

وانظر: المقصد الأول من النوع الأول من الطرف الثاني فيما يلي، ص.

(١٠) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

حائلٌ، وفي إقامةِ عمود | الِاستقامةِ على نفسِه فِكرُه مائلٌ[١]، فما ظَفِرَ كلٌّ مِنَ الفريقينِ فيما حاول مِن حالِه في مُحالِه[٢] بطائلٍ، ولا نظَر لرقبته في فكاكٍ مِن يومٍ ليس لهولِه مُماثلٌ. ٧و

وقد دُفِعنا[٣] لوقتٍ ظهرَ فيه اللغطُ، (*وكَثُرَ الغلط*[٤]) واشْتُهِرَ في أفعالِ أهلِه الشَّطَطُ، ولا سيّما مَن أُجْرِي عليه مِنَ الصُّلَحاءِ رسْمُ التصوُّف واسمُ الفقراء؛ فإنّ هذا الِاسمَ من[٥] أعزِّ الأسماءِ، والمتّصفَ بصفةِ أهلِه عظيمٌ قَدْرُه في الدارَينِ عند ربِّ السماءِ[٦].

لكنّ تلك[٧] النُّعوتَ المعهودةَ تبدّلتْ بضِدّها، والأخلاقَ المحمودةَ منهم عادتْ ذميمةً عند عَدِّها. وجُلُّهم، بل أجلُّهم يدّعي سلوكَ الطريقِ وما مشَى على حَدِّها، ولا مصطلحَ القومِ يَعلمونَ، ولا بما مضَى مِن سِيرتِهم يعملونَ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[٨].

أشبَهُوهُم بالظاهرِ في الصُّورة، وبايَنُوهُم بالسِّيرةِ في المعاني المَستورة، فهُمْ كما قال الأوّلُ في المُتشبِّهِ بالصُّورةِ المشهورة:

[الكامل]

أمّـا الخيـامُ فإنّـها كخِيامِهم وأرَى نِساءَ الحَيِّ غيرَ نِسائها

(١) س: سائل.
(٢) س: مجاله.
(٣) التأييد: دفعناه.
(*-*٤) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٧.
(٧) في الأصل: «لتلك»، والمثبت من التأييد، ٦٨.
(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٨.

٧ظ ظنُّوا أنّ الفقرَ والتصوُّفَ أذكارٌ مشهورةٌ، (*ومناماتٌ | معبورَةٌ(١)، وخيالاتٌ مذكورةٌ*٢)، فتقيّدت بهم أذهانٌ محصورةٌ، وأفكارٌ مأسُورَةٌ، لم تصْحَبْ فُحولَ الرِّجالِ، ولم تشربْ مِن ماءِ المعارفِ الزُّلالِ، بل زلّت منها الأقدامُ، وتحكّمت فيها الأوهامُ، ودار في خَلَدِها للعقولِ الإيهامُ، وجعلوا التَّلبُّسَ بشعارِ الفقرِ مأكَلةً، والتقدُّسَ بذِكرِ الله بينهم مَشْغَلَةً، وللتآنُسِ(٣) بالمُعاشرةِ عن المبادرةِ للطاعةِ مَكْسَلةً(٤). وتلك حالةٌ لمن تأمّلَها مُشكِلةٌ، وفتنةٌ لِمَن جَهِلَها(٥) مُذهِلةٌ، ولكنْ طبعَ اللهُ على قلوبِهِم وكانوا مِنَ الغافلينَ، وختمَ على سَمعِهِم فلم يكونوا للنصيحةِ بالقائلينَ، ولا للعُدُولِ عنِ الضلالِ إلى الهُدى بالعائدينَ.

فقد سمعتُ – بمكّةَ المُشَرَّفةِ – والدِي أبا العبّاسِ أحمدَ بنَ عليٍّ القَسْطلانيّ يقول: سمعتُ الشيخَ أبا عبدِ الله القُرشيّ يقول: لو لَمْ أَلْقَ مِنَ المشايخ مَن رأيتُ(٦) لَتوهّمتُ أنّ الطريقَ ما عليهِ الناسُ اليومَ، وما عِند القوم(٧) مِنَ الطريقِ إلّا الاِسمُ، إلّا مَن سَلكَ منهم على التحقيقِ.

٨و | قلتُ: فإذا قال هذا في عصرِه، فما ظنُّكَ بهذا العصرِ الذي نحن فيه الآن؟!(٨). فاللهُ المستعانُ على قَطعِ دابرِ العُدوان، ونحن نُنْشِدُ في هذا الزمانِ ما قد قيل في تبدُّل الأوْطَان بالسُّكان:

---

(١) التأييد: مستورة.

(*–*٢) لا يوجد في: ع.

(٣) س: التأنُّس.

(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٨.

(٥) ع، س، التأييد: تعقّلها.

(٦) التأييد: لقيت.

(٧) التأييد: الناس.

(٨) انظر: تأييد الحقيقة ٦٨. وهذه العبارة بمثابة نعي مِنَ القسطلاني على بعضِ الصُّوفيّة في عصرِه، الذين لا حظّ لهم في التصوّف إلّا أنّهم أدْعِياء، ونقلها السُّيوطي تعبيرًا عن عصرِه الذي عاش فيه هو.

[الطويل]

فمَا الناسُ بالناسِ الذينَ عَهِدتَهم   ولا الدارُ بالدارِ التي كنتَ تَعرفُ[١]
ومَا كلُّ مَن تهوَى يُحبُّك قَلْبُه   ولا كُلُّ مَن صاحَبْتَه لكَ مُنصِفُ

ولمّا رأيتُ الأمرَ في ذلك تفاقَمَ، والوصفَ تجاوزَ الحَدَّ وتعَاظَمَ، أملتُ للغافل عِند الاِقتداءِ بما نحَوْنَاهُ له تحصيلَ النجاةِ، والعاقلِ في الاِهتداء بما رسمناهُ له واتِّباعَ سبيلِ الهُداةِ لنجاةِ القوم الغُواة، وما لم تُحصَرِ المقاصدُ بالترتيبِ، تبدَّدَ النظامُ ولم يندرج في سِلْكِ التهذيبِ، وها نحنُ نحصُر ذلكَ في مقدّمةٍ وطَرَفَيْنِ وتَتِمّةٍ:

أمّا المقدّمةُ، ففي فضيحةٍ[٢] كاشفةٍ عن أحوالِ المُغترّينَ مِنَ المُتوجّهينَ، واصفةٍ لِمَا تحيّلتْ به الأنفسُ مِنَ الطُّرُقِ لكي تُعَدَّ بين الناسِ مِنَ المُتصوِّفينَ[٣] | المُتزهِّدِينَ. ٨ظ

وأمّا الطرفان، فأحدُهما: في بيانِ شرفِ العِلمِ وأنواعِه وآدابِه، (*وما يتميّزُ به مِنَ الشرفِ*[٤]) مَن جَدَّ في طلَبِه.

وثانيهما: فيما يلزمُ مَن عانَى طريقَ السلوكِ إلى اللهِ مِنَ الوظائفِ، وفي[٥] بيانِ ذِكر المقاماتِ والأحوالِ التي يأتي[٦] بها أهلُ السلوكِ جملة الطَّوائفِ، حتّى يتميّزَ بعِلمِها مَن تَسْمُو هِمّتُه إلى طلبِ المَعارفِ.

---

(١) س: أعرف

(٢) ع، س: نصيحة.

(٣) ع، س: المتعبدين.

(*-*٤) لا يوجد في: س.

(٥) س: في.

(٦) باين.

وأمّا التتمّةُ، ففي الرياضةِ والخَلْوة التي هي مِن نِعَمِ اللهِ أتمّ العوارفِ. ولمّا تمّ ما رُمْنَاهُ ممّا قد حصرنَاه، وعُلِم ما به قد وَسَمْنَاهُ، انتهى بنا الكلامُ فيما قصَدناهُ، فلنَشْرَعْ فيما ذكَرْناه، واللهُ أعلمُ. ٣

القولُ في المُقدِّمة

اِعلَمُوا أنّ اللهَ أقامَ هذا الدينَ، وأيّدَ هذه الشريعةَ المُطهَّرةَ بطائفتَين: (*عُلماءِ
الظاهرِ، وعلماءِ الباطنِ*[١])، فإنّ الدين إنما استقامَ نظامُه، واستدامَ مرامُه بحالتَين:
بِسنانٍ، وبيانٍ. أمّا السنانُ فلِلمُعتدِينَ، وأمّا البيانُ فلِلمُهتدِينَ.
ولمّا شاهَدْنا ما انتَشَرَ في الفريقَينِ المذكُورَيْن | مِنَ الخَلَلِ في عصرِنا، واشْتُهِرَ ٩و
منهم[٢] مِنَ الزَّلَلِ بين أبناءِ دهرنا، حَدَانا[٣] ذلك على النُّصحِ والشَّفَقةِ[٤] لمن
يرغبُ في الِاهتداءِ مِنَ النوعينِ، ويَرْهَبُ مِنَ الِاعتداءِ في الجِهَتينِ، ببيانِ رُتبَةِ
الداعينَ، وما يقصِدُه مَن يُعَدُّ لجنابِ اللهِ من جُملةِ الساعِينَ[٥].
أمّا رُتبةُ الداعي، فإنّها مِن أعلى الرُّتَب وأعْرَفِها وأمْكَنِها في زيادةِ السعادةِ
وأشرفِها. وهي رُتبةُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والحُكماءِ كما أمرَ اللهُ به رسولَه في
قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:
١٢٥] فسَمَتْ هِمّةُ طائفةٍ إلى الدعاءِ (*إلى اللهِ*[٦])، ورأتْ أنّ ذلك مِن بابِ تكثير
الخيرِ في الوجودِ، وتقليلِ الشرِّ، وذلك أمرٌ مطلوبٌ[٧].
وتوقّفت طائفةٌ عن ذلك؛ لِاشتغالِها في حقِّ نفسِها بما هو الأَوْلَى مِنَ التوجُّه
لها، والأَوْلى أنْ يُقالَ: إنْ كانتِ الهِمّةُ قدِ اشتغلتْ باللهِ حتّى أقيمت داعيةً له
بغيرِ مُعاناةِ أسبابٍ مِن خارجٍ، فإنّه يتعَيّن الإجابة، وإنْ كانتِ الهمّةُ على الدعاءِ
عاملةً، فإنّها محجوبةٌ جاهلةٌ، ولِحُظوظِها مِن طلبِ | الظهور واصلةٌ، وقد ٩ظ

(*–*١) س: علماء الظاهر والباطن.
(٢) ع، س: بينهم.
(٣) التأييد: هدانا.
(٤) التأييد: التفقه.
(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٨.
(*–*٦) لا يوجد في: س.
(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.

حصلَ الجهلُ في زمانِنا هذا برتبةِ الداعي والمَدعُوّ، والغفلةُ عنِ الفَهمِ بحالِ[١] الراجي للنجاةِ والمَرجُوّ، والنظرُ في ذلك مِنَ الأمرِ المُهمّ في الدِّينِ، لِكَيْلَا يَلْتَبِسَ طريقُ المُحِقّينَ بطريقِ المُبطِلِينَ.

فإذًا: التمييزُ بين الدعاةِ قاعدةٌ عظيمةٌ في هذا الشأنِ[٢]، وإنّما يتطلّعُ[٣] إليها مَن رُزِق باطنُه شيئًا مِنَ التَّوَقَانِ[٤]، وكان أمينًا في إشرافِه على نفسِه بنورِ قُدسِه وسلامةِ حِسِّه، وتِلْكَ ضالّةٌ لا تُوجدُ، وفي حالةِ توقُّعِها مِن لُطْفِ الله يُقصد.

فالدعاةُ أربعةٌ: داعٍ بالله إلى الله، وداعٍ بالله إلى سُنّةِ اللهِ على أَلْسِنةِ رُسُلِه، وداعٍ باللهِ إلى حكمةِ الله، وداعٍ إلى حُظوظِ نفسِه بطريقِ اللهِ[٥].

الأوّل[٦]: الداعي إلى الله: (*ذلك هو المُقرَّبُ*٧) الملحوظُ، المُفارِقُ لِلحُظوظِ، المُرافقُ للأُنسِ، المُوافِقُ للقُدْسِ، الذي نُصِبَتْ له أعلامُ الإعلامِ، وضُربتْ على رأسِه طُبولُ الأفهامِ للإفهامِ، يدعو إلى الصدقِ في العملِ والإخلاصِ، ويَهدي مَن ضَلّ إلى طريقِ المعرفةِ | باللهِ والاختصاصِ[٨]. ١٠و

قال اللهُ تعالى في حقِّ رسُولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

---

(١) س: لحال.
(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.
(٣) س: يطلع.
(٤) س: الفرقان.
(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.
(٦) لا توجد في: س.
(*-*٧) س: ذلك المقرب، التأييد: هو أقرب.
(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.

الثاني[١]**:** الداعي إلى سُنّة الله: وهي العِلْمُ بالأحكامِ مِنَ الحلالِ والحرامِ، مُبَصِّرٌ للسالكينَ بطريقِ المُهتدينَ السابقينَ[٢]، قال ﷺ: «مَن دعا إلى هُدًى كان له كأجرِ مَن عمِلَ به، لا ينقُصُ ذلك مِن أجرِهِ شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وِزْرُ مَن عمِل بها لا ينقُص ذلك مِن وِزرِه شيئًا»[٣].

الثالث[٤]**:** الداعي إلى حكمة الله: وهو الداعي إلى العِلم بأحكامِ الظاهرِ والباطنِ مِن عِلم الشريعةِ والحقيقة: بيانُ عِلْم الخَواطرِ وعِلَلِها، وصفاتِ النفوس وآفاتِها، وطُرق البحث عن دسائسِها[٥]. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والداعي لا يخلُو مِن مُستجيبٍ، كثرةً أو قِلّةً، على قَدْرِ ما سبق مِن ذلك في الأزلِ، كما أخبر النبيُّ ﷺ في قوله: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأنبياءُ، فرأيتُ النبيَّ ومعَهُ الاثنانِ والثلاثةُ | والواحدُ، والنبيَّ ولا تابعَ معه»[٦]. فبيّن بذلك ١٠ظ
حُكمَ التبعيّةِ، والدّاعون بالحقِّ: هُم وَرَثَةُ الأنبياء، وبالباطلِ: هُم وَرَثَةُ الشياطين. فالداعي إلى اللهِ أقلُّهم تابعًا؛ لِمشقّةِ ما دعا إليه، والداعي إلى سُنّة الله تابِعُه كثيرٌ؛ لِمازجةِ النفسِ فيما (*أتى به*٧) مِنَ الأفعالِ. فطلب[٨] الأعواض على الأعمالِ.

---

(١) لا توجد في: س.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.

(٣) انظر: سنن أبي داود، ٤٦١١؛ وسنن الترمذي، ٢٦٧٤؛ وسنن ابن ماجه، ٢٠٦؛ وصحيح ابن حبّان، ١١٢.

(٤) لا توجد في: س.

(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.

(٦) انظر: المعجم الكبير، ٩٧٦٥؛ ومسند أحمد، ٣٨٠٦؛ ومصنّف عبد الرزّاق، ١٩٥١٩؛ وصحيح ابن حبّان، ٦٤٣١.

(*-*٧) س: تأتي.

(٨) ع، س، التأييد: وطلب.

والداعي إلى حكمةِ اللهِ أقلُّ تابعًا منه؛ لِعزّةِ الوصولِ إلى ما يدعُو إليه مِن طهارةِ النفسِ وتزكيتِها.

الرابع[١]**:** الداعي لِحَظِّه مِن ربّه: بتوهُّم النفسِ منه القربة[٢]، (*ولمن خَلاصُه مِن عتبه*[٣])، فهو يَظهَر للخَلْق بصُورِ الطاعاتِ ومُعاناةِ الخُشوع في الحَرَكاتِ والسَّكَناتِ، ومُلازمةِ الأذكار والخَلَوات. فباطنُه مَعلولٌ[٤] بالآفات، وسِرُّه مشحونٌ بالجهالاتِ، وما وُفِّقَ حتّى يُرزقَ لفهم ما هو عليه دلالات، فهذا الداعي هو أكثرُ الدُّعاة تَبَعًا، وأرفعُهم في صُدور العامّةِ مكانةً ومَوضِعًا، وأجلُّهم ١١و في ظاهرِ الحالِ مَوقِعًا؛ لِما بينَه وبين تابِعِه مِنَ | المُناسَبةِ في المُجانَبَةِ للخلاصِ مِن رقّ النَّفْسِ، والمُقارَبةِ لِدَنَسِها، والمُصاحَبةِ لِهَوَسِها، والمشاركةِ لها في مَقصِدِها، وقد ثَبَتَ في الحديث أنّ «الأرواحَ جُنودٌ مُجنَّدةٌ» في الإئتلاف والاختلاف، والإنكار للتعارفِ والاعتراف، قَدْ عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُم، وفَهِمَ كلُّ فريقٍ مطلبَهم[٥]، فهُم على ما قام بهم مِنَ الوهم يُدانُون[٦]، وفيما دام عليهم مِنَ البُعدِ عن القُربِ يَرغبُون.

ثمّ الدعاة تختلف على وجوه: أحدُها: داعٍ إلى الغِنى[٧] بالله، مِن حيثُ اعتناؤُه بالإيجادِ له ابتداءً. قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩].

وثانيها: داعٍ بالفقرِ إلى الله، فإنّ ذلك وظيفةُ العُبوديّة.

وثالثُها: داعٍ بالأخلاق الرحمانيّة الرحِيميّة، وهي إقامةُ اللُّطْفِ والعُنفِ في البشريّة.

---

(١) لا توجد في: س.

(٢) س: لقربه.

(*-*٣) س: وظن خلاصه من عتَبِه.

(٤) س: مغلول.

(٥) مطموسة في الأصل، والمثبت من ٧٣و. وفي ع، س: مشربهم.

(٦) ع: يدأبون.

(٧) الغناء.

ورابعُها: الأخلاقُ الإلهيّة. فهذه هي[١] أجلُّ الدعواتِ المَرعيّة، فقد ورد في الحديثِ: «تَخَلَّقُوا بأخلاقِ اللهِ»[٢]، أيِ اتّصِفُوا بصفاتِه.

وبه تمّ الكلامُ في رُتبة الداعين.

وإنما[٣] ينبغي أنْ يعتمدَه الدّاعي المتوجِّهُ إلى الله في سيره وما | يجتنبه مِنَ الفعلِ ١١ظ
المُقرِّب له مِن شرّه، المُباعِد له عن خيره، وما يتخلّق به مِنَ الأخلاقِ الحميدةِ، وما يتحقّق فيه مِنَ الأفكارِ السديدة. فإنّا نقول: يُقال: لكلِّ مقامٍ مقالٌ، ولكلِّ عملٍ رجالٌ.

وإنّ طريقَ القومِ لمّا انْدَرس رَسْمُه، وبقي اسمُه، وانطمس منه الأثرُ، واقْتُبِسَ عنه الخبرُ، وذهبت تلك العصابةُ، انقرضت به الصَّبابة، واعترضت منه الصُّبابة، وصارُوا آحادًا في البلادِ، وأفرادًا في الجِدِّ والِاجتهادِ، فهُم خاصّةُ اللهِ مِن خَلقِه، وخُلاصتُه المُجتازون في أرضِه لإقامة حقِّه، تجلّى على أسرارهم فطهّرها، وتولّى حِراستَهم في أفكارِهم فنوَّرَها، فهُمُ الداعُونَ إلى بابِه، المُعترِفون[٤] بعُلى جنابِه، الموقوفون على ما أُشْكِلَ مِن عِلْم الطريق على أربابِهِ، المُبصِّرونَ مَن غشيَ بصرُه عن إدراكِ الأنوارِ، المُذكِّرونَ لِمَن عَظَّم نفسَه بالِاستكثارِ[٥]، ونظَر إلى غيرِه بعينِ الِازدراء والاحتقار، فتعاطى مِنَ المراتبِ أعلاها | ومِنَ المذاهبِ ١٢و
أغلاها، ومِنَ المناصبِ أولاها، تردّى برِداء الكِبْرِ في النَّفْسِ، وتعدّى على الكُبراء بما عاناه مِنَ اللَّبْسِ، فهو أَصمُّ عنِ استدلالِ[٦] الهُدى، أَعْمَى عنِ النظرِ في حال أهلِ التُّقى، لا يُجيبُ داعِيَ اللهِ إذا ناداهُ، ولا يُصيبُ مِنَ[٧] الصواب فيما له مِنَ الحُكمِ على نفسِه عاناه، قدِ استولى على عقلِه حبُّ الرِّياسة، فأَمَالَه عن سواء

(١) ع، س: وهذه.
(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٦٩.
(٣) س: وأما ما.
(٤) س: المعرفون.
(٥) ع، س: بالاستكثار.
(٦) ع، س: استماع مقال.
(٧) لا توجد في: ع، س.

السبيل، واستعلى إلى حالةٍ يتّقيها العالِمُ، ويترامى لها الجاهلُ بالدليلِ، فتراه لا يَرْعوي مِن تِيهِهِ لعَذْلِ عاذلٍ، ولا ينتهي عن غيّه[١] لِنُصح فاضِلٍ، لَبَّى[٢] نفسَه مُراداتِها[٣] فقَذَفتْ به في المَهاوي، وما صَحِبَ مَن يُبصِّرُه بعُيوبها وما قدِ انطوتْ عليه من المَساوئ، وتوَهّم أنّ الطريق إلمامٌ بخدمةٍ، أو إطعامٌ لِلُقمةٍ، ولقد وَهِمَ فيما عَلِمَ، وندِمَ على ما عليه قَدْ قدم.

وقد حرسَ اللهُ هذه[٤] الطائفةَ عنِ امتدادِ[٥] يدِ التلاعُبِ[٦] بما أقام لها مِنَ
١٢ظ الرُّؤساء[٧] العالِمين بها، في الآتي مِنَ الزمنِ والذاهبِ، يَذُبُّونَ[٨] | عنهم طَعْنَ الطاعنِ، وجَهْلَ الجاهلِ، ويُميّزون بين المُنقطِعِ عنِ اللهِ والواصِلِ، ويُعرّفون سُلوكَ الطريقِ لطالبِه[٩]، (*فهم يُوقِفُونَ*[١٠]) على الصواب مَن لم يَهتدِ إلى مَذاهبِه[١١]، لا يُبالون عنِ[١٢] اعتراض جاهلٍ أو عالمٍ، ولا يأخذُهم[١٣] في الله لومةُ لائمٍ[١٤].

وعلومُ هذه الطائفةِ تُشارِكُ باقيَ[١٥] العلوم في العقلِ والنقلِ المفهومِ، وتتميّز عنها بالذوقِ والمُنازَلةِ، والوجدِ في المُعاملةِ[١٦]، قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْربَهُم فهُم

(١) س: عينه.
(٢) س: ربّى.
(٣) س: بمراداتها.
(٤) مطموسة في الأصل، والمثبت من: س، التأييد، ٧٠.
(٥) التأييد: ابتداد.
(٦) التأييد: المتلاعب.
(٧) مطموسة في الأصل، والمثبت من ع، س، التأييد، ٧٠.
(٨) نفسه.
(٩) نفسه.
(*-*١٠) س: ويوقفون.
(١١) التأييد: مذهبه.
(١٢) التأييد: من.
(١٣) س: تأخذه.
(١٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٠.
(١٥) مطموسة في الأصل، والمثبت من: ع، س، التأييد، ٧٠.
(١٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٠.

فيه يكرَعُون، وفَهِمَ كلُّ فريقٍ مَطلبَهُم فهم إليه يُسرعُون، فأينَ (*المُعترف بما فيه*١) نجاتُه ونجاةُ تابِعِيه، (*المتوقِّفُ عمّا فيه هلاكُه وهلاكُ طائِعِيه؟!*٢)، هلَكَ مَن تعيّن مِن التابع والمتبوع، وسلَك كلٌّ منهم غيرَ الأمرِ المشروع، وحكَمتِ الأنفسُ عليهم وفيهم، فمَا (*عرجُوا بعد الموعظةِ عنِ النزوعِ، وتحكّمتْ فيهِمُ الغفلةُ، فما*٣) استيقظوا للإقلاع عنها والرجوع، اشتغلوا بعمارةِ ظواهرِهم عن بواطنِهم، وبإصلاحِ | مَعاشِهم عنِ النظرِ في مَعادِهم، جعَلوا الفقرَ حِرفةً بها ١٣و يَكتسبون(٤)، ودَكاكِينَ لها يَعمُرونَ، ومَقاصدَ فيها يَدأبون، وتوهّموا أنّهم مع ذلك إلى اللهِ واصلونَ، كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لَمَحْجُوبون، فهُمْ فيما هُم عليه مِنَ الحُظوظِ يعملون، وله مِن طلبِ رئاسةِ الأنفسِ يميلون ويَقصِدُون، ولكثرةِ الأتباع وجَمْعِ المَتَاعِ يرغبون وفيه يجتهدون، جَلَبُوا العَوَامَّ بلِينٍ في الكلامِ (*وبَذلِ الطعام*٥) وناموسٍ فيما رامُوه من إقامةِ النظامِ، وأوهمُوهم أنهم بذلك داعُون لهم إلى القُربِ مِنَ المَلكِ العَلّام، وأنّى لواقِفٍ مع عَوائد الحظوظِ إلى شمّ رائحةٍ مِن هذا المقامِ؟!، فكيف بأن يبقى قدوة للأنامِ؟!، وظنُّوا بأنّ الطريقَ خِرقةٌ تُلقى على الجسدِ أو الراس، وما هو ذاك(٦)، بل هو(٧) حُرقةٌ تبقى على مَمَرِّ الأنفاس، أو ذِكْرٌ بالعَشِيّ والإبكار، يَجتمع عليه قومٌ مِنَ الأخيار أو الأشرار، وما هو بذاك، بل ذِكْرٌ في القلبِ مستورٌ عنِ الأغيارِ، أو ذِكْرُ (*عظمة الله*٨) | الأمر ١٣ظ والنهي وهو أعظمُ الأذكارِ، أو سُفرةٌ تُمدُّ لمن ورَد مِنَ الزُّوار، وما هو بذاك، بل مَددٌ مِن سَفَرِ الفِكر في بَيْداءِ الاِفتقار، أو رقصٌ وسماعٌ وانخلاعٌ وانطباعٌ بين

(*-*١) في الأصل: المستغرق. والمثبت من: ع، س.

(*-*٢) لا يوجد في: ع.

(*-*٣) لا يوجد في: ع. [انتقال نظر].

(٤) س: يكسبون.

(*-*٥) س: وبذلٍ في الطعام.

(٦) ع، س: بذاك.

(٧) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(*-*٨) س: وتظافر بها.

شبابٍ ونِسوان، ومآكِلُ متنوّعةٌ من أعداد ألوان، أو رَبْطُ جَمْعٍ مِن[١] ضعفاءِ الأذهان على منامات مبنيّة على خيالاتٍ واهيةِ الأركان، ارتبط عليها مَن كان في ذِهنه قليل المحصول، فاغتبط[٢] بها مَن ظَلّ في غايةٍ مِنَ الذُّهولِ عن عِلْمٍ مِنَ المنقول والمعقول.

فهذا القَدْرُ لا دلالةَ فيه على ولايةٍ ولا صلاحٍ، ولا عِبْرةَ به عند مَن هو مجتهدٌ في طلبِ فلاحٍ، فإنّ النصرانيَّ قد شارَكَ المسلِمَ في هذه الفضيلة، ونسب أهل الطريق مَن وقفَ معها إلى غاية الرذيلة، والعلّةُ في المشاركة بين المسلم والكافر في هذا الأمر الظاهر أنّ الأنفُسَ لها تطلُّعٌ إلى إدراك ما في عالَم الغيب، وتشوُّفٌ[٣] إليه، فإنّها عالَمُ لطافةٍ، وإنّما جاوزتِ الكثيفَ، واقتبست[٤] منه بعضَ | الكثافة، ١٤و فهي مأسورةٌ محصورةٌ، عن مُراداتِهَا مقصورة. فإذا ضُربتْ بِسَوْطِ الرياضةِ، مِن قلّة الأكلِ والشُّربِ والنوم، ترقّتْ إلى الفَهم والإدراك، وتَعلّتْ إلى مَركزها العادل بها عن الوقوع مِنَ المَهاوي والأدراك، وأخبرت عن الوقائع لِما[٥] حصل لها مِنَ الإشراق[٦] ووصل لها مِن مَعدِن الألطافِ، ومهما غلب على النفس مِنَ الفِكَرِ ظهر لها في عالَم الصُّوَر[٧]، وهذا ليس مِنَ الطريق لا في وِردٍ ولا صَدر، بل هو حِجابٌ يَعُدُّه العارفون بالله أتمَّ خطرٍ وأعظمَ ضررٍ، فلا تلتبسِ المَسالكُ على السالكِ، فإنّه لن يَهلِكَ على الله إلّا هالِكٌ، وكذلك مَن تَظاهر بالبَلَه والوَلَه، (*وتظاهرَ بما*٨) بِيدَيْهِ على لسانِه من السّفه، وإنّه يفعل ذلك تخريبًا على العَوَامّ، وتنفيرًا لمن يتعلّق بمحبّة أُولي الأفهام، وهذا مِنَ الإيهامِ في الأوهامِ، والإقدامِ على

(١) س: بين.
(٢) س: واغتبط.
(٣) س: وتشوق.
(٤) س: فاقتبست.
(٥) س: بما.
(٦) س: الاشراف.
(٧) س: الصبور.
(*-*٨) س: وتظافر بها.

الآثامِ، وما ظَنَّ أنّه به لِلخَلْق عنه يُنَفِّرُ، فإنّه يجمع (*به عليه*١) منهم مَنْ هو في خطره مُقصّرٌ، فقد وقع (*فيما منه فرّ من الضرر*٢) | واكتسبَ وِزرًا ظاهرًا آيلًا ١٤ظ به إلى الخطرِ، ولئنِ استغفرَ في سِرّه ممّا منه ظهَرَ من سُخْفِه وهَجره؛ فلقد صدَقَ القائل عند أُولي التَّبصِرة: «تَرْكُ الذَّنْبِ ولا طلبُ المغفرةِ».

وهذا عُدُولٌ عنِ اتّباعِ طريق السلَفِ الصالح، وحصولٌ على تعجيلِ المَلامِ باجتنابِ الطريقِ الواضح، وتلبيسٌ مِنَ النفسِ بالمَلابسةِ للمأثم الفاضِح، ونقصٌ عند التأمُّلِ والِاعتبارِ، فإنّه اشتغالٌ عنِ اللهِ بالأغيارِ، وعمارةُ الأسرارِ بالأفكارِ.

وكذلك مَن عانى أكْلَ الحيّاتِ ودُخولَ النّار، إيهامًا لضعفاءِ العقولِ أنّ ذلك مِن أحوالٍ تُوجَدُ، وإنما هو عن حركاتٍ وحِيَلٍ في المَكْرِ تَرقَى وتصعَدُ، وقوّةٍ في النفسِ تبقى وتتمهّد.

وقد تَلِفَ بذلك منهم طوائفُ، ومع ذلك فإنّ أنفُسَهم على تلك الجَهالةِ عواكفُ. فلا يظُنَّ بنا ظانٌّ أنّنا نُنكِرُ كراماتِ الرجال عند غَلَباتِ الأحوالِ، وإنما نُنكِرُ على مَن يتعاطى ما ليس له ضروبٌ مِنَ الِاحتيال؛ ليستميلَ به العقولَ الوالجة في ظُلمةِ الِاختيال | والاختبال، ويتظاهر بحالةٍ إخفاؤها هو مِنَ المطلوب ١٥و مِنَ العُمّال في جملة الأعمال.

كما رُوِي عن الفُضَيْل بن عِياضٍ أنّه كان على جبلٍ من جبالِ مِنَى، فقال: لو أنّ وَلِيًّا مِن أولياءِ الله أمرَ هذا الجبلَ أنْ يَمِيدَ لَمَادَ. قال: فتحرّك الجبلُ. فقال له[٣]: «أُسكُنْ لم أُرِدْك بهذا» فسكَنَ الجبلُ[٤].

فالكراماتُ حقٌّ عند أكثرِ العلماء الأعلام، وأكمَلُها إبدالُ النقصِ بالتمام، كما قال سهلُ بنُ عبدِ الله: «أكبرُ الكراماتِ أنْ تُبدِّلَ خُلُقًا مذمومًا مِن أخلاقِكَ»[٥].

(*–*١) مطموس في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(*–*٢) س: وتظافر بها.

(٣) لا توجد في: ع، س.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٧٨؛ وتاريخ دمشق، ٤٨: ٣٩٩.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٧٩.

وفي معنى ما ذكرناه طوائفُ تتصدّى لخدمةِ الأمراءِ والكبراءِ بالتردُّد إلى أبوابِهم لِلالتحافِ مِن جاهِهم بفضلِ أثوابِهم، واعتذارُهم بأنّ ذلك ليس لِحظٍّ[١] أنفُسِهم، وإنما هو لأجْلِ غيرهم من تفريج كُربةٍ عن مُضْطَهَدٍ[٢]، أو إيصالِ حقٍّ لمن يستحقُّه، أو أنهم داعُونَ لهم إلى جَنابِ اللهِ وتعظيمِه ومُحبِّبُونَ لهم إلى هذه الطائفة، ومُمَكِّنُونَ لتعظيمِها في صُدورِهم.

وهذه كلُّها أعذارٌ | يُسامِحُ فيها مَن ليس له بعُيوبِ النفسِ[٣] استبصارٌ، ١٥ظ
أمّا مَن هو مُشترِفٌ[٤] على عُيوبها، مُطّلِعٌ على دسائِسِها، فإنّه يَنبِذُ هذه المقالةَ، وينقُضُ هذه الدَّلالةَ، ويقول: لا[٥] عُدُولَ عن مذهبِ السلامةِ، ودخول في متعبِ[٦] الملامةِ، إذِ المتوجِّهُ مشغولٌ عنِ الاتّساعِ لهذه الأوضاع، فإنّ النفوسَ لِلمفاسدِ بالمصالحِ مُزيِّنةٌ، وهي لكلّ أحدٍ فيما تُدخِلُه فيه أبدًا مُحسِّنةٌ، وإنّما يعمل على التمييزِ بين مقاصدها مَن له نظرٌ سَديدٌ في مَصادرها ومَواردها، فمَن لم يَزْجُرْ[٧] نفسَه عن مَطالبِها، ولم يَنفِرْ بعزمِه عن تكالُبِها؛ أَلْقَتْهُ في أوديةِ الهلاكِ، وأوقعَتْه فيما نَصَبتْ له مِنَ الأشراكِ، واختَطَفَتْه كاختطافِ الشِّبَاكِ للأسماكِ.

ويلتحقُ مِنَ الطوائف بهؤلاءِ مَن يتصدّى[٨] لذِكْرِ مناماتٍ في أوقاتٍ[٩] حالاتٍ، وإيهاماتٍ في أوقاتٍ بمصادفاتٍ لإصاباتٍ، ومصادماتٍ في إخباراتٍ، وبناء أمكنةٍ لاجتماعاتٍ على صورِ طاعاتٍ وإقامةِ دعاةٍ | إليه بأنّه الشيخُ المُكاشَفُ ١٦و

(١) س: بحظ.
(٢) س: مضطر.
(٣) ع، س: الأنفس.
(٤) ع، س: مشرفٌ.
(٥) ع، س: هذا.
(٦) س: معتب.
(٧) س: يرجأ.
(٨) س: يتعدى.
(٩) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: س.

المُعوَّلُ عليه، وأنّ المشايخَ يَقصِدُون زيارتَه والمُثولَ بين يديه، فيَلينُ[١] إليه بذلك قلبُ السامعِ، ويَلينُ[٢] ما قسا مِن قلبِه بما أوْدَعَه الداعي في المَسامعِ، وهذه طُرقٌ كلُّها للأغراضِ مُحصِّلةٌ، وإلى ما ينبيءُ[٣] عنه العقلاءُ مِنَ الأمراضِ مُوصِّلةٌ، وهذا عُدولٌ عنِ الطريقِ الواضحةِ، ووصولٌ إلى الرذائلِ الفاضحةِ.

واعْلَمْ أنّ طائفةَ المُتوجّهينَ امتُحِنُوا بثلاثةِ أصنافٍ، يصدُّون عن سبيلِ اللهِ ويبغونها عِوَجًا: بمُنْكِرٍ لطريقِهم وأحوالِهم، وبمُعترِفٍ بها عالمٍ ذَلقِ اللسانِ، طَلْقِ البيانِ، أدخَل فيها ما ليس منها، وأوهم أنّ ذلك العِلْمَ هو عينُ التحقيقِ المتعيّن عنها، وبمُعترِفٍ بها، جاهلٍ بآدابِها وشُروطِها، اتَّخَذ له أتباعًا، وقرّر لهم أوضاعًا[٤].

الصنف الأوّل: المُنكِرُ لعلومِ هذه الطائفةِ، الواقفُ مع غُرورِ نفسِه، العاكفُ على ظلامِ حِسِّه، فهذا عدوٌّ ظاهرٌ، واجتنابُه سهلٌ، والحذرُ منه ممكنٌ، فلا حاجةَ إلى الاشتغالِ بما هو عليه | مِنَ الاختلالِ[٥]. ١٦ظ

الصنف الثاني: العالِمُ المُعترِفُ ظاهرًا بالطريقِ، المُغترِفُ – بزعمِه – مِن بحرِ التحقيقِ، الذي اشتغل بعلوم الأوائل، وأوهم أنّها داخلةٌ في عُلوم القوم، راجحةٌ – في مُعتقَدِه – على علوم الشريعة، أُعْطِيَ لسانًا مُعبِّرًا عن مقاصدِه، مُترجِمًا عمّا في ضميرِه، واصطلح مع نفسِه وأتباعِه بمُصطلحٍ مُوهِمٍ في أوضاعه، وقرّر في آذانِهم[٦] أنّه المُشارُ إليه في عصرِه، وأنّ المدارَ عليه في طَيِّه للعلومِ ونشرِه[٧]،

---

(١) س: فيميل.
(٢) س: وبين.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٠.
(٥) نفسه.
(٦) س، التأييد: أذهانهم.
(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٠.

وأنّ الخلائقَ كُلَّهم يَغترفونَ العلومَ مِن بحرِه، وهم جماعةٌ زعموا أنّهم جاسُوا خلالَ دِيارِ المَعارفِ، فأفسَدُوا بذلك عقائدَ مَن سارَ[١] صَحْبَهُم مِنَ الطوائفِ، واعتقدوا قِدَمَ الأرواحِ والأشباحِ، وامتزاجَ الموجوداتِ المتماثلةِ والمتضادّةِ أزلًا وأبدًا[٢]، وأنّ كلَّ شيءٍ مُتَشَكِّل[٣] في الصُّورة هو عينُ المتشكّل الآخرِ، كالفِيلِ مع البقّةِ، إلى هَذَيانٍ لا يقولُه مُحصِّلٌ، ولا يَعتمدُ عليه مَن هو لِلفَرقِ بين الحقّ والباطلِ مُتأمّلٌ، وأوهموا أنّ ذلك هو الوحدةُ، | وأنّه عينُ التحقيقِ المُشار إليه، ١٧و وهو عِلْمُ الإحاطة الذي مَن لم يَعتقدْ صِحّتَه قَصُرَ فَهْمُه، وكثُر وَهْمُه، وكان محجوبًا عنِ العلومِ الإلهيّة، والمكاشفات الغيبيّة[٤].

وهذا القولُ منهم دعوَى لا بُرهانَ يَعْضُدُها، ولا إيمانَ يسندُها، اغْترّ بها مَن استمعَ ما ألقَوه إليه، ونَبَا عنها فَهْمُ مَنِ استقرَّ[٥] الحقُّ لديه. وهؤلاء هم مُبايِنُونَ لعلوم[٦] التحقيق، مُحافِظُون على المُباعدةِ لدقيقِ التوفيقِ، تَخطَّوا بزُخْرُفِ المقال رِقابَ أربابِ المقاماتِ والأحوالِ، واعتقدوا فيهم أنهم مِنَ الجُهّال الضُّلّال. فكانوا نقمةً على المستمعين، وفتنةً على المتوجّهين[٧].

الصنف الثالث: الجاهلُ بعلومِ هذه العِصابة الذين هُم أهلُ الخَشيةِ والإنابةِ، الذي جَعَلَ التلبُّسَ[٨] بشِعارِهم وسيلةً إلى صَدِّه عن العِلم وإعراضِه[٩]، والدخولَ

---

(١) لا توجد في: ع، س.
(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٠.
(٣) التأييد: مُشكلٌ.
(٤) في الأصل: العينية، والمثبت من: ع، س، التأييد.
(٥) التأييد: استفزّ.
(٦) التأييد: لعلم.
(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.
(٨) في الأصل: المتلبس، والمثبت من: ع، س، التأييد.
(٩) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.

في غمارِهم حِيلةً في (*نَيْلِ مقاصدِه*[١]) وأغراضِه، وإطعامَ الطعامِ وسيلةً[٢] إلى بلوغِ المرامِ، والاجتماعَ على[٣] الأذكارِ سُلَّمًا إلى بُلوغِ الأوطارِ، ولُبْسَ | اللِّيْفِ ١٧ظ والشَّعْرِ جلبًا لمعتقدِ البشرِ، وتَرْكَ الخبزِ والماءِ ربطًا لعقولِ الأغبياءِ مِنَ الضُّعفاءِ، والارتقاءَ للوعظِ على المنابرِ صَرْفًا لوجوهِ العَوامِّ إليه في المَحافلِ والمَحاضرِ، والسعيَ في قضاءِ حوائجِ الناسِ شرَكًا له يمتنُّ به على خائفٍ مِنَ البأسِ، والتردُّدَ إلى أبوابِ السلاطينِ والوزراءِ والأمراءِ والقضاةِ والوُلاةِ حُجّةً في التوصُّلِ إلى الإحسانِ للفقراءِ، ودفعِ المَظالمِ عنِ المُضطَهَدينَ مِنَ الأغنياءِ الكُبراء. ولو أخَذْنا في تَعْدادِ[٤] أنواعِ مَقاصدِ النفوسِ الجاهلةِ لَأطَلْنا.

وقد صنّف الناسُ قَبْلَنا[٥] في أنواعِ الغُرورِ ومَسالكِه، ومَن أراد ذلك أخَذَه مِن مَظَانِّه، (*وعثرَ على مداركِه*[٦])، لكن هذا تنبيهٌ لمن له فِطنةٌ حاصلةٌ، وفطرةٌ قابلةٌ على التمييزِ بين المقاصدِ، والتعريفِ بالفَرْقِ بين (*الصحّةِ والفسادِ*[٧]).

فمَن لم يَشتغِلْ بعلومِ النفوسِ وآفاتِها ومَصادرِها ومَوارِدِها في صفاتِها، ويَعمل على تزكيةِ نفسِه وطهارتِها، وسعيِه لها في وجودِ نجاتِها، فإنّه يُعَدّ بمعرفةِ | عِلْمِ السلوك مِنَ الجاهلينَ، ولا يكون لهذهِ الطريقةِ مِن جملةِ الوارثِين[٨]. ١٨و

فهؤلاءِ الأصنافُ المذكورونَ هُم فِتْنةٌ على العَوامِّ والخَواصّ، ومِحنةٌ يَبْعُد منها – ولا سِيّما في هذا الوقتِ – الخلاصُ[٩]، فإذا تبيّن وصفُ هؤلاءِ للعاقلِ،

(*–*١) ع، س: نيله لمقاصده.

(٢) س: وصلة.

(٣) س: إلى.

(٤) س: تعديد.

(٥) لا توجد في: س.

(*–*٦) ع: عثر عليه من أدركه.

(*–*٧) ع، س: الصحيح منها والفاسد.

(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.

(٩) التأييد: الخاص.

تعيّن عليه أنْ يعلمَ وصفَ حالِ[١] الرجُلِ الكاملِ، وهو الشخصُ الذي فُوتِحَ قَلْبُه بإقبالِ الإنابةِ، فدخل مِن بابِ التوبة إلى الإجابةِ، ثمّ جاهدَ نفسَه في خَلْوتِه وعُزلَتِه بالانفرادِ عنِ الصحابةِ، ثمّ صاحَبَ التقوى والورعَ والزُّهدَ في سيره[٢]، فكان مِن أهلِ النجاةِ[٣]، ثمّ ترقّى إلى المقاماتِ والأحوالِ، التي مَن تَخلّقَ بها عُدَّ ممّن آراؤُه صادَفتِ الإصابةَ، ثمّ ترقّى[٤] إلى مقامِ المعرفةِ الذي مَن أقام به رحَلَ[٥] عن نفسِه ساكنُ الكآبةِ[٦]، ثمّ عَمِلَ على تركِ مُراداتِه، واجتنابِ الملاحظةِ لحظوظٍ[٧]، فصار عبدًا حقًّا، آثَرَ اللهَ على ما سِواه في سِرّه ونجواه، ولم يعتمد في أمرِه شيئًا مِن هواه، لحظٍّ عنِ العوائدِ بالنُّزوعِ، وحفظِ الفوائدِ عنِ الرُّجوعِ[٨].

١٨ظ وهذا الصنفُ هو الذي دخل في الطريق بالأدبِ، فأمِنَ | في الفريقِ مِنَ العَطَبِ، ولم يتوثّب[٩] على طلبِ الرُّتَبِ[١٠]، (*ولم تتغلّب نفسُه عليه، فتُوقِعُه في الرّيب*[١١]).

قال شيخُ مشايخِنا الشيخُ أبو عبدِ الله القُرشيّ رضي الله عنه: مَن لم يدخُل في الأمورِ بالأدبِ لم يُدرِكْ مطلوبَه منها[١٢].

(١) لا توجد في الأصل، س، والمثبت من: ع.
(٢) التأييد: مسيره.
(٣) ع: النجابة.
(٤) لا توجد في الأصل، س.
(٥) س: رجل.
(٦) س: الكتابة.
(٧) س: لحظوظه.
(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.
(٩) التأييد: يتثوب.
(١٠) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.
(*-*١١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(١٢) انظر: نفح الطيب، ٢: ٥٤.

قلتُ: فالأدبُ مصباحُ السعادة للزيادة، ومفتاحُ[١] الإفادةِ للإرادةِ، فمَن لم يَصْحَبْ مَن يُهذّبُه ويُرتّبُه ويُؤدّبُه لم يَصلُح الِاقتداءُ به في هذا الطريق، ولم يُفسح له في بسطِ كفّه لقبضِ الرفيق، فإنّ هذه الطائفةَ لم تأخُذ في هذا المنهج عن جهالةٍ، بل عن علمٍ ودلالةٍ، وكشفٍ وجلالةٍ. وقد تقدّم لها مشايخُ فُحولٌ وأئمّةٌ جَمَعُوا بين عِلْمَي الظاهرِ والباطنِ مِنَ الفروعِ والأصولِ، وميّزوا بين المُتردِّدِ مِنَ القولِ بين الفصولِ والفضولِ[٢].

قال شيخُنا، شيخُ شيوخِ الإسلامِ، شهابُ الدينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ في وصِيّةٍ كتبَها لبعضِ أصحابِه: وليس أمرُ الدينِ أقلَّ مِن صَنعةٍ مِنَ الصنائع التي لا يمكن تحصيلُها ومعرفتُها | ١٩و إلّا بصانعٍ مُرشِدٍ، فقد ورد: الشيخُ في قومِه كالنبيِّ في أمّتِه[٣].

قلتُ: فمَن (*نَحَا مَنْحاهم*٤) ودَرَج على سبيلِهم، ونهجَ في دليلِهم، وشهدت له القواعدُ بصحّةِ سلوكِه في إقامتِه ورحيلِه، وربّاه مَن هو مشهورٌ بين أهلِ هذه الصنعة بصُحبةِ مَن اتّبع مَن كان قبلَه في سبيلِه، اتّصلت نِسبتُه، واستُمِعَتْ كلمتُه، وارتفعت جِهتُه، ودخَلَ في دائرتِهم، ووصل إلى منزلتِهم، ومَن جَمَحتْ نفسُه للإباءِ عن الِانقيادِ، وطغتْ[٥] على مَن سلك سبيلَ الرشادِ، وادّعت أنها مُكالَمةٌ[٦] مُخاطَبَةٌ بالظَّفَرِ بالمرادِ، فإنّها محجوبةٌ بظلمةِ الهوى عن نورِ الهدى والوِداد، فسُحْقًا لها، قد طُرِدَتْ مِنَ البابِ، وأُحرِقتْ بنارِ البِعادِ[٧].

---

(١) س: ومصباح.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.

(٣) انظر: آداب المُريدين، ١٢٤.

(*-*٤) س: نجا منجاهم.

(٥) س: وطعنت.

(٦) س: كاملة.

(٧) ع: العناد.

وكم مِن شخصٍ تحلّى بحِلْيتِهِم، وتشبّه بزيِّهم، وأَوْهَم – ظاهرًا – أنّه منهم، يُعبِّر بلسانِه عنهم، فإذا كَشفْتَ عنه عند البحثِ والتجربة علمتَ أنّه في الباطنِ عنهم خارجٌ، وأنّه على سُننِ هَواهُ دارجٌ، فالظاهرُ عنوانُ الباطنِ، والباطنُ ١٩ظ | ميزانُ الظاهرِ، فلَم يُصدِّقْ ظاهرُه باطنَه، عُلِم دعواه فيما أتاهُ، ولمّا كان الباطنُ لا سبيلَ لأحدٍ عنِ* الاطّلاع عليه، أحال الشارعُ الأحكامَ على الظاهرِ، ولِأَجْلِ هذا قال ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أحكُمَ بالظاهرِ، واللهُ يتولّى السرائرَ»[١].

فهذه الطائفةُ لها آدابٌ في الظاهرِ، وآدابٌ في الباطنِ، فمَنْ لم يُحْكِم أسبابَ الآدابِ لم يُعظِّم احترامَ الجَنابِ، وحُرِم[٢] فَتْحَ البابِ، وأتمُّ الأحوال المُفَادة: لِينُ المَقَادةِ، وتركُ الإرادةِ، ومخالفةُ العادةِ[٣]، فمَن وقفَ في نفسِه مع عادتِها، واتّبَعَها في إرادتِها، حَجَبَه ذلك عن طلبِ سعادتِها، ولم يَظْفَرْ بما يُريدُه المتوجّهُ مِن زيادتِها، وقد قيل في ذلك لبعضِ المتأخّرين:

[الطويل]

إذا المـرءُ ربّـى نفسَـهُ بمُـرادِه … فَقَـدْ شَـادَ بُنيانًا على غير أُسِّـه
وإنْ شابَه مِن بعد هـذا رئاسة … فقد سَكنَ الداءُ العُضَال برأسِه
٢٠و | فكُن قاطعًا أنْ ليس يُفْلِحُ دهرَه … إذا كـان ممّن ذاق طعمًا لنفسِه
ومَن لا تُربِّه الرجالُ وتَسْقِه … لبَانًا لهم قد دَرّ من ثدي قُدسِه
فـذاك لَقِيطٌ مَا له نِسبَةٌ تُرى … ولا يتعدّى المرءُ أبناءَ جنسِه

ونحنُ نعتقدُ أنّ مواهبَ اللهِ وعطاياهُ ومِنَحَه وهداياهُ متعدّدةٌ في قضاياه، لا تأتي عن كسبٍ يُوجبُها، ولا عن أدبٍ (*في الظاهر*[٤]) يُكسِبُها، غير أنّه على كلٍّ

(١) انظر: مسند الشافعي، ٨.
(٢) س: ويحرم.
(٣) لا توجد في: س.
(*–*٤) لا يوجد في: س.

منها شاهدٌ، والمُعانِدُ عنِ الصواب حائدٌ، ولِلحقّ جاحدٌ، وعلى الباطلِ جامدٌ، على أنّ القيامَ بالتزامِ الأدبِ أَدْعَى في تعظيمِ الرُّبوبيّةِ إلى منالِ[1] الأرَبِ، وأحقُّ في تعظيمِ الاِتّباعِ المُنجِي مِنَ العَطَبِ.

رَوَيْنا عن بعضِهم أنّه قال: لَأنْ أُنْقلَ مِن سَجّادتي إلى النار أحبُّ إليّ مِن أنْ أُنْقلَ مِنَ الحانِ إلى الجِنَانِ.

قلت[2]: هذه مقالةٌ جرت مِن لسانِ مَن كانتِ الخشيةُ – له مِن ربّه – في قلبِه قائمةً، والمعرفةُ – به له – في ذهنِه ثابتةً لازمةً؛ لأنّ اشتقاقَ العبوديّة مِنَ التعبُّدِ، وهو التذلُّلُ، وذلك يقع بالِامتثالِ لنوعَي الأمرِ والنهي | ، كما قال الله تعالى: ٢٠ظ
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر: ٩].

فالعبوديّةُ حالةٌ مطلوبةٌ مِن واجبِ الرُّبوبيّة، والناسُ فيها يتفاوتون، وهُم بها مُطالَبونَ، وهي منزلةٌ متوسطّةٌ بين العبادةِ والعبوديّةِ[3]، والعبادةُ[4] خدمةُ الظواهرِ مع طهارةِ السرائرِ، والعبوديّةُ رؤيةُ تصرُّفِ المالكِ في أعمالِ السالكِ، فهو له مُلاحِظٌ، وعلى امتثالِ أمرِهِ مُحافِظٌ.

والعبوديّةُ: هي القيامُ على قَدمِ الِاسترسالِ مع اللهِ في جميعِ الأحوالِ، ودوامُ الارتحالِ في منازلِ الإعظامِ والإجلالِ. وهي المراتبُ الثلاثُ المذكورة في حديثِ جبريلَ عليه السلام: «الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ». (*وهي الأنفسُ*٥) الثلاثةُ: الأمّارةُ، واللوّامةُ، والمطمئنّةُ.

والإحسانُ له مراتبُ: مَبادٍ وغاياتٌ. فَذَكَرَ النبيُّ ﷺ المبادئ محصور[6]. وأمّا الغاياتُ فلا نهايةَ لها.

---

(١) ع: منازل.
(٢) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(٣) س: والعبودة.
(٤) س: فالعبادة.
(*–*٥) س: المعبر بأنفس.
(٦) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س، كذا.

فالواقفُ على بساطِ العبوديّة قلبُه باللهِ معمورٌ، (*وهو مِنَ الِاعتناءِ باللهِ واعتناءِ
٢١و اللهِ به | من نعمتِه عليه مخمورٌ*١)، لا تعلُّقَ له بحاضرٍ أو غائبٍ، ولا مُؤثِّرَ(٢) عنده لمادحٍ أو عائبٍ، قد جَعلَ الهمَّ همًّا واحدًا، وكان لذوق التعرُّف له مِن مولاه واجدًا، ومِنَحُ اللهِ ومِننُه لا تنحصرُ بالعَدِّ، (*ولا ينكشفُ البرهانُ بالحَدِّ*٣)، وإنما يتنزّل مِنحةً مِنَ الغيبِ، (*لا حالة ما تعيّن من العيب*٤) وأزله ما تمكّن مِنَ الريبِ.

وحاصلُ هذه الطريقِ يرجعُ إلى فَقْدٍ ووَجْدٍ: وَجْدٍ باللهِ، وفَقْدٍ لِما سِواه(٥). وهو ينقسمُ إلى عِلْمٍ ظاهرٍ وباطنٍ، كما سيأتي بيانُه إنْ شاء اللهُ(٦).

تقويمٌ فيه تتميمٌ

إنِ اعترضَ جاهلٌ بمصالحِ الديانةِ، جائلٌ في فضائحِ المهانةِ، بأنْ قال: الِاشتغالُ بتهذيبِ نَفْسِ الإنسانِ وإصلاحِها أَوْلى مِن بيانِ أَحوال أنفُس الناس وذِكْر عَوارِها، وإظهار ما خَفِيَ مِن مقاصدِها، واتّضح مِن كثرة عثارِها، فقد ورد: «طُوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ الناسِ»(٧)، وأنت فقد ذكرتَ كثيرًا مِنَ المَعايبِ، ونشرتَ مَطويًّا من المثالبِ، ومثلُ ذلك (*لا يعتمده*٨) المُرشِدُ إلى
٢١ظ الطريق، ولا | يعتقده مَن هو مُستمسكٌ بالعهدِ الوثيقِ!.

قلتُ: هذه مقالةٌ عنِ الصوابِ عادلةٌ، وإلى الخطايا واصلةٌ، وعنِ العِلْم حائلةٌ، وفي الجهلِ جائلةٌ، خالفتِ الكتابَ والسُّنّة، وحالفتِ البِدعةَ المُبعِدةَ عن المِنّة.

(*–*١) لا يوجد في: س. [انتقال نظر].
(٢) ع، س: تأثّر.
(*–*٣) ع، س: ولا تنكشف بالبرهان والجد.
(*–*٤) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١
(٦) انظر فيما سيأتي ٨٨.
(٧) انظر: شعب الإيمان، ١٠٥٦٣؛ وكشف الخفاء، ١٦٧٣.
(*–*٨) ع، س: لا ينبغي أن يعتمده.

أمّا الكتابُ فإنّ الله تعالى قد قصّ علينا نبأ المُخالِفين، ليقعَ الِاعتبارُ للسّامعين، ويتمكّنَ السُّلُوُّ في قلوبِ الداعينَ بالكتابِ الكريمِ، إنّما جاء مؤدِّبًا للعبادِ، مُعرِّفًا لهم (*بطُرقِ وجهِ*١) الصلاحِ والفسادِ، ليترتّبَ على ذلك الِاجتنابُ لها وتركُ العِناد، كما قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وكان ﷺ إذا بَلَغَهُ عن أحدٍ ما يَكرَهُ، يقول بين جُلسائِه: «ما بالُ أقوامٍ (*أو رجال*٢) يقولون كذا وكذا»؟؛ يُعَرِّضُ بذِكْرِهم ويُصرّحُ بما فعلوه، تأديبًا لهم وتهذيبًا لأخلاقِهم، وتعريفًا للسّامعين بقُبح مثلِ | ذلك الفعل[٣]، حتى يقعَ ٢٢و منهمُ الكفُّ عنه في المستقبلِ، ومِن حيثُ المعنى أنّ السامع إذا وقفَ على تقريعِ أصحابِ تلكَ الخصالِ المذمومةِ، وتعنيفِ مَن أرخى الرسنَ في المراداتِ المعلومةِ، اجتهد - إنْ طلَب السعادةَ لنفسِه - في تركها إنْ كان قد لابَسها، أو في اجتنابها قبل أنْ يقع فيها، فإنّ النفسَ مُلْبِسةٌ على كثيرٍ مِنَ الخَواصِّ، فما ظنُّكَ بالعَوامِّ المُبتدئينَ؟!. ولا يَظُنَّ ظانٌّ أنّ ذلك من الغِيبة، فإنّ شرطَ الغيبةِ تعيينُ الشخصِ المذكور بما يَكْرَهُ، وهذا ليس من ذلك الباب.

وقد تكلّم أهلُ الطريق في الفَرق بين محمودِ الأفعال ومذمومِها، وصنّفوا في ذلك كُتبًا كثيرة.

والعَجبُ ممّن هو جاهلٌ، ربّى نفسَه، وصحِب مَن هو مِثلُه، ولم يتأدّبْ بأدبِ الظاهر الذي هو الشرعُ، ولا بأدبِ الباطنِ الذي هو مُراقبةُ الخواطِر، كيف يتخيّلُ في ذهنه أنْ يكون داعيًا إلى الله، مؤدِّبًا لعبادِ الله! هذا لا يُقْدم

(*-*١) س: بطريق وجوه.
(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

عليه إلّا من (*يكون غافلًا*[١]) في جهلِه عن يَقظةٍ تُبَصِّرُه، أو جاهلٌ (*بعلمِ أهلِ*[٢])

٢٢ظ | الحياء مِنَ الله ومن خَلقِه[٣].

وقد تقدّم قَبْلَنا مشايخُ الطريق في الكلام على مَن تعاطى في سَيْرِه (*غيرَ سيرهِم*[٤])، وتقاضَى بأفعالِه ما يُعَدُّ به خارجًا عن طريقهم[٥]،[٦].

قال أبو بكرٍ محمدُ بنُ عبدِ العزيز المَروزيّ: سمعتُ الواسطيَّ – هو أبو بكر محمّد بن موسى – يقول: جَعلُوا سُوءَ أدبِهم إخلاصًا، وشَرَهَ نُفوسِهِمُ انبساطًا، ودناءةَ الهِمَمِ جلادةً، فعَمُوا عنِ الطريق، وسَلكوا فيه المضيق[٧]، فلا حياةَ تَنْمُو في شواهدِهم، ولا عبادةَ تَزْكُو في محاضرتِهم، إنْ نَطَقُوا فبِالغضبِ، وإنْ خاطَبُوا[٨] فبالكِبْرِ، توثُّبُ أنفُسِهم يُنبئ عن [خُبْثِ][٩] ضمائرِهم، وشَرَهُهم في المأكول يُظهِرُ ما في سُويداء[١٠] أسرارِهم، قاتَلَهُم اللهُ أنّى يُؤفَكُون.

وقال أبو بكر الطُّمستانيّ: الطريقُ واضحٌ، والكتابُ والسُّنّة بين أظهُرنا، وفضلُ الصحابة معلومٌ بسَبْقِهم إلى الهجرة وبصُحبتِهم، فمَن صَحِبَ منّا الكتابَ والسُنّة، وتغرّبَ عن نفسِه والخَلْقِ، وهاجرَ بقلبِه إلى الله، فهو الصادقُ

٢٣و | المصيبُ[١١].

(*–*١) ع، س: هو غافل.

(*–*٢) س: المعبر بأنفس.

(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.

(*–*٤) س: عن سيرتهم.

(٥) س: طريقتهم.

(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧١.

(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٢.

(٨) في الأصل، س: خوطبوا، والمثبت من الرسالة.

(٩) زيادة من الرسالة.

(١٠) س: سويد.

(١١) انظر: مدارج السالكين، ٢: ٤٦٧؛ وتأييد الحقيقة، ٧٢.

وقال أبو العباس الدِّينوريّ: نقضُوا أركانَ التصوُّف، وهَدَمُوا سُبُلَها، وغيّروا مَعانِيَها بأسماءٍ[١] أحدثُوها: (*سمَّوا الطَّمَعَ «زيادةً»، وسُوءَ الأدبِ «إخلاصًا»*٢)، والخروجَ عن الحقّ «شَطْحًا»، (*والتلذُّذَ بالمذمومِ «طِيبةً»، واتّباعَ الهوى «ابتلاءً»، والرجوعَ إلى الدنيا «وُصولًا»، وسُوءَ الخُلقِ «صَولةً»*٣)، والبُخلَ «جلادةً»، والسُّؤالَ «عملًا»، وبَذاءةَ اللسانِ «ملامةً»، وما كان هذا طريقَ القوم. ولو تَتبَّعْنا أقوالَ المشايخِ في ذلك أَطَلْنا[٤].

---

(١) الرسالة: أسامي.

(*–*٢) التأييد: سمّوا الطمع إخلاصًا.

(*–*٣) التأييد: والتلذّذ بالمذموم صولة.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ١٧٨؛ وتأييد الحقيقة، ٧٢.

خاتمة لتتميم التقويم
حاكمة بالفصل بين المُعْوَجّ من القصد والمستقيم

إنّ الله – سبحانه وتعالى – نَزَّهَ العُقولَ الفاضلةَ عن إهمالِ مَقاصدِها، وصرَفَها عن إهمالِ فِكرتِها في مفاسدِها، وَوَصَل هِمَمَ المُنقطِعينَ عنه بمن وصلهم ببابِه، وأفاضَ مِن خِلَعِ أنوارِه عليهم ما شَهِدَهُ فيهم مَن عَدَلَ عن الخطأ منه[١] إلى صوابِه.

وإنّ الله لمّا وفّقَنا لِما نظمناه مِن هذا الاِهتداءِ | ٢٣ظ في الاِقتداءِ على سِلْكِ التقريبِ لمن قصدَ إلى مسلكِ التهذيبِ اقتداءً بمَن سلَفَ مِنَ العِصابةِ الباعثةِ على طلبِ التأديبِ، الباحثةِ (*عن علماءِ النفوس وقمعًا لها بالتأنيبِ*[٢])، والمصاحبة للترقّي عن عالمِ الشهادةِ إلى عالمِ الغيبِ على التدريجِ والترتيبِ – وهم الصفوةُ مِن أهلِ الاِصطفاءِ والصفاءِ، المُطلَقُ اسمُ الصُّوفيّة عليهم علَمًا مانعًا مِنَ الاِشتراكِ في الأسماءِ – آثرتُ مِنَ الصدق في محبّتِهم أنْ أُكَثِّرَ بالتصنيفِ سَوَادَ زُمْرَتِهم، وأنْ أُظهِرَ ما خَفِيَ عن[٣] الناظرِ مِن مكنونِ حِكْمتِهم، وجملةُ ما أودعناه فيه مِنَ الأحاديثِ والحكاياتِ، فإنّه متصلٌ لنا بالروايات، متحصّلٌ عندنا بالأسانيدِ لأربابِ المقالات، وإنما قصَدْنا بحذفِها الاِختصارَ، مخافةَ الإضجارِ بالإكثار، فالمشتغلُ[٤] بالتوجُّه لا قَصْدَ له[٥] إلّا في العملِ بما عَلِمَ، ولا حاجةَ له في عِلْمِ الإسنادِ، فإنّ ما أدّى إليه من المعنى عنده قد فُهِم منه المرادُ | ٢٤و وإنما يَقصِدُ[٦] الإسنادَ مَن يَقصِدُ الإعرابَ، ويُوردُ على الأنفُسِ الإتعابَ، ويعملُ على المُباهاةِ والمُضاهاةِ.

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(*–*٢) س: علم آفات النفوس وقمعًا لها بالتأديب.

(٣) ع، س: على.

(٤) ع، س: فإنّ المشتغل.

(٥) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٦) س: يطلب.

فإنْ قلتَ: قد سبقَ أئمةٌ مِنَ الأئمّةِ[1] المُصنِّفينَ مِن هذهِ الطائفةِ إلى ذِكْرِ الأسانيدِ في كُتبِهم، كأبي نصرٍ عبدِ الله بنِ محمّد[2] السرّاج في كتاب: «اللُّمع»، وأبي عبد الرحمن محمّد بن الحسين السُّلمي في كتابِ: «مقامات الأولياءِ»، وأبي القاسم عبد الكريم بن هَوازِن القشيري في كتاب: «الرسالة»، وأبي بكر محمّد بن علي الغازي المُطّوعيّ في كتاب: «المقالات في المقاماتِ»، وغيرهم[3]، فهلّا سلكتَ سبيلَهم وحَدوْتَ منهجَهم؟.

قلتُ: الجوابُ عنه مِن وجهَينِ:

الأوّل: أنّه قد أغنى إسنادُهم عن ذِكْرِ إسنادِنا، وإنما قَصَدْنا بتركِ الإسنادِ التخفيفَ على الناظرِ في كتابِنا مِن بَعدِنا.

والوجه الثاني: أنهم إنما ذَكَرُوا الأسانيدَ إرغامًا لأنفِ مُنكِرٍ تعاطى ردَّ مقالِهم، | ونقضًا على مُدّعٍ أنّ هذا العِلْمَ لم تَرِدْ به السُّنّةُ، فقصدوا التعريفَ ٢٤ظ بأنّ السُّنّة قد وردت به[4]، وأنهم قدِ اشتغلوا بما اشتغلَ به أهلُ الظاهرِ من عِلْم الإسنادِ[5]، وأنهم فاقُوهم بما لم يتّصل إليه فَهمُهم مِن عِلْم أهل القُربِ والوِداد[6].

وأمّا مَن جاء بَعدهم فقد كُفِيَ مِن هذا النَّصَبِ، وشُفِيَ مِن هذا المَرَضِ والوَصَبِ، ولاحتْ له أعلامُ الهُدى، فرَهِبَ واهتدى، ورغِب فيما اقتدى[7]، وأشرقتْ فيه شموسُ الهداية في نهارِ العنايةِ، فراضتْ منه شموسُ خيلِ العَمايةِ

(١) ع: المشايخ.
(٢) التأييد، ع، س: علي.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٢.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٥) لا توجد في: س.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.
(٧) في الأصل، ع، س: اعتدى.

في ميادين فضلِ الرعايةِ، فاسْتَنْقَذَ[1] نور (*التوحيد و*[2]) التوفيقِ في أفُقِ التّحقيقِ، وبهرَ ضوء شُعاعِه الأنيق، فمحا ظُلْمةَ التعويق عنِ التصديقِ، فهنالك تَثبُتُ[3] أقدامُ النهايةِ، وتنتشرُ أعلامُ الولايةِ، (*وتنكسرُ أقلامُ الدِّرايةِ*[4])، فينقطعُ ما ٣
تَسلْسلَ مِنَ الروايةِ، ويتّصلُ ما انفصلَ مِنَ الهدايةِ. وبه تمّتِ الخاتمةُ، وقد تمّ بهذا
٢٥و ما أرَدْنا | مِنَ المقدّمةِ، فَلْنَشْرَعْ في الطرَفَينِ:

---

(١) ع، س: فاستقر.

(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) في الأصل: ثبتت.

(*-*٤) لا يوجد في: ع.

الطرف الأول
في العِلم وبيانِ شرفِه لصاحبه، ونوعِه وأدبه لطالبِه

دلّ النقلُ والعقلُ على فضيلةِ العِلْمِ ورِفْعتِه وتعظيمِ قَدْرِ مَن عاناهُ، واعتلى درجتَه. أمّا النقلُ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ورَوَيْنا مِن حديثِ أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن يُردِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين». ورواه معاويةُ أيضًا. صحيح، ورواه مسلم وغيرُه[١].

ورَوَيْنا مِن حديث سهلِ بن سعدٍ[٢] عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليِّ بن أبي طالبٍ – كرّم اللهُ وجهه –: «واللهِ لَأَنْ يَهدِيَ اللهُ | بكَ رجُلًا واحدًا (*أحبُّ إليكَ*[٣]) ٢٥ظ
مِن أنْ يكُونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ». صحيح، أخرجاه، واللفظُ لمسلمٍ[٤].

ورَوَيْنا مِن حديث ابن عبّاسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ». أخرجه التِّرمذي وابنُ ماجه[٥].

ورَوَيْنا مِن حديثِ أبي أُمامةَ الباهليّ – واسمُه صُدَيُّ بنُ عَجْلانَ – قال: قال رسولُ الله ﷺ: «العالِمُ والمتعلّمُ شريكانِ في الأجرِ، ولا خيرَ في سائرِ الناس بعدُ»[٦].

---

(١) انظر: صحيح مسلم، ١٠٣٧؛ وصحيح البخاري، ٧١؛ وسنن الترمذي، ٢٦٤٥.

(٢) في الأصل: سعيد.

(*-*٣) ع، س: خيرٌ لك.

(٤) انظر: صحيح مسلم، ٢٤٠٤؛ وصحيح البخاري، ٢٧٨٣.

(٥) انظر: سنن الترمذي، ٢٦٨١؛ وسنن ابن ماجه، ٢٢٢.

(٦) انظر: سنن ابن ماجه، ٢٨٨؛ والمعجم الكبير، ٧٨٧٥.

ورَوَيْنا عن عبدِ الله بنِ عُمرَ أنّ رسولَ الله ﷺ مرّ بمجلِسَين في مسجدٍ[١]، فقال: «كِلاهُما على خيرٍ، وأحدُهما أفضلُ مِن صاحبِه؛ أمّا هؤلاءِ فيَدْعُون اللهَ ويَرْغبُون إليه، فإنْ شاءَ أعْطاهم، وإنْ شاءَ مَنَعَهُم، وهؤلاء[٢] يُعلِّمونَ[٣] الفِقهَ أو العِلْمَ، ويُعَلِّمونَ الجاهلَ فهو أفضلُ، وإنما بُعثتُ مُعلِّمًا»[٤]، قال: ثمّ جلس فيهم.

ورَوَيْنا عن عبدِ الله | بنِ مسعودٍ أنّه قال: «أُغْدُ عالِمًا أو متعلّمًا أو مُسْتَمِعًا، ولا تكُنِ الرابعَ فتَهْلِك»[٥]، وعنه أنه[٦] قال: «كُونُوا ينابيعَ العِلمِ مصابيحَ الهُدى، أحْلاسَ البيوتِ، سُرُجَ الليلِ، جُدُدَ القلوبِ، خُلْقانَ الثيابِ[٧]، تُعْرَفُونَ في أهلِ السماءِ، وتَخْفَونَ على أهلِ الأرض»[٨]. ٢٦و

ورَوَيْنا عنِ الحسنِ أنّه قال: «العِلمُ عِلمانِ: فعِلمٌ في القلبِ فذلك العلمُ النّافعُ، وعلمٌ على اللسانِ فذلكَ حُجّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ»[٩]، وقد رُوِيَ هذا[١٠] اللفظُ عن أنسٍ عنِ النبيّ ﷺ مُسنَدًا[١١].

وأمّا العقلُ فإنّ الله سبحانه ميّز الإنسانَ وشرّفه على غيرِه مِنَ الحيواناتِ بما حصلَ فيه مِن قُوّةِ الإدراكِ والتصوُّر، وأمَدّهُ به[١٢] مِنَ القوّةِ المُفكِّرةِ والمُدبِّرةِ والقَابلةِ لِما يُلْقَى إليه، حتّى تمكّنَ[١٣] مِن سياسةِ نفسِه وإيصالها إلى صلاحِها في

---

(١) س: مسجده.

(٢) ع، س: وأما هؤلاء.

(٣) ع، س: فيتعلمون.

(٤) انظر: سنن الدارمي، ٣٤٩؛ وسنن ابن ماجه، ٢٢٩؛ ومسند الطيالسي، ٢٢٥١.

(٥) انظر: سنن الدارمي، ٢٤٨.

(٦) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٧) في الأصل: الشباب.

(٨) انظر: سنن الدارمي، ٢٦٢؛ والعزلة والانفراد، ١: ١٢٩.

(٩) انظر: سنن الدارمي، ٣٦٤؛ ومسند الربيع، ٩٤٧؛ ومسند ابن أبي شيبة، ٣٤٣٦١.

(١٠) س: بهذا.

(١١) انظر: تأييد الحقيقة، ٤٠.

(١٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(١٣) في الأصل: تكن، والمثبت من: س.

معاشِها ومعادِها، وسياسةِ غيره مِنَ الحيواناتِ حتّى قهَرَها وذَلّلها وصَرَّفها في مقاصدِه، واستخرجَ أنواعًا مِنَ الصّنائع، وامتنّ اللهُ عليه أنْ خَلَقَ له الموجوداتِ في العالَمِ السُّفليِّ، كما | ٢٦ظ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فلمّا كان مِنَ الشرَفِ بهذه المكانةِ تَعيّنَ أنْ يَصرفَ أشْرَفَ ما فيه وهو القلبُ، إلى أشرفِ شيءٍ وهو العِلْمُ، إذْ بهِ له تحصُل السيادةُ العاجلةُ، والسعادةُ الآجِلةُ، والمجانَبةُ لِما يُفسدُه، وهو الهوى المُلقِي به في بحرِ الغوى، فحينئذٍ ينتفعُ بالعلمِ ويرتفعُ، ويندفعُ عنه الغرورُ بالجهلِ وينقطعُ.

وقد أجمعَ العقلاءُ واتّفقتِ المِللُ والنِّحَلُ على شَرفِه جُملةً، وإنِ اختلفوا في تفاصيلِ العلومِ المطلوبةِ، وها نحنُ نوضحُ شرفَ الإنسانِ، ونُفصِحُ عنه بالبرهانِ، فنقول: إنّ الله سبحانه خَلَقَ الآدمِيَّ وركّبَ فيه مِنَ القُوى المُدرِكةِ المميِّزة بينَ الحقائقِ والأخلاقِ المتضّادَةِ مَا دلّ به العقولَ على غايةِ اعْتنائه بشأنِه واقتنائه له في خزائنِ غيبِه ذخائرَ عِرفانِه، فشرّفهُ وعَرَّفه، وبَصَّره وصَرّفه، وكرّمه وعلّمه، (*وقَوَّمَهُ وألْهَمَه*١)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، إلى قوله: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، كما قال | ٢٧و تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، واختصّه بعد أنْ أبدعه بما فيه مِنَ العقلِ أودَعه، حتى يتمكّنَ مِنَ التمييزِ بين حقائق الأشياءِ، والتنزيلِ لها في مَراتبِها، والفرقِ بينَ مَضارِّها ومنافعِها، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه منها، وكما تخصّص كلُّ آدميٍّ ببنيةٍ هي لِغَيرِه مُباينةٌ، فكذلك يتخصّص في الأفكارِ والمقاصدِ، فتباينتْ منهمُ المَعاني كتبايُنِ الصُّورِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، فقام بكلّ صورةٍ نوعٌ مِنَ المعاني، تميلُ إليه فتعملُ عليه.

ثمّ القوى المرتسمةُ في الأذهانِ، والفِكَرُ القائمة بالإنسانِ: إمّا معانٍ قائمةٌ بالجَنَانِ يُعبَّرُ عنها باللسانِ، وإمّا صورٌ متشكِّلةٌ في عالَمِ الخيالِ يظهرها إلى عالَم

(*-*١) لا يوجد في: ع.

الحِسّ مِنَ القوّة المفكِّرة إلى القوّة المصوِّرة، وليس يشاركُ الإنسانَ في هذا شيءٌ مِنَ الحيوانِ، فلمّا اختُصّ العقلُ المتصرِّف في هذه الآلات[١]، كان أشرفَ الموجودات الداخلة في دائرة المصنوعات، | وأَولاها بالكمالِ، وأعلاها في الجمالِ، ٢٧ظ
وأخصَّها بالتقرُّبِ[٢] مِنَ القَريبِ الرقيبِ، فتعيّن عليه أنْ يسعى في حالِ حياتِه لطلبِ نجاتِه، وأنْ يعتنيَ بتحصيلِ ما فيه سلامتُه في عافيتِه[٣]، وسعادتُه في آخرتِه، ولا ذلك إلّا بالعِلمِ الباطنِ والعملِ الظاهرِ، فبِهما تكمُلُ السعادةُ وتحصُلُ الزيادة.

فقد رَوَيْنا مِن حديثِ أَنَسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اُطْلُبُوا العِلمَ ولو بالصينِ»[٤]، فإنّ طلبَ العلمِ فريضةٌ على كلّ مسلمٍ[٥]، فقد فُرِض طلبُ العلمِ واختُلفَ في المفروضِ طلبُه منه، فقيلَ: عِلْمُ الإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ ومفسداتِ الأعمالِ. وقيل: عِلْمُ الوقتِ. وقيلَ: عِلْمُ الحالِ فيما بينَ العبدِ وبينَ الله في الدارَين. وقيل: عِلْمُ الحلالِ واجبٌ[٦]. وقيل: عِلْمُ الباطنِ وهو ما يزيدُ باليقينِ[٧]، ويُكْتَسَبُ ذلك بالصُّحبةِ ومُجالَسةِ الأخيارِ والأبرارِ. وقيل: عِلْمُ التكاليفِ الظاهرةِ، مِنَ البَيعِ والشراءِ والنكاحِ والطلاقِ ... وغير ذلك. وقيل: هو طلبُ حُكمِ مَا يُريدُ أنْ يَعلمَه ممّا قد | جَهِلَه. وقيل: عِلْمُ التوحيد. وقيل: ٢٨و
عِلْمُ ما بُنِيَ الإسلامُ عليه في حديث ابنِ عُمرَ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ». وقال

(١) ع، س: الحالات.

(٢) ع، س: بالتقريب.

(٣) س: عاقبته.

(٤) انظر: مسند البزّار، ٩٥؛ وشعب الإيمان، ١٦٦٣.

(٥) انظر: سنن ابن ماجه، ٢٢٤؛ ومسند أبي يعلى، ٢٨٣٧، و٢٩٠٣، و٤٠٣٥؛ ومسند البزّار، ٦٧٤٦، و٧٤٧٨. وقال البيهقي في «الشعب» وقد جعلهما حديثًا واحدًا: هذا حديثٌ متنُه مشهور وإسناده ضعيف. وقد رُوي من أوجُهٍ كلّها ضعيفة. انظر: الشعب، ٣:١٩٣.

(٦) ع، س: حيث كان إذ كان أكل الحلال واجبًا.

(٧) س: في اليقين.

شيخُنا شهابُ الدينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ: هو عِلْمُ الأمرِ والنهي. فهذا ما يتعلّق ببيانِ العِلْم المُطلَق[١].

ولمّا كانتِ العلومُ متنوّعةً، والدواعي إليها متوفِّرةً، والأسبابُ الموصِّلةُ إليها متعددِّةً، تعيَّنَ على العاقلِ النظرُ في الفَرقِ بين المحمودِ مِنَ العِلمِ والمذمومِ.

فالمحمودُ منه ما بلغَ مَن تَعاطَاهُ إلى طهارةِ النفسِ وتزكيتِها، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وكما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

والمذمومُ منه ما دعاها إلى الكِبْرِ والعُجْبِ وحُبِّ الشرَفِ والرِّفعةِ والحسدِ ... وغير ذلك[٢].

ولمّا كانتِ الهِمَمُ الشريفةُ متطلِّعةً إلى تحصيلِ العِلْم، تعيَّنَ علينا الكلامُ في بيانِ تقسيمِ العِلْم المطلوبِ النافع حالًا ومآلًا، الدّافع مقتًا ووبالًا.

فنقول: إنّ العلومَ المأمورَ بطلبِها تنقسمُ | إلى قِسمَينِ: عِلْمٌ باللهِ، وعِلمٌ بأحكامِ اللهِ. ثمّ العِلمُ باللهِ ينقسمُ إلى: العِلمِ بأسماءِ ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وما يجبُ ويجوزُ ويستحيلُ في حقِّه[٣]. ٢٨ظ

ثمّ العِلمُ بأحكامِ اللهِ عِلْمٌ بأحكامِ الدنيا المتعلِّقةِ بأحكامِ المُكلَّفِين، وعِلْمٌ بأحكامِ الآخرة في المُنَعَّمِينَ والمُعذَّبِين[٤].

ثمّ أحكامُ المُكَلَّفِينَ على ضَرْبَيْنِ: ظاهرٌ وباطنٌ. أمّا الظاهرُ فعلومُ أحكامِ الأنامِ المأمور بالتزامِها، وهو عِلْمُ الفقهِ، مِن امتثالِ الأمرِ واجتنابِ الحرامِ. ومدارُها على القيامِ بفعلِ الأمرِ وتركِ النهيِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

(١) انظر: قُوت القلوب، ١: ٢٢٥.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.

(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.

(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.

فمالَتْ عقولُ طائفةٍ إلى طلبِه، فأَحْكَمُوا فُروعَه وأُصولَه، وعَملوا أبوابَه وفصولَه، وفاقُوا في ذلك الأقرانَ، وأطلَقُوا في نُصرةِ الإسلامِ اللسانَ، فكانُوا أئمّةً يُقتدَى بهم في الدِّين، ويُهتدى بهم[١] في ظلامِ الشكِّ المُبين.

٢٩و وأمّا الباطنُ فعلومُ الخواطر، وتمييزُ الصحيحِ منها مِنَ الفاسدِ | ، والماضي منها مِنَ المستقبل، والممدوحِ مِنَ المذمومِ، وما تتحلّى به النفسُ والرُّوحُ والقلبُ والعقلُ مِنَ التصرُّف في عِلْمِ المقاماتِ والأحوالِ، فتعلّقت به طائفةٌ أخرى، طافت ألبابُها بكعبةِ النظرِ في أحكامِ أنفسِها، وتصحيحِ مقاصدِها، وإزالةِ مُلابسِها[٢] من الخصالِ الذميمةِ، وإبدالِها بالفِعالِ الحميدةِ، فتنوّرتْ وتطهّرت، وأشرقت فيها أنوارُ المجاهداتِ، وتجلّت عليها شُموسُ المشاهداتِ، فكانت رحمةً للأنامِ، ونعمةً تشفي مِنَ ألمِ[٣] الأسقامِ[٤].

وقد أثنى اللّٰهُ على مَن كان لنفسِه قد عاناها[٥] فعنّاها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠].

ومقصودُنا في هذا المقام: التنبيهُ على ما في هذا العِلْمِ مِن جميلِ[٦] الأحكامِ، وسنذكُر مِلَحَ[٧] هذا العِلمِ وما قِيل فيه، ليقعَ في طلبِه قوّةُ العزمِ (*للفِكَرِ المبينة*[٨])،[٩].

ورَوَيْنا عن عيسى – على نبيِّنا وعليه السلامُ – أنّه قال: ﴿العلماءُ ثلاثةٌ: عالِمٌ
٢٩ظ باللهِ وبأمرِ اللهِ، وعالِمٌ باللهِ ليس بعالمٍ بأمرِ اللهِ، وعالمٌ بأمرِ اللهِ | ليس بعالمٍ باللهِ﴾[١٠].

---

(١) ع، س: بنورهم.
(٢) ع، س: ما لابسها.
(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.
(٥) س: عاناه.
(٦) س: جُمل.
(٧) ع، س: مدح.
(*–*٨) ع، س: للفِكْر النبيه.
(٩) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٤.
(١٠) انظر: تأييد الحقيقة، ٤١.

ورَوَيْنا عن سفيانَ الثوريِّ قال: كان يقال: العلماءُ ثلاثةٌ، عالِمٌ باللهِ يَخشَى اللهَ ليس بعالمٍ[١] بأمرِ اللهِ، وعالمٌ باللهِ عالمٌ بأمرِ اللهِ يخشى اللهَ، فذلك العالِمُ الكاملُ، وعالمٌ بأمرِ الله ليس بعالمٍ بالله، لا يخشى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فذلك العالِمُ الفاجر[٢].

ورَوَيْنا عن أبي مُسلمٍ الخَوْلانيِّ أنه قال: العلماءُ ثلاثةٌ: فرجُلٌ عاشَ في عِلْمِه وعاش معه الناسُ فيه، ورجلٌ عاشَ في عِلمِه ولم يَعِشْ معه فيه أحدٌ، ورجلٌ عاشَ الناسُ في عِلْمِه وكان وبالًا عليه[٣].

قلتُ: ومدارُ عِلْمِ الباطنِ على الخَشية، فعلى عِظَمِ الخشيةِ في الصدرِ[٤] وتمكُّنِها مِنَ القلبِ تتكثّرُ المَعارفُ فيه، وتتنزّلُ السكينةُ عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾، [فاطر: ٢٨] وعلى قَدْر تمكُّنِ الخشيةِ مِنَ القلبِ يكون العِلْمُ بالله سبحانه، كما قال ﷺ: «واللهِ إنّي لَأَعْرَفُكم بالله وأشدُّكُم خوفًا منه»[٥]. ولا تكون الخشيةُ إلّا للعالمِ باللهِ[٦].

ورَوَيْنا عن داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «يا ربِّ، | ما عِلْمُ مَن لم يخشَكَ، أو ما حِكْمةُ[٧] مَن لم يُطِعْ أمْرَك؟!»[٨]. ٣٠و

فالخشيةُ باعِثةٌ على الجِدِّ في العملِ، قاطعةٌ لِما اتّصلَ مِنَ الأملِ، زائدةٌ فيما تحصّلَ في القلبِ مِنَ الوَجَلِ.

---

(١) في الأصل: بعلم. والمُثبت من التأييد،٤١؛ وسنن الدارمي، ٣٦٣.
(٢) انظر: سنن الدارمي، ٣٦٣؛ وتأييد الحقيقة، ٤١.
(٣) انظر: سنن الدارمي، ٣٦١.
(٤) س: الصدور.
(٥) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ١٦٦.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٣.
(٧) ع، س: خشيك.
(٨) انظر: سنن الدارمي، ٣٤٨؛ ومصنّف ابن أبي شيبة، ٣٥٣٨٧.

قال سَهْلٌ: الدُّنيا كُلُّها جهلٌ إلّا ما كان منها عِلْمًا، والعِلمُ كلُّه حُجّةٌ إلّا ما كان منه عملًا، والعملُ كلُّه موقوفٌ إلّا مَا كان منه إخلاصًا، والإخلاصُ كلّه مردودٌ إلا ما كان منه بالسُّنّة، وتقوم السنّةُ على التقوى[١].

قلتُ: وسيأتي الكلامُ على التقوى مُبيَّنًا إنْ شاء اللهُ تعالى[٢]، فإذا عُلِمَ شرفُ عِلْمِ الباطنِ فإنّه يدُورُ على أصلَيْن:

علمٌ باللهِ وتصرُّفاتِه في مصنوعاتِه وأحكامِه لِما أتقَن مِن مُختَرَعاتِه، وعلمٌ بالنفوسِ ومَراتبِها، وتَمامِهَا ونَقصِها، ومَحاسنِها ومَعايبِها، ولأجْلِ هذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

والكلامُ في ذلك يطولُ، إلّا أنّا نُنبّهُ على أحكامِ النفوسِ، فنحصُرها في وَصفَيْنِ: نفيُ نقصٍ، وإثباتُ كمالٍ، ولأجلِ ذلك تنوّعتْ لها الرياضاتُ مِن أربابِ الغاياتِ | وتوسّعت في شأنها العباراتُ مِن أربابِ الإشاراتِ. ٣٠ظ

الوصف الأول
إزالةُ النقصِ

مِثل: مُجانَبة[٣] الحسدِ، والكِبْرِ، والغَضبِ، والغِلّ[٤]، والغِشِّ، والطمعِ، والحِقْدِ، والعَجْزِ، والبُخلِ، والشُّحِّ، والرياءِ، والخِدَاعِ، والحِرْصِ، والمَكْرِ، والقِحَّةِ، والخيانةِ، والقَسْوةِ، والغِلْظَةِ، والغفلة[٥]، والعَجَلةِ، والحِدّةِ، والفَخْرِ، والخُيلاءِ، والمُباهاةِ، والمنافسةِ، واحتقارِ الخَلْقِ، وسوءِ الخُلُقِ، وحُبِّ

(١) انظر: شعب الإيمان، ٦٨٦٧؛ وحلية الأولياء، ١٠: ١٩٤؛ وسير أعلام النبلاء، ١٤: ٣٤٨؛ تأييد الحقيقة، ٧٣.

(٢) انظر فيما سيأتي.

(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

الثناءِ، والرغبةِ في الشُّكرِ، والتصنُّعِ للخَلْقِ، والجَفَاءِ، والطيشِ، وعزّةِ النفسِ والاِنتصارِ لها، والأُنسِ بالخَلْقِ، واتِّباعِ الهَوى، والتجبُّرِ، وطُولِ الأملِ، والأَشَرِ، والبَطَرِ، والبَغيِ والظُّلمِ، [*]والعنادِ، والغيبةِ، والنّميمةِ، وطلبِ المغالبةِ بالباطلِ[*١]، وذِكْرِ مَعايبِ الخَلْقِ، وخُلُوِّ القلب مِنَ الحُزنِ، والفَرحِ بالعاجلِ، والحُزنِ على الفائتِ[٢]، والاِعتراضِ على تدبيرِ اللهِ، وما ضاهَى ذلك مِنَ الخِصالِ الذميمةِ والأفعالِ القبيحةِ. فحقٌّ على كلّ مسلمٍ أنْ يتفقّدَ[٣] نفسَه فيها[٤]، وأنْ يتعلّم ما | يُنجِيها مِنَ الردَى، ويَجلبُها إلى الهُدى، وأنْ يُنزّه نفسَه ٣١و
ممّا ذكرناه مِنَ الصفاتِ، فإنها مَرقاةٌ إلى الصعودِ إلى الهَلَكاتِ، مَدْعَاةٌ إلى الهبوطِ في الدرجاتِ[٥]،[٦].

والعملُ بهذا العِلْم فرضٌ على كلّ أحدٍ في جميع الحالاتِ، فَلْيَكُنِ العبدُ لنفسِه مُراقِبًا مُحاسِبًا، ولِمَا يَدعُوه إليه[٧] مِنَ المخالفاتِ مُحارِبًا مُجانِبًا، فإنّ هذه النقائصَ هي مبادئُ الشُّرورِ، ومَداعِي الوَيلِ والثُّبُورِ، ومنها تَشارُدُ الأعمالِ الصالحةِ، ووُرودُ الأهوالِ الفاضحة، وعنها يحدُثُ خرابُ الدُّولِ وذَهابُ المُلْك.

فإذا تنزّهتِ النفسُ عنها، وأَمِنَتْ بما يحدُثُ فيها منها، ارتفعَ[٨] عنها ما يُقرِّبُها مِنَ العِقابِ في دار المآبِ، ويُبعدُها عنِ الثوابِ في يومِ الحسابِ، وذلك هو المطلوبُ لأربابِ الألبابِ. فهذا ما يتعلّق بإزالةِ النقصِ مِنَ النفسِ.

(*-*١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) س: الغاية.
(٣) س: يفتقد.
(٤) مطموسة في الأصل، والتأييد: منها.
(٥) س: الدركات.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٤.
(٧) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع ، س.
(٨) س: اندفع.

الوصف الثاني

٣١و | إثباتُ[١] الكمالِ النافعِ في المآل

وذلك مِن جُملةِ أشرفِ الأعمالِ النافعةِ في الأخرى[٢] عند السُّؤال، كمُجاهَدةِ النفسِ، والتقوى، والورعِ، والزُّهدِ، والشُّكرِ، والصبرِ، والقناعةِ، والرضَى، واليقينِ، والتوكُّلِ، والتفويضِ، والتسليمِ، والإحسانِ، والصدقِ، والإخلاصِ، والنيّةِ، ورؤيةِ المِنّةِ لله، والاحتسابِ في الأعمالِ، والسخاءِ، والشفقةِ، وسلامةِ الصدرِ، والمبادرةِ للأمرِ، والخشوعِ، والتواضعِ، والمراقبةِ، والمحاسبةِ، وحُسنِ الظنِّ باللهِ، وحُسنِ الطاعةِ له، وحُسنِ الخُلُقِ، وحُسنِ المعاشرةِ للخَلْقِ، وحُسنِ المعرفةِ[٣] باللهِ، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ الكمالِ الإنسانيّةِ[٤].

فمَن جاهدَ نفسَه هُدِيَ لأحسنِ الطرقاتِ، ومَنِ انقادَ[٥] ترقّى لأرفعِ الدرجاتِ، ومَن تَورّع نجا مِنَ التَّبِعاتِ، ومَن زَهِدَ وجَدَ ما فَقَدَ مِنَ الطلباتِ،
٣٢و ومَن شَكَرَ ظَفِرَ مِنَ اللهِ بالزياداتِ، ومَن صَبرَ قَدَرَ على ما عَزَّ | لذوي الحاجاتِ، ومَن قَنِعَ اسْتَغنى عن إبداءِ الفاقاتِ، ومَن رَضِيَ عنِ اللهِ طابَ عيشُه في جميعِ الحالاتِ، ومَن عَمِلَ على اليقينِ زالَ عنه الشكُّ في المقدوراتِ، ومَن توكّل كُفِيَ جميعَ المهمّاتِ، ومَن فوّض إلى الله فاضت عليه جميعُ[٦] البركاتِ، ومن سَلّمَ نفسَه إليه سلِمَتْ مِنَ طوارقِ الآفاتِ، ومَن أحسنَ كُوفِئَ بإنالةِ المَسرّاتِ، وإزالةِ المضرّاتِ، ومَن صَدَقَ تخلّص مِن مكروه العقوباتِ، ومَن أخلصَ تخصَّص بمضاعفةِ المَثُوباتِ، ومَن نوى صالحًا تيسّر له ما يرُوم مِنَ الإراداتِ، ومَن رأى

---

(١) التأييد: تحصيل.
(٢) ع، س: الآخرة.
(٣) س: الطاعة.
(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٤.
(٥) س: اتقى.
(٦) ع، س: مياه.

مِنّةَ اللهِ عليه أمِنَ مِنَ المَخُوفاتِ، ومَنِ احتسَبَ أعمالَه زَكَتْ عند اللهِ في جميعِ
الأوقاتِ، ومَن عانى السخاءَ تألّفَ ما في القلوبِ مِنَ النفراتِ، ومَن أشْفَقَ على
الخَلْقِ رُفِعَ له لواءُ المسرّاتِ، ومن سَلِمَ صَدْرُه (*مِنَ العِلَلِ*[1]) دُفِعَ عنه ورَطَاتُ
الهَلَكاتِ، ومَن بادَر (*إلى الأوامرِ*[2]) بادت عنه أهوالُ المخوفاتِ، ومَن خَشَعَ
٣٢ظ قلبُه حازَ أرفعَ الرُّتبِ في الجنّاتِ، ومَن تواضَع | ارتفعَ قَدْرُه وعُدَّ مِن ذوي
السِّياداتِ، ومَن راقبَ اللهَ نجا مِن تبعاتِ الخطراتِ المُلقِية إلى الحسَرات، ومَن
حاسَب نفسَه ألْحَفَها رداءَ الموافقاتِ على الطاعاتِ، ومَن حَسُنَ ظَنُّه باللهِ كُشِفَ
عنه سَطَواتُ الكُرُبات، ومَن حَسّنَ طاعتَه ظَفِر بالقَبولِ لِما يأتي به من القُرُباتِ،
ومن حَسُنَ خُلقُه ثَقُلَ ميزانُه في العَرْضِ عند خفّةِ الكفَات، ومَن أحسنَ العِشرةَ
عَدَّهُ العقلاءُ مِن أربابِ المُروءاتِ، ومَن عَرَفَ اللهَ كَلَّ لسانُه عنِ العباداتِ
والإشارات.

فإذا نَفَى وأثبت المحمودَ والمذمومَ مِن هذه الصفات ترقّى عنها إلى
التوبة مِنَ[3] الزّلّات، ثمّ إلى المحاسبة لنفسِه على الهفَواتِ، ثمّ إلى المراقبةِ
إلى ما تَصدّرَ منه مِنَ الخطراتِ، ثمّ إلى الفكرةِ فيما يتعلّق باللهِ من صفاتِ
الفعلِ والذاتِ، ثمّ إلى التخلُّقِ بصفاتِه العُلى في توجُّه الطلباتِ إلى الحركات
والسكناتِ، فيتخلّق مِنَ الرحمةِ باسمِه «الرحمن الرحيم»، ومن الإحسانِ باسمه
٣٣و «المُحْسِن»، ومِنَ المنفعةِ باسمِه | «النافع»، ومِنَ المضرّة باسمِه «الضارّ» لمن
يستحقّ الضررَ مِنَ الكفّار بالقتلِ والسَّبْي والأسْرِ[4]، ومِنَ المسلمين العُصاةِ
بإقامةِ ما وطَّن الشارع[5] عليهم من العَسْفِ والإنكارِ، كما قال تعالى:
﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، وكذلك في باقي الأسماءِ،

(*-*١) ع، س: عن الغِلّ.
(*-*٢) س: للأوامر.
(٣) س: عن.
(٤) في الأصل: الأسارى. والمثبت من التأييد، ٧٤.
(٥) س: وظّف.

يتخلّق بكلّ اسمٍ منها فيما هو به لائقٌ، ويتحقّق بمعناه؛ فإنّ ذلك له إلى منازلِ التوفيقِ سائقٌ[1].

فإذا تخلّقَ بصفاتِ الحقّ (*فيما لها مِنَ المقتضياتِ*[2]) ترقّى عنها إلى الاعتبارِ بتأثيرِها في الموجوداتِ، ووجودِ سرايةِ أسرارِها في المصنوعات، ثمّ يَرْقى عن ذلك إلى الاعتبارِ في نعمةِ الإيجادِ، وسَبْقِ الخِذلانِ والعناياتِ، ثمّ يرقى عن ذلك إلى الفناءِ في شهودِ الذاتِ الصادرِ عنها أنواعُ المُبدَعاتِ، ثمّ يَرْقى عن رؤيةِ الإراداتِ وفتنةِ المراداتِ، ثمّ ألقى نفسَه بين يدي مُدبِّرِها كأنها بعضُ الجمادات، فهنالك تنتهي غاياتُ الرغبات، وتتوقّف الفكرةُ عن منازعاتِ الطلباتِ، وقد
٣٣ظ أوضح معنى ما | ذكرناه مَن تقدَّمَنا مِنَ الساداتِ[3].

قال سهلُ بنُ عبدِ الله: أوّلُ ما يُؤمرُ به المُريدُ التبرُّؤُ مِنَ الحركات المذمومة، ثمّ التنقُّلُ إلى الحركاتِ المحمودةِ، ثمّ التفرُّدُ لأمرِ الله، ثمّ التوقُّفُ، ثمّ الرشادُ[4]، ثمّ الثّباتُ[5]، ثمّ البيانُ، ثمّ القُربُ، ثمّ المناجاةُ، ثمّ المُصافاةُ، ثمّ المُوالاةُ، ولا يستقرُّ هذا بقلبِه حتى يَرجِعَ إلى إيمانه، فيكون العلمُ والقدرةُ زادَه، والرِّضى والتَّسليمُ مُرادَه والتفويضُ والتوكُّلُ حالَه، ثمّ يَمُنُّ اللهُ بعد هذا بالمعرفةِ، فيكون مقامُه عند الله مقامَ المُتبرِّئينَ من الحَوْلِ والقوّةِ، وهذا مقامُ حَمَلَةِ العرشِ، وليس بعدَه مقامٌ[6].

قلتُ[7]: وقال يحيى بنُ معاذ: قناطرُ العاملينَ سبعٌ: أولُها التوبةُ، ثمّ الزُّهدُ، ثمّ الخوفُ، ثمّ الشَّوقُ، ثمّ الرِّضَى، ثمّ المحبّةُ، ثمّ المعرفةُ. فبالتوبةِ تَطَهّرُوا مِنَ

---

(١) س: سابق.
(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٤-٧٥.
(٤) التأييد: الإرشاد.
(٥) التأييد: الفناء.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٥.
(٧) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

الذُّنوبِ، وبالزُّهدِ زَايَلُوا الدنيا، وبالخوفِ جازُوا قناطرَ النارِ، وبالشوقِ دخلُوا الجنّةَ، وبالرِّضَى لَبِسُوا قراطقَ العبوديّة، وبالحُبِّ وجَدُوا | طَعْمَ النعيم، وبالمعرفةِ ٣٤و وَصَلُوا إلى ما طلبوا مِنَ الدنيا والآخرة(١).

قلتُ: اشتملتْ هذه المقالةُ منها على حُكمِ بيانِ طريق السُّلوكِ، فمَن تأمّلَ مقالَها اهتدى فاقتدى، وبِرداءِ المعرفةِ بعد الجهل ارتدى، فمَن سَلَكَ هذا المَسلكَ مِنَ المتوجّهينَ وصلَ (*إلى ما ينالُ*٢) مِن رُتبة المُقرَّبينَ.

ثمّ اعْلَمُوا أنّ أعظمَ الآفاتِ على العُمّال (*استحسانٌ منهم ما*٣) يصدُر عنِ النّفسِ مِنَ الأعمالِ.

قلتُ(٤): قال أبو عبد الله السِّجزيّ: مَنِ استحسنَ شيئًا مِن أحوالِه في حالِ إراداتِه فسدتْ عليه إراداتُه، إلّا أنْ يَرجِعَ إلى ابتدائِه، فيُروِّض نفسَه ثانيًا، ومَن لم يَزِنْ نفسَه بميزانِ الصدقِ فيما يبدو منه وعليه، لا يبلُغ مَبلغَ الرجالِ.

قلتُ: وكما يتعيّنُ على العاقلِ اجتنابُ الِاستحسان لأعمالِه، فكذلك يتعيّن عليه اجتنابُ المُفسدات لأحوالِه، فإنّ ارتكابَها مُقصرٌ به عنِ الوصول لآمالِه.

قال ابنُ المبارك: أفضلُ أوقاتِك وقتٌ تَسْلَمُ فيه من هواجسِ نفسِك، (*ووقتٌ يسلمُ فيه الناسُ | مِن سُوءِ ظَنِّك*٥). ٣٤ظ

وقال ذو النونِ المصريُّ: إنما دخل الفسادُ على الناس(٦) من ستّةِ أشياءَ: الأول: ضعفُ النيّة بعملِ الآخرة. والثاني: صارت أبدانُهم رهينةً لشهواتهم. والثالث: غَلَبَهُم طُولُ الأملِ مع قُربِ الأجَلِ. والرابع: (*اتّبَعُوا الطمَعَ ولم يلتفتوا إلى الوَرَع*٧).

---

(١) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٥.

(*-*٢) لا يوجد في: ع، س.

(*-*٣) ع، س: استحسانُ ما.

(٤) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(*-*٥) الرسالة: ووقت تسلم فيه من سوء ظنّك.

(٦) ع، س: الرسالة: الخلق.

(*-*٧) ع، س: الرسالة: آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق.

والخامس: اتّبَعُوا أهواءَهم ونَبَذُوا سُنّةَ نبيِّهم وراءَ ظُهورِهم. والسّادس: جعلوا قليلَ زلّاتِ السَّلفِ حُجّةً لأنفسِهم، ودَفنوا كثيرَ[1] مناقبِهم[2].

وقال أبو عثمانَ: ألقِ التُّهمةَ على جميعِ عملِك يَتِمَّ لكَ عملُك، وأَسْقِطْ نُهْمتَك[3] عنِ الخَلْقِ أجمعَ، تَستَرِحْ مِن سُوءِ الظنِّ بهم وفيهم.

وقال أبو حفص: ما أسرعَ هلاكَ مَن لا يَعرفُ عَيبَه، فإنّ المعاصيَ بَريدُ الكُفر[4]. وقال محمدُ بنُ أبي الورد: كلُّ عملٍ لا يَصحبُني فيه خوفُ التقصير فإنّي أراني فيه مُستدرَجًا.

قلتُ: فإذا اعتمدَ ما ذكرناهُ مِنَ الحالاتِ فقدِ انطوى له في ذلك عِلْمُ الأحوالِ والمقاماتِ، وفاق بما نال مِن هذه الجهات على مَن لا يقفُ على لُذاذة هذه المذاقات.

٣٥و ثمّ اعْلَمُوا أنّ التوصُّل إلى هذه الحالاتِ | تارةً يكُون عن جَذْبٍ ربّانيّ، وتارةً يكون عن سلوكٍ عِرفانيّ.

أمّا الأوّل: فيكونُ عن قَذْفٍ رَحْمَانيٍّ يُلقَى في قلبٍ رُوحانيّ، بغيرِ مُوَقِّفٍ ولا مُعَرِّفٍ ولا مُعَنِّفٍ للأنفسِ لِهَمِّها[5] مُصَرِّف.

وأمّا الثّاني: فيكونُ عن مُبصِّرٍ بحُكم الطريق، مُخبرٍ عن عِلْم الفريق، كالشيخِ لتابعِيه، وإنّه لَمِن أعزِّ الرفيق، وكلٌّ مِنَ الشخصينِ في بحرِ الحَيرةِ غريقٌ، وبنارِ الهَيبةِ حَريقٌ. قال الله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨]. فتعرُّفُ الحقِّ لقلوبِ أوليائِه وأحبّائِه كذلك تارةً يكون بواسطةٍ يُنَبِّهُهَا ويُعرّفُها ويوقفها ويذكّرها ويبصِّرُها، فتُذعِنُ النفسُ وتنقادُ عن العبادِ، وتُجيبُ لِما دُعيتْ له مِنَ الرشادِ. وتارةً يكون

---

(١) س: أكثر.
(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ١: ٢٢٠-٢٢١.
(٣) س: تهمتك.
(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ١: ٢٢٠.
(٥) س: لهما.

بغيرِ واسطةٍ من إنعامٍ بإلهامٍ وإتمامٍ لإفهامٍ، وذلك موروثٌ لهم عنِ الأنبياءِ
عليهم الصلاةُ والسلامُ. قال اللهُ تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ
نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ | ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ ٣٥ظ
[الأنعام: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ
عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وكما في أمرِ نبيِّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنّه لمّا تعدّى سِنَّ
التمييزِ، وتمكّن مِنَ النظرِ والاِعتبارِ بالاِفتكارِ، قادَتْهُ الفكرةُ إلى أنْ ألهمَه اللهُ
طلبَ دِينٍ يتمسّكُ به لما عَلِمَ أنّ ثَمَّ مَن يُعبَدُ ويُقصَدُ ويُتوجَّهُ إليه، فلم يَزَلْ
يَعملُ على ذلك الإلهامِ وفيه يتردَّدُ، ويتقلّبُ فيما كان فيه مِن أنواعِ الفكرةِ[١]
له يتعدّد، حتّى فاتَحَهُ الحَقُّ أوّلًا بالمناماتِ والإلهاماتِ، ثُمّ ثانيًا بواسطةٍ[٢] مِنَ
الوحيِ المُعَرِّفِ له بعجائبِ الغيوبِ المُعْرِبِ له عمّا أشكَل على العقول، فكان
يُراجِع تلك الواسطةَ التي هي جبريلُ عليه السلام فيما يتجدّدُ له مِنَ الوقائعِ، ويتردّدُ في
صدرِه مِنَ اللوامعِ، حتى استقرّ ما كان فيه مِنَ الاِضطرابِ، وظهَر له ما كان
قد خَفِيَ عليه مِنَ الاِقترابِ، وتارةً يُلْقِي اللهُ في نفسِه أمرًا بغيرِ واسطةٍ فيعمل
عليه، | أو رُؤيا تُفصِحُ له عمّا قَصَدَ إليه، كما قال عليه السلام: «إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ ٣٦و
في رُوعِي أنّ نَفْسًا لن تَموتَ حتّى تَستكمِلَ رِزقَها [وإنْ أبطأَ عليه][٣]، فاتّقُوا اللهَ
وأَجْمِلُوا في الطلَبِ»[٤].

وهذا النوعُ يشتركُ فيه النفوسُ الصافيةُ، وعلى قَدْرِ الصفاءِ في النفسِ تصدُقُ الوقائعُ، ووقَع ذلك لِأُممٍ مِن أمّتِه في حياتِه وبعد مماتِه.

---

(١) ع، س: الفِكَر.

(٢) ع، س: بالواسطة.

(٣) زيادة من نصّ الحديث.

(٤) انظر: مسند البزّار، ٢٩١٤؛ ومسند الشهاب، ١١٥١؛ وشعب الإيمان، ١١٨٥؛ والترغيب والترهيب، ٢٦٣١.

وقد قال ﷺ: «إنّ في أمّتي مُحدَّثِينَ، وإنّ عُمَرَ لَمِنْهُم»(١)، وقد قال عُمرُ رضي الله عنه: «يا ساريةَ، الجَبَلَ!»(٢)، فنزل القرآنُ مُوافقتَه(٣) في مَواضعَ، منها قولُه: لو اتّخذتَ من مقام إبراهيمَ مُصلًّى؟، فأنزل اللهُ تعالى قولَه في كتابه: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

فإذا تجلّت أنوارُ الغَيْبِ على القلبِ انفسحَ وانشرحَ، وصار صدرُه واسعًا طيّبًا صافيًا عَنِ الكدَرِ، كما أخبر اللهُ عن حالِ صاحِبه بقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فهو ناظرٌ إلى اللهِ في
٣٦ظ جميعِ الأوقاتِ، نافرٌ عنِ المُلاحَظةِ للحظوظِ، والمحافظةِ | على تركِ الشهواتِ، لا وقوفَ له مع شيءٍ مِنَ التعلُّقاتِ، (*ولا تَطَلُّعَ له إلى ما يُتَوَقّع من التّعوُّقاتَ*(٤))، بل قد قطعَ عن نفسِه العلائقَ والعوائقَ، وجَمَعَ مِن أُنسِه ما تفرّقَ عليه فلَم يفرق مِنَ البوائقِ الفوائق، وبقي فردًا لفردٍ، وعبدًا لسيِّدٍ، كلّما اعترضه مُعارِضٌ أزالَه، وكلّما حلّ به حالٌ أحالَه، فهو باللهِ عارفٌ، ومعَ الله واقفٌ، وعلى الأدبِ مع خَلْقِ اللهِ عاكفٌ، لا يَصرِفُه عنِ التوجُّهِ صارفٌ، رأى المِنّةَ لله عليه وشاهَدَها، وأسقَطَ نفسَه مِنَ الوسطِ وباعَدَها، وخرجَ عنِ الحظوظِ الملحوظةِ وعانَدَها، فهو في أمرِه على بيّنةٍ مِن ربِّه، وفي شُكرِه على إجابةٍ له مِن قلبِه، قدِ استراح منه مَن كان في البلادِ مِنَ العبادِ، ولاحَ له عينُ المرادِ لَمّا تجرّد عنِ العنادِ. فهذا ما يتعلّقُ بعِلْمِ الباطنِ، المحمودِ منه والمذموم.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، ٤٤: ٩٦.
(٢) انظر: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ٣٥٧٨٨.
(٣) كذا في الأصل، وهو منصوب على نزع الخافض، وفي س: بموافقته.
(*-*٤) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

وأمّا عِلْمُ الخواطرِ والتمييزِ بين[١] الرديء منها والجيِّد، فهو مِن جملة عِلْم الباطنِ، وكذلك المحاسَبةُ والمراقبةُ وغيرُ ذلك، فإنّه يطولُ الكلامُ فيه لو أنّا | في ذلك شَرَعْنا، وسيأتي بيانُ ذلك في موضعِه إنْ شاء الله تعالى[٢]. ٣٧و

وما جعَلَ أهلُ الطريقِ الأورادَ والأذكارَ والجُوعَ إلّا لِتقلَّ[٣] الخواطرُ وتقعَ عمارةُ الفِكرِ بما يمنع منها، ولا إشكالَ أنّ الخواطرَ متعاقبةٌ، ما ينقضي خاطرٌ إلّا خلفَه آخرُ، وكثرتُها إنما تتأتّى عند الغفلةِ. وإغفالُ[٤] النفسِ عنِ الملاحظةِ لِما يتجدّدُ فيها والاِسترسالُ في الخواطرِ مِن أعظمِ المَضارِّ على المُتَوَجِّهينَ، وقد نبّهَ اللهُ الغافلينَ على طلبِ اليقظةِ منهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وذَمّ المُسترسِلِينَ فيها بقوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فالمُتيقّظُ لنفسِه حارسٌ عنِ الوساوسِ، والغافلُ تَرَكَ حِراستَها فهو من فَلَاحِها آيِسٌ، فمَن كانت لله به عنايةٌ أَلْهمَه التفقُّدَ لخواطرِه، فينفي المكروهَ ويُثبتُ المحبوبَ، فيكون[٥] بذلك لربّه مُطيعًا، ومَن أهملَ نفسَه وغَفلَ عنها، واتّبعَ | هواجسَها، وعمِل على مقاصدِها، هَلَكَ معَ ٣٧ظ الهالِكينَ ضلالًا، وعُدّ في جُملةِ الأَخْسَرِينَ أعمالًا، الذينَ ضَلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا، وهم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنعًا.

تنبيهٌ: اِعْلَمُوا أنّ العُجْبَ بالآراءِ والأعمالِ والعلومِ أعظمُ آفَةٍ تَرِدُ على ذوي المَراتبِ لأربابِ[٦] الحُلومِ، وقَلّ مَن يَنجُو مِن تلكَ الآفاتِ والهُمومِ، فَلْيَحْذَرْ

---

(١) في الأصل: من.

(٢) انظر فيما سيأتي ١٩٧.

(٣) ع: لِثقل.

(٤) س: وإهمال.

(٥) في الأصل: فيكن.

(٦) ع، س: من أرباب.

منه الإنسانُ؛ فإنّه داءٌ قاتلٌ، ومقتٌ عاجلٌ، وألَمٌ حاصلٌ، مُكثِرٌ للرذائلِ، مُقلّلٌ للفضائلِ.

رَوَيْنا عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو لم تكُونوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عليكم ما هو أكبرُ[٧] منه: العُجْب». أخرجه البزّار[٨].

وقال أبو عثمانَ الحِيريّ: العُجْبُ يتولّدُ عن رؤية النفْس وذِكرِها ورؤيةِ الخَلْق وذِكرهم[٩].

وقال يوسفُ بنُ الحسين: يتولّد الإعجابُ بالعملِ مِن نسيانِ رؤيةِ المِنّة فيما يُجْري اللهُ لك مِنَ الطاعاتِ[١٠]. فالعُجْبُ أعظمُ الآفاتِ الداخلةِ على الأعمالِ، فَلْيَكُنِ العاقلُ منه على حذَرٍ | في جميعِ الأحوالِ، وهو حادثٌ عنِ الإفراط في محبّة النفسِ والرِّضَى عن فضائلِها وأخلاقِها، وهي مجبولةٌ على ذلك، ولا يَرْدَعُها عنه إلّا عقلٌ كاملٌ، وذِهنٌ فاضلٌ. ٣٨و

وأقلُّ ما فيه مِنَ العيبِ تنقيصُ كمالِ الإنسانِ فيما وقعَ منه العُجْبُ فيه في العلومِ والصنائعِ؛ لأنّ المُعْجَبَ بما اقتناه مِن آياتٍ وكتابٍ أو عِلْمٍ أو صَنعةٍ لا تُمكّنه نفسُه أنْ يتعوّضَ عنه غيرَه؛ لأنّه لا يرى غيرَه أجودَ منه، فهو مغرورٌ بإعجابِه، مسرورٌ بما شُكِّل[١١] في نفسِه، فعَمَلُه عند ذلك لا يتزيّدُ، وما لم تحصُلِ الزيادةُ كان النقصُ حاصلًا، فيتخّلفُ عن مكانة أمثالِه، ويتوقّفُ عن رُتبة نُظرائِه في أحوالِه، وهو مَوطِنٌ شديدٌ. وقد نبّه النبيُّ ﷺ على اطِّراحِه واجتنابِه بقولِه: «لن يَدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنّةَ بعملِه»، قيل: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال:

---

(٧) س: أكثر.

(٨) انظر: مسند البزّار، ٦٩٣٦.

(٩) انظر: طبقات الصوفية، ١:١٤١؛ وتأييد الحقيقة، ٧٥.

(١٠) انظر: حلية الأولياء، ١٠:٢٤٠؛ وتأييد الحقيقة، ٧٥.

(١١) ع، س: تشكّل.

«ولا أنا، إلّا أنْ يَتغمّدَنِيَ اللهُ برحمتِه»[١]. ومُداواتُه[٢] أنْ لا يَنظُرَ إلى مَن ماثَلَهُ فيما وقعَ الإعجابُ به فيه مِنَ الأمرِ، بل ينظُرُ إلى مَن كان خسيسًا[٣]، ونالَ | درجةً ٣٨ظ
رفيعةً بغير فضيلةٍ، بل بحظٍّ حاصلٍ ورزقٍ واصلٍ.

ومَن نظرَ في نفسِه وعُيوبِها شغلَه ذلك عنِ الإعجابِ بها، ولا سيّما إذا نظر لمنّةِ اللهِ عليه فيما أولاهُ مِنَ المعروفِ إليه، فيشتغلُ بالشُّكرِ عنِ العُجْبِ، ويزدادُ بعد البُعدِ مِنَ القُرْبِ.

رَوَيْنا عنِ الشيخِ أبي عبد الرحمن السُّلمي رضي الله عنه أنّه قال: سمعتُ جدّي – يعني أبا عمرِو بن نُجَيْد – يقول: آفةُ العبدِ رِضاهُ عن نفسِه بما هو فيه[٤].

قلتُ: هذا هو كلامُ حقٍّ، وذلك أنّه إذا رَضِيَ عنها اشتغلَ بها، وامتنعَ عن طلبِه[٥] الزيادةَ لها، فهذا حالُ الرِّضَى عنها، فكيف حالُ المعْجَبِ بها؟!

ومبدأُ العُجْبِ مِنَ الرضَى عنِ النفسِ والتناهي في محبّتِها، واعتقادِ كمالِها، وتخصيصِهَا بما لم يُؤتَ أحدٌ سِواها، فأعمالُها تقعُ معلومةً، وهي عن اللهِ بها مشغولةٌ، فهي مِن سَكْرةِ غواها غيرُ صاحيةٍ، ومِن فتنةِ هواها لنُصْحِها غيرُ واعيةٍ، لرداءِ اليقظةِ | منها مسلوبةٌ، وبعَناءِ الغفلةِ فيها محجوبةٌ، فإنْ تَدَارَكَها ٣٩و
نظرٌ[٦] مِنَ اللهِ سَلِمتْ، وإنْ وافقَها خِذلانٌ عَطِبتْ. ونسأل اللهَ التوفيقَ للسعي في إصلاحِها، والتصدُّق على مَنِ ارْتَضَاهُ لخدمتِه بصلاحِها.

قال إبراهيمُ الخَوّاصُ: العُجْبُ يَمنعُ معرفةَ قَدْرِ النفس، والعَجلةُ تمنع مِن إصابة الحقّ، والرِّفقُ والحزمُ يَمنعانِ مِنَ المذامّة[٧]، ولا قوّة إلّا بالله[٨].

(١) انظر: مسند أحمد، ٧٤٧٣؛ وصحيح مسلم بلفظ آخر، ٢٨١٦.
(٢) س: ومداته.
(٣) ع: حسيبًا.
(٤) انظر: الزهد الكبير، للبيهقي، ٢: ١٥٤.
(٥) ع، س: طلب.
(٦) ع، س: نصرٌ.
(٧) ع، س: الندامة.
(٨) انظر: شعب الإيمان، ٦٨٨٧.

ثمّ اعْلَمُوا أنّ الناسَ قَبْلَنا قد صنّفوا فيما يلزمُ مَن يسلُك هذا الطريقَ مِنَ الآدابِ، وما يتعيّن عليه مِنَ المُراعاةِ لمخالفةِ العوائدِ في الوقوفِ مع الحظوظِ والأسبابِ، وما يُثْمِرُ له ذلك مِنَ الحُسنى في دارِ المآبِ، فلوِ اهتدى السّالكون لشيءٍ مِن طريقِ الصوابِ نظروا في كُتبِهم، وسمعوا(١) ما ألقَوه لهم مِنَ الخطابِ، لكنّهم قالوا: إنّ نظرَ الفقيرِ في الكُتبِ وطلب العِلمِ مِن أعظمِ الحِجَابِ. وما ذكروه فهو كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ، وصِفةُ نقصٍ تحلّى(٢) بها | ٣٩ظ مَن هو عنِ الكمالِ عاطلٌ، وإنما ذَكَرَ أهلُ الطريق ذلك مِن(٣) قومٍ مِن صِفتِهم أنهم حصّلوا ما تميّزوا به عند أهلِ هذا الشأنِ مِن عِلمَي الشريعةِ والحقيقة، فاستغنَوا عنِ النظر في غيرِ ذاتِهم، وفُوتِحُوا مِنَ الغيبِ بما شهِدَ(٤) لهم بنجاتِهم، فهُم باللهِ معَ اللهِ مُعرِضُونَ عَن مُلاحظةِ صفاتِهم. طُهِّرُوا عن ملاحظةِ أنجاسِ الأغيارِ، وسُتِرُوا عنِ الشهوة لما صفا لهم وَقْتُهُم عنِ الأكدارِ، فهم كما قال بعضُ أحبابِ ربِّ الأربابِ: طنينُ الذُّبابِ وصريرُ البابِ يُشوّشُ على ذوي الألبابِ، فمَن كان كذلك فإنّه مشغولٌ بما هو فيه عنِ النظرِ في الكتابِ.

وأمّا مَن هو عنِ العِلمِ بالظاهرِ والباطِنِ فِكرُه نازحٌ، فحقُّه أنْ يعلَم ما هو للعِلمِ بطريقتِه التي يسلُكُها شارحٌ، ولئن أَبَى واستكبرَ فإنّه عنِ الوصولِ إلى منهجِ السعادةِ قامحٌ. وبذلك تمّ الطرفُ الأوّل(٥).

---

(١) مطموسة في الأصل، والمثبت من: ع، س، التأييد، ٧٦.

(٢) مطموسة في الأصل، والمثبت من: ع، س، التأييد، ٧٦.

(٣) س، الإتحاف: في.

(٤) س، الإتحاف: يشهد.

(٥) انظر: إتحاف السادة المتقين، ١: ٢٥١.

الطرف الثاني

في بيان المسالك للسالك

وما يتعيّن عليه أنْ يتوقّى في | طريقِه مِنَ المهالكِ ٤٠و

والكلامُ فيه يقع في نوعَينِ:

الأوّل: فيما يلزم مَن توجَّه إلى جَنابِ الله مِنَ المُريدينَ.

والثاني: في شرحِ المقاماتِ والأحوال للمُتوجِّهين.

النوع الأوّل

فيما يتوجّب مِنَ الوظائفِ على مَن جَدّ في الخدمةِ وتعرّض لمواهبِ اللطائفِ.

وينحصرُ الكلامُ فيه في ثلاثةِ مَقاصدَ:

المَقصِد الأوّل

في الفرق بين اسم الصوفيّ والفقير وما يتميّز به كلٌّ واحدٍ منهما من الشرف الخطير

فنقولُ[1]: العلوم المطلوبة تنقسم إلى عِلمٍ وعملٍ، كالطبِّ والفقهِ والنحوِ وغيرِ ذلك، وكذلك عِلمُ هذه الطائفةِ ينقسمُ إلى: علمٍ بمصطلحِ أهلِها، وإلى عملٍ بأخلاقِها[2]. وقبل أنْ نَشرَعَ في ذلك يتعيّنُ أنْ نُنَبِّهَ على الفرقِ بين الفقرِ والتصوُّف في اصطلاح أهل الطريق: هل هُما سواءٌ، أم أحدُهما أتمُّ مِنَ الآخَرِ عند

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: س.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٦.

ذوي التحقيق؟ وبين الفقراءِ والصُّوفيّة تشاجُرٌ في ذلك، ونحنُ نُوضِّحُ الحقَّ في ذلك إنْ شاء اللهُ تعالى، فنقول:

قال شيخُنا، شيخُ | شيوخِ الإسلامِ شهابُ الدينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ: التصوُّفُ ٤٠ظ
فوقَ الزُّهدِ وفوق الفقر(١). وقيل: نهايةُ الفقرِ - مع شرفِه - بدايةُ التصوُّف. وأهلُ الشام لا يُفرّقون بين التصوُّف والفقرِ(٢).

قلتُ: قال قومٌ: هما سواءٌ، كما قال شيخُنا قدَّس اللهُ رُوحَه عن أهلِ الشامِ. وقال آخَرُونَ: مُسَمّى الفقرِ أعلى، فإنّ الكتابَ والسُّنّةَ به نَطَقَا(٣).

واسمُ التصوُّفِ مُحْدَثٌ، لم يكن يُعْهَدُ في السلفِ الصالح ذلك الِاسمُ(٤)، قال اللهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٧٣].

ورَوَيْنا من حديثِ أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يدخلُ فقراءُ أمّتي الجنّةَ قبل أغنيائِهم بنصفِ يومٍ، وهو: خمسُ مِئةِ عامٍ». أخرجه الترمذي وقال: هذا حديثٌ صحيح(٥).

وما عُهِدَ تسميتُه سابقًا وسُمِعَ في الكتابِ والسُّنّةِ النُّطقُ به (*كان الِانتماءُ إليه*٦) والتعريفُ بسِيْمَاهُ أَولَى مِنَ الِاسمِ المُحْدَث، والذي عليه(٧) جُلُّ أئمّةِ هذا
الشّأنِ أنّ | اسمَ الصُّوفيِّ أعلى رُتْبةً وأَوْلى نِسبةً وأخصُّ بالمعنى المُرادِ(٨). ٤١و

ويدلُّ على ذلك وجوهٌ:

(١) انظر: عوارف المعارف، ٦٥.
(٢) انظر: عوارف المعارف،١: ٢٠٣.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٦.
(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٦.
(٥) انظر: سنن الترمذي، ٢٣٥٤؛ والرسالة القشيرية، ٥٣٦؛ وعوارف المعارف، ١: ٢٠٤.
(*-*٦) س: كان اسم الفقير.
(٧) لا توجد في: س.
(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.

الأوّل: أنّ الفقرَ أُطلِقَ عمومًا على مَنِ افتقرَ مِنَ المالِ، وخُصوصًا على مَنِ افتقرَ بكُلّيتِه إلى الله في جميعِ الأحوالِ(١)، فيؤدّي إلى الاِشتراكِ والإبهامِ في التسميةِ، وذلك يُورِثُ اللَّبسَ، وهو على خلافِ الأصلِ.

وأمّا التصوُّفُ فإنّه(٢) يُطلَقُ على الفقرِ الخاصّ بزيادةِ أوصافٍ أُخَرَ(٣)، فيبدُر إلى الفَهمِ مُسمّاهُ مِن غير تردُّدٍ فيه(٤).

والثاني: أنّ التصوُّفَ يندرجُ فيه الفقرُ، فإنّ الفقرَ توجُّهٌ وتخلُّقٌ واعتصامٌ بالآدابِ المعلومةِ مِنَ المُجانبةِ للخِصالِ المذمومةِ، والمتابعةِ للخصالِ المحمودةِ، فهو اسمٌ جامعٌ لِمَعاني الفقرِ، ومُرْبٍ عليه بأمورٍ أُخَرَ لا توجد في الفقرِ ولا في الزُّهدِ.

والوجه الثالثُ: أنّ الفقيرَ هو الشخص المُستَمسِكُ بعُروةِ فقرِه، المُستَشْرِفُ لطلبِ أعْواضِ المَثُوباتِ على شُكرِه وصبرِه، المُتشرّفُ بما وقع به التعرُّفُ له مِن فَخرِه، المتشوِّفُ | بملابسته له عند الله إلى تعظيمِ قَدْرِه، الواقفُ معه على قَدَمِ ٤١ظ نَفعِه فيه وضرِّه(٥).

ولذلك ورد في الخبرِ: «الفقراءُ الصُّبُرُ جُلساءُ الله»(٦)؛ يعني – والله أعلمُ – أنهم تمسّكوا بما هم فيه، وما آثرُوا غيرَه، فهذا يدلّ على ما قلناه.

وأمّا الصُّوفيُّ: فهو الفقيرُ الذي أَسقطَ الوقوفَ معَ الأعواضِ، وعَملَ (*على الصّدِّ عنِ الموجوداتِ المنقسمةِ إلى الجواهر والأعراض، وقطع*(٧) العلائقَ والعوائق، وواصَل الفناءَ عنِ التطلُّع لغيرِ الخالقِ، وبايَنَ الأكوانَ والأزمانَ قلبًا وقالبًا، وبقي بالله لله مُلاحِظًا طالبًا، وترَك نفسَه عن التطلُّع لها جانبًا، وجَعلَ

---

(١) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(٢) لا يوجد في: س.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(٦) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، **٤٩٩٣**؛ والرسالة القشيرية، **٥٣٧**.
(*-*٧) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

معَ الخَلْقِ جميلَ الخُلُق له صاحِبًا، ولم يتقيّد بمقامٍ أو حالٍ، فيكون في صنعة[١] بيعتِه خائبًا. فإذا عُلِم الفَرقُ بين الفريقَين تَبيّنَ الحُكمُ على الطريقين[٢].

ثمّ اعلَمُوا أنّه قد كثُرَ التشبُّه في وقتنا بالطائفتين (*وعن أربابِ*[٣]) البصائرِ في التمييزِ بين الجهتينِ:

فقومٌ حَكَوا[٤] منهمُ الأفعالَ في الصُّور، وبايَنُوهم في المعاني والأثَر، فتجرَّدُوا ٤٢و ظاهرًا إيهامًا[٥]، وتعلّقوا | باطنًا إحكامًا، فسَعَوا في تحصيلِ لذّاتِهم وشهواتِهم، وما تقيّدوا بأحكامِ الطريقِ في حرَكاتِهم وسَكَناتِهم، وأفسدوا مَن تعلّقَ بهم لإنالتِهم لطلباتِهم[٦].

وقومٌ نطقوا باللسانِ الخارجِ عنِ المصطلح، وقرّروا في الأذهانِ أنّ ذلك أكمل المعنى المُقترح، وصنّفوا على مقاصِدهم كُتبًا كثيرة خارجةً عن طريقِ القوم، داخلةً في طريق[٧] الذمِّ لمن تعاطاها واللَّوم، مُجانِبَةً لعقائدِ الإيمانِ الصحيحةِ، مُقدِّرةً[٨] لقواعدِ البُهتانِ الصريحةِ، مُحرِّرةً[٩] لمقاصدِ[١٠] البرهانِ القبيحة[١١]، قد بُنِيَتْ على قواعدَ تُلُقِّيَتْ بالتقليدِ، فوقعتْ بالنّقص[١٢] عن طلبِ المزيدِ، وأَوْهَمُوا أنّ ذلك عينُ المرادِ بين هذه الطائفة، (*وإنْ لم*[١٣]) يُفهم ذلك المصطلحُ، فإنّ

(١) س، التأييد: صفقة.
(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(*–*٣) التأييد: وغرار باب. وبعض النُّسَخِ، ومطبوعة الشيخ الغماري: غر أرباب. وهو تحريف للكلمة.
(٤) س، التأييد: حكموا.
(٥) في الأصل، س: اتهامًا.
(٦) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(٧) في الأصل، س: فريق.
(٨) التأييد، س: مقرِّرة.
(٩) في الأصل: محررًا.
(١٠) التأييد: لقواعد.
(١١) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٧.
(١٢) س: في النقص.
(*–*١٣) س، التأييد: وأنَّ مَن لم.

أذهانهم واقفةٌ، وعكفوا على عِلمِ الفلسفةِ تدوينًا، وسمَّوه بالتحقيقِ والإحاطةِ وَهْمًا وتخمينًا، لا عِلمًا ويقينًا، وعَدَلُوا عنِ اسم التصوُّفِ، وما حصَل لهم شيءٌ مِنَ التعرُّفِ[1]، وزَعَمُوا أنّه فوق عِلمِ التصوُّفِ | ٤٢ظ رُتبةً، وأنّ رُتَبَ[2] العارفِ خَمْسٌ: الفقيهُ، ثمّ المتكلّمُ، ثمّ الفيلسوفُ، ثمّ الصُّوفيُّ، ثمّ المُحقِّقُ الذي هو المُقرَّب. وهذا تحكُّمٌ في القِسمةِ ووَهْمٌ في الحِكمةِ.

والذي يقتضيه النظرُ الصحيح أنّ الرُّتَبَ أربعٌ[3]، والحِكمةُ في ذلك أنّ العبدَ أُمِرَ في هذه الدارِ بأنْ يَسعى لطلبِ سعادتِه بعبادتِه ومخالفة عادتِه كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١]، يعني: إلّا لأمرِ[4] بعبادتي، والعبادةُ إمّا أنْ تكونَ مقصورةً على نفسِه، كالإيمانِ والصومِ والصلاةِ مِنَ الأفعالِ البدنيّة والقلبيّة، وإمّا أن تكونَ متعدّيةً إلى غيرِه، كالأقوالِ المُعبِّرة عنِ العلوم المَدعُوِّ بها إلى الهدايةِ عنِ الضلالِ، والمَرجُوِّ منها الزيادةُ في النيّاتِ والأفعالِ.

والنظرُ في العلوم، إمّا أنْ يقعَ في التكاليفِ الظاهرة وهو المُسمّى بـ «عِلم الفقه» أو في ذات الله وصفاتِه، وهو المُسمّى بـ «عِلم الكلام»، أو في الموجودات من حيث التركيبُ والهيئةُ والعوارضُ اللاحقةُ | ٤٣و واللازمةُ لها، وما يصحُّ به تقويمُ المعاني مِنَ الألفاظِ، وهو المسمّى بـ «الفلسفةِ»، المُشتملةِ على المنطقِ والإلهيِّ والطبيعيّ والرياضيّ، أو في الِاعتبارِ في الموجوداتِ مِن حيثُ إتقانُ الصنعةِ وحسنُها، وإضافتُها إلى مُخترِعها ومُبدِعها، وقطعُ النظر عنِ التعلُّق بمحبّتِها، وتطهيرُ النفسِ وتزكيتُها، واعتبارُ أحكامِها الباطنةِ، وما يؤُول أمرُها إليه في الدارِ الآخرةِ، وإقامتُها على قَدَمِ الِاستقامةِ، والخُروجُ عنِ المطالباتِ البشريّة،

(١) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٨.

(٢) في الأصل: رتبة.

(٣) في الأصل: أربعة.

(٤) للأمر.

وتركُ المُرادات الجيِّدة والرَّدِيّة، والاِكتفاءُ في نفسِه وغيرِه بعِلم الله في الموجوداتِ والوقائعِ المُتجدِّداتِ. فهذا هو «عِلمُ التصوُّف»، وهو عِندهم في المصطلح اسمٌ للمُقرّب مِن جنابِ الربِّ، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطفّفين: ٢٨].

غير أنّ الصُّوفيَّ يترقّى في درجاتٍ وأطوارٍ ورُتَبٍ، فأعلى تلك الرُّتَبِ اسمُ المُقرَّب، فلا قِسمٌ خامسٌ كما يزعُمونَ[١]، (*فقد يَسِيرُ*[٢]) على قَدَمِ الإنصافِ، ويُشيرُ[٣] إلى ما يتميّز به صِنفٌ مِنَ الأصنافِ، | فالفقيهُ في حُكم الوهم[٤] عامل، ٤٣ظ وعنِ العمل بتَفَقُّد نقائض نفسِه غافلٌ، والمتكلّمُ لِنُعوت الإله واصلٌ، والدَّلالة على علّته[٥] ناقلٌ، والفيلسوفُ (*محصورُ النّظرِ*[٦]) فيما هو عنه زائلٌ، مقصورُ الفِكرِ على ما له فيه ضررٌ عاجل.

والصُّوفيُّ بولايةٍ[٧] على عقلِه عازلٌ، وهو مع المحاربةِ لنفسِه عن غيره في شُغلٍ شاغل، أَحكَم مِن عِلم الظاهرِ ما ينفعُه في دارٍ هو عليها نازلٌ، ومِن عِلم الباطن ما يصحبُه في موطنٍ يُفلِسُ فيه مَن له مِنَ الغِنى حاصلٌ، فعلى هذا ليس لعِلمِ التصوُّف في العلومِ مُماثلٌ، ونهايتُه لمن هو بطريقِه بصيرٌ كامل، هو اطِّراحُ العاداتِ ومخالفةُ الإراداتِ حتى يبقى بلا أيْنٍ، مع أنّ الحكمَ في الأينِ، فهذا القُربُ المَكِينُ، والمُمَكَّنُ الأمين، والمخصوصُ بالِاصطفاءِ والتمكينِ، والمضروبُ عليه سُرادقُ الِاعتناءِ به والتعيين، وهو الفاني عن رؤيةِ الأشياءِ

---

(١) س: زُعِمَ.

(*-*٢) س: فحينئذٍ نسير.

(٣) س: ونشير.

(٤) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٥) س: عظمته.

(*-*٦) س: محصورٌ للنظر.

(٧) س: بولاية الوهم.

بالمَشْي لها، والفاني في فَنائِه عن رؤية[١] فَنائِه، فيبقى بالله باقيًا، وهو | المحبوبُ الملحوظُ، والمَربُوبُ المحفوظُ. ٤٤و

قال ﷺ حكايةً عن ربِّه: «ما تَقرَّبَ إليَّ المُتقرِّبونَ بمِثل أداءِ ما افترضتُ عليهم، ولا يزالُ العبدُ يتقرّبُ إليَّ بالنوافلِ حتّى أُحِبَّه، فإذا أحببْتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبْصِر به، ويدَه التي يَبطِشُ بها، فلئن سألَني لَأُعطِيَنّه، ولَئِن دعاني لَأُجِيبَنّه»[٢].

فإذا عُلِمَ المصطلحُ في «الصُّوفيّ»، و«الفقير»[٣] فَلْنَشرَعْ فيما يتوجّبُ[٤] مِنَ الأدبِ على المريدِ الراغبِ في تحصيلِ المَزيدِ، فنقول:

اِعلَمُوا - شرَحَ اللهُ صُدورَكم للفهمِ والبيانِ، وسلَكَ بكم سبيلَ مَن ترقّى عنِ البرهانِ إلى العيانِ - أنّ هذه الطائفةَ تخصّصتْ عن غيرها بما مُنحتْ[٥] مِنَ المواهبِ السَّنيّة والآدابِ المَرعِيّة، وخُلِعَ عليها مِن خِلَعِ المطالعاتِ[٦] القلبيّةِ والمكاشفاتِ الغيبيّة، والملاحظاتِ المَرْضِيّةِ والأخلاقِ الرَّضيّةِ. والأدبُ مع الله بالآدابِ الشرعيّة هو الأصلُ في نَيْل المَراتبِ العَلِيّة.

قال ﷺ: | «أدّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»[٧]، وقال ﷺ: «تخلّقوا بأخلاقِ ٤٤ظ
الله»[٨]، أي اتّصِفُوا بصفاتِه، وقِفُوا عند فَهم كلماتِه.

---

(١) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٢) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٨.

(٣) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٤) ع، س: يتوجه.

(٥) س: منحته.

(٦) ع: الطاعات.

(٧) انظر: مجموع الفتاوى، ١٨: ٣٧٥.

(٨) لم أقف عليه.

فالتصوُّفُ كلُّه خُلُقٌ مُنتسِبٌ لأصلٍ شريفٍ، وطريقٌ مُوصلٌ لفضلٍ مُنيفٍ.

وسُئل أبو محمّدٍ الجريريّ عنِ التصوُّف، فقال: الدُّخولُ في كلِّ خُلُقٍ سَنيٍّ، والخروجُ من كلِّ خُلُقٍ دنيٍّ[١].

وقال أبو حفص الحدّادُ: حُسنُ أدبِ الظاهرِ عُنوانُ حُسنِ أدب[٢] الباطنِ؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: «لو خَشَعَ قلبُه لَخَشَعَتْ جَوارحُه»[٣].

وقد صنّف أئمّةُ هذه الطائفةِ في علومِهم وآدابِهم كُتبًا كثيرة، كالحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، وعَمرِو بنِ عثمانَ المَكّيّ، وأبي عبد الرحمن السُّلميّ، وأبي[*] القاسم القُشيريّ. ولو تَتَبَّعْنا المُصنِّفينَ أَكْثَرْنا.

وصنّف الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمي مُصنَّفًا في آدابهم[٤]. وكذلك شيخُ شَيخِنا ضياءُ الدين أبو النجيب السُّهرَوَرْديّ[٥] وغيرُهما. فمَن تطلّع إلى عِلمِ ذلك طلبَه مِن مَظَانِّه.

ونحن نُنَبِّهُ على طريقٍ يَقْرُب[٦] بها حصرُ الأدبِ لطالبِه، ونقول: جملةُ الأمرِ أنّ الأدبَ | على وَجهَينِ: قاصرٌ خاصٌّ بالمكلَّف، ومتعدٍّ إلى غيره. ٤٥و

أمّا القاصرُ، فتركُ المُحرَّماتِ وفِعْلُ المُستحبّاتِ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، كالذِّكْرِ والتِّلاوةِ والصلاةِ والصومِ، وكذلك النيّةُ الصالحةُ.

وأمّا المتعدّي، كالزكاةِ والصدَقةِ ولِينِ القولِ وبَذلِ المعروفِ للعامّ والخاصّ، وهدايةِ الطريقِ وطلاقةِ الوجه عند اللقاءِ، وغيرِ ذلك مِنَ الآثارِ الحسنةِ التي هي شُعَبُ الإسلامِ الواردةُ في حديث أبي هُريرةَ عن النبيّ ﷺ، قال: «الإيمانُ

---

(١) انظر: عوارف المعارف، ١:٢٠٣؛ وحلية الأولياء، ١:٢٢؛ وتاريخ دمشق، ٥٦:١١٩.

(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: س، العوارف.

(٣) انظر: عوارف المعارف، ١:٢٠٣.

(*) في الأصل: أبو

(٤) له كتابٌ يسمى: «آداب الصوفية». انظر: كشف الظنون، ١:٤٢؛ وهديّة العارفين، ٢:٦١.

(٥) له كتاب يسمّى: «آداب المُريدين في التصوّف والاختلاق». انظر: هديّة العارفين، ١:٦٠٧.

(٦) ع: تُقرّب.

بِضعٌ وسبعونَ شُعبةً، أعلاها: لا إله إلا اللهُ، وأدناها: إماطةُ الأذى عنِ الطريقِ. والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ»[١].

ثمّ اعلَمْ أنّ جُملةَ الأدبِ يندرج في آيةٍ مِنَ الكتابِ العزيزِ، وفي حديثٍ. أمّا الكتابُ، فقولُه تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأمّا الحديثُ ففي قوله ﷺ: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَن حَرَمَك، واعْفُ عمَّن | ظلَمكَ، وأَحسِنْ إلى مَن أساءَ إليكَ»[٢]. ٤٥ظ

فمَن تَخلَّقَ بهذه الصفاتِ فقد تحقّقَ في الِارتقاءِ إلى أعلى الدرجاتِ، ومَن لم يُوفَّقْ لشيءٍ مِن هذه الحالاتِ فهو مغرورٌ مِن جميعِ الجهاتِ. وبه[٣] تمّ المَقصِدُ الأوّل.

المَقصِدُ الثاني
في الحذر من الغُرور وما فيه من الشُّرور المظلمة
لما نار من الصدور

فنقولُ: اعلموا أنّ الغُرورَ قيدٌ[٤] مَلَكَ أزِمّةَ قلوبِ الخلائقِ، وسَلَكَ بهم إلى أوديةِ الهلاكِ؛ لكثرةِ العلائقِ، وعَدَلَ بهم عنِ الصراطِ السَّويّ إلى الجلوسِ على بساطِ شيطانِ الفِكرةِ الغَوِيّ، والمُغترّون فيهم كُثرٌ.

وأسبابُ الغرورِ كثيرةٌ، وأصلُ الغرورِ إهمالُ المحاسبةِ للنفسِ، وإرخاءُ رَسَنِ الغفلةِ لها حتّى لا تُميِّزَ بينَ أفعالِها، إلّا أنّا نذكُر مِنَ المُغترّينَ أربعةَ أصنافٍ: العلماء، والعُبّاد، والمتصوّفة، والأغنياء.

(١) انظر: صحيح مسلم، ٣٥؛ وصحيح ابن حبّان، ١٦٦؛ وسنن الترمذي، ٢٦١٤.

(٢) انظر: شعب الإيمان، ٧٩٥٧؛ والترغيب والترهيب، ٣٨١٦؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٨٥٢٩.

(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) س: قد.

الصنف الأوّل

العلماء

وهُم أعظمُ الناسِ غُرورًا، إذ غُرورُهم في أنفُسِهم تعدّى لغرورِ غيرِهِم
٤٦و بهم، فإنّهُمُ القدوةُ في الدِّينِ، وعليهِمُ | العُمْدَةُ للمقلِّدين، فمَن أحكَم منهم عِلمَ الظاهرِ وترقّى إلى درجةِ الدروس[1] والفتوى، يظنُّ أنّه حصلَ في المنزلِ الأعلى، فيحتقرُ العَوَامَّ، ويُهمِلُ تفقُّدَ جوارحِه: مِنَ العينِ عنِ الامتدادِ لِمَا لا يَحلُّ لهُ، واللسانِ عنِ الكَفِّ عنِ النُّطقِ فيما لا يعني، والقلبِ عنِ الفِكَرِ الرَّدِيّةِ مِنَ الحسدِ والكِبْرِ والعُجْبِ[2] والرِّياءِ وغيرِ ذلك. ويظنُّ أنْ لا عِلْمَ إلّا ما هُو به مشغولٌ مِنَ الأقوالِ، ولو وُفِّقَ لَعَلِمَ أنّ وراءَ مَا هو فيه مِنَ العِلمِ النافعِ ما يتعيّنُ عليه طلبُه. فَلْيَحْذَرِ الغافلُ مِن هذا الوصفِ.

الصنف الثاني

المتعبّدون

وغرورُهم يتنوّع بين صلاةٍ وذِكرٍ وتلاوةٍ وحَجٍّ واعتمارٍ وجهادٍ وزُهدٍ ووصالٍ، واقتصارٍ على نوعٍ واحدٍ مِنَ الغِذاءِ، أو تركِ الخبزِ والمأكلِ ... ذلك يَدخلُه العِلَلُ، ويَصْحَبُه الغُرورُ إلّا مَن عَصَمَهُ اللهُ، ويَدخُلُ عليهِمُ الغُرورُ أيضًا في إهمالِ الفرائضِ وإعمالِ الفضائلِ والنوافلِ، فيُسقِطُوا[3] واجبًا بمُستَحَبٍّ،
٤٦ظ كالإسرافِ في | استعمالِ الماءِ في الطهارةِ، والوَسْوَاسِ في الصلاةِ، وتكريرِ الفاتحةِ فيها، والتظاهُرِ بالخشوعِ والخَشيةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ ... وغير ذلك ممّا يُكْرَهُ أو يَحرُم شرعًا ممّا تَتبُّعُه يطُولُ.

---

(١) ع، س: التدريس.

(٢) س: والفخر.

(٣) س: فيسقطه.

الصنف الثالث

المتصوّفة

وفي مَعناهُمُ الفقراءُ، ولا سِيّما في هذا العصرِ الذي عُدِم في أهلِه التميزُ بين (*الحقِّ والباطلِ*١)، والمُخلِصِ والمُرائي، والصادقِ والكاذبِ؛ لاستيلاءِ الغفلةِ على عقولِهم وقلوبِهم. تشبّهوا بالقومِ في الزِّيّ والصُّورِ، وخالَفُوهُم في المعاني والسِّيرِ، وشارَكُوهم في (*أشياءَ، وهي*٢): المَنطِقُ، والمصطلحُ، والرقصُ، والسماعُ، والأدبُ في الدخولِ والخروجِ، والجلوسُ على السَّجّادةِ بإطراقٍ وغَضٍّ بَصَرٍ، وإدخالِ رأسٍ في جَيبٍ كأنَّه مُتفكِّرٌ، وتَنَفُّسِ الصُّعداءِ وخَفْضِ الصوتِ ... وغير ذلك(٣).

وتميّزوا بمُراعاةِ حُظوظِ أنفُسِهم، ومُتابعةِ أهْوِيَتِهم، وتَركِ المُجاهدةِ لها بالمُراقبةِ والمُحاسَبةِ، وتطهيرِها | مِنَ الأخلاقِ الذميمةِ، والنقائصِ المُقيمةِ، وظنُّوا ٤٧و ملاحظة ظواهرِهم على طريقِ الجادّةِ، وما أقلَعوا عن ذميمِ العادةِ. وهيهات ما وصَلُوا بما فعَلُوا إلّا لما أملوا من صيتٍ مرتفعٍ في محفلٍ مجتمعٍ، أو خُلُقٍ منطبعٍ في تخلُّقٍ منقطعٍ.

وأمّا المُخلِصُ الصادقُ، والمتخصّصُ الحاذقُ، فإنّه يعملُ على ما أخبر اللهُ تعالى عنه به، بقول الحقّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فالإخلاصُ في أعمالِ العاداتِ والعباداتِ مطلوبٌ مِنَ العبادِ في تَغايُرِ الحالاتِ، ومَدارُ القَبُول على تصحيحِ الطَّوِيّاتِ، وتخليصِ المقاصدِ والنيّاتِ، فقد تصيرُ العادةُ بالنيّةِ عِبادةً، كالخارجِ إلى السُّوقِ لبيعٍ أو شَرْيٍ يَنْوِي بمشيه الاستعانةَ على تمشيةِ وقتِه، وكَفَافَ وجهِه عنِ الابتذالِ إلى الخَلقِ، وكذلك الداخلُ لِلخَلَاءِ، يَنْوِي بدخولِه إزالةَ الأذى، لِيَفرُغَ خاطِرُه لعبادةِ اللهِ

(*-*١) ع: المحق والمبطل.

(*-*٢) لا يوجد في: ع، س.

(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٩.

٤٧ظ سبحانه وتعالى، وكذلك النِكاحُ، يَنوي غَضَّ البَصرِ وقَمْعَ | الشهوةِ، فتصيرُ الأفعالُ المُباحاتُ[1] بالنيّاتِ مندوبةً، فيترتّب بذلك الثوابُ على ما لا ثوابَ فيه مِنَ المُباحِ. ومِن طريقِ القومِ أنّ لهم في كلّ عملٍ نِيّةً، لتكُونَ قُلوبُهم - أبدًا - حاضرةً فيما يتعلّق[2] مِنَ الأفعالِ والأقوالِ، حتى يبقى ذلك عادةً لهم، فتتمرّنُ النفسُ على ذلك، فلا تطغَى ولا تَغفُل ولا تسهُو. فإذا كان الإخلاصُ مطلوبًا تعيّنَ على العاقلِ الاجتهادُ في تحصينِ عملِه مِنَ[3] المُفسِداتِ.

قال بعضُ المحقّقينَ: إنّ حقًّا على العبدِ أنْ يتحفّظ في العملِ مِن عشَرةِ أشياءَ: النِّفاق، والرِّياء، والتخليط، والمَنِّ، والأذى، والندامة، والعُجْب، والحسرة، والتهاون، وخوف ملامةِ الناسِ.

فَضِدُّ النِّفاقِ والرياء: الإخلاص. إلّا أنّ النّفاقَ فيما بين العبدِ وبين اللهِ في صحّةِ المُعتقَدِ وفسادِه، والرياءَ لأجْلِ الناس، كما قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

وضِدُّ التخليط: التفريطُ[4]، وضدُّ المَنِّ: تسليمُ العملِ لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، (*وضِدُّ الأذى: تحصينُ العملِ، وضِدُّ النّدامةِ: تثبيتُ النّفسِ، وضدُّ العُجْب: ذِكْرُ المِنّة*[5])، وضدُّ الحَسرةِ: اغتنامُ الخير، وضدُّ التّهاونِ: تعظيمُ التّوفيق، وضدُّ خوفِ المَلامةِ: الخَشْيَةُ.

فإذا تحصّنَ عَمَلُه عَن هذه المفاسد أثمَرَ أصلُه، وظهَرَ فضلُه، وإنما يُنتِجُ العملُ إذا كان عاريًا عن لباسِ المُفسِدات، جاريًا على قوانين تصحيح المعاملات. واللهُ المُوفِّقُ.

---

(١) س: المباحة.

(٢) ع، س: يعانون.

(٣) ع: عن.

(٤) س: التفريد.

(*-*٥) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

الصنف الرابع

الأغنياء

حُجِبوا بما هُم فيه مِنَ الغِنى عن إدراكِ المُنَى، ووقَعُوا في الغُرورِ من وَجهَينِ: بذلٍ وإمساكٍ.

الوجه الأول

الإنفاق

فطائفةٌ أنفقوا[١] أموالَها في وُجوهِ البِرِّ: بناءِ المساجدِ والمدارسِ والرُّبُطِ والقناطرِ والسِّقاياتِ وما يظهر وجودُه للعامّ والخاصّ، وكُتبتْ[٢] أسماؤهم لتخليدِ ذِكْرهِم وتجديدِ اسمِهم وإبقاءِ رسمِهم، ظنًّا أنّ الغفرانَ يترتّب على هذا الفعل، وهُم في ذلك مُغترُّون؛ لِوَجهَيْنِ:

أحدهما: ظنُّ الإخلاصِ في الإنفاقِ، وهم مخطئون؛ فإنّه لو قيل لواحدٍ منهم لا تكتُبِ اسمَك على هذا المكان، | لَمَا هانَ عليه ولا قَبِلَ، فلو كانت إرادتُه ٤٨ظ اللهَ خالصًا لَمَا توقّفَ عن ذلك.

الثاني: أنهم بَنَوها من أموالٍ أُصولُها مِنَ الشُّبَهِ والمُكُوسِ والرِّشَى والظُّلمِ وغير ذلك. فهم يتعرّضون[٣] لسخَطِ الله بما اكتسبوه وقصدوا إسقاطَه بما أنفقوه، وليس الأمرُ كما توهّمُوه، وكان الواجبُ عليهِمُ التوبةَ وردَّ المَظالمِ لمُلاّكِها إنْ كانت باقيةً، أو عِوَضِها إنْ كانت تالفةً، وإنْ مات المُلاّكُ ردُّوها إلى الورَثةِ، وإنْ تعذّر الوارثُ توجّه صَرْفُها إلى أهمّ المصالح، وأهمُّها سدُّ خُلّةِ المُحتاجينَ مِنَ الفقراءِ والمساكين، ولو شُرِحَ لهم هذا الوجهُ ما قَبِلُوه، أو بُيِّنَ هذا الطريقُ ما سلَكُوه.

---

(١) ع، س: أنفقت.

(٢) في الأصل: وكتابة، والمثبت من: ع.

(٣) في الأصل: معترضون، س: متعرّضون، والمثبت من: ع.

هذا إنْ سلِمَتْ مقاصِدُهم عن الرِّياءِ والسُّمْعة وقَصدِ التشبُّه لمن سبقَهم إلى هذا الأمر.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، أي: المُجتنِبينَ ما يُخْرِجُ العملَ عن كونِه طاعةً، مِن شِرْكٍ أو رِياءٍ، وغيرِ ذلك مِنَ الوجوهِ | المأمورِ باجتنابِها. ٤٩و

الوجه الثاني

الإمساك

اِعلَمْ أنّ الاِقتصادَ في الإنفاقِ مِن أكملِ مكارمِ الأخلاقِ، وليس المرادُ في الاقتصادِ إلّا وضعَ الشيءِ في مُستحقِّه.

فالاِمتناعُ عنِ الخروجِ مِنَ الحقوقِ الواجبةِ في الأموالِ مُوجِبٌ للتعرُّضِ في[1] العقابِ والوبالِ، وذلك يقعُ بأنواعٍ:

النوع الأول

أنّ كثيرًا من المُتربّينَ[2] يشتغل بكثرة الصومِ والصلاة والذِّكر والتِّلاوة، وهو لا يسهُلُ عليه أنْ يُنفِقَ فلسًا في وجوهِ البِرِّ، ولا يؤدّي ما وجب عليه مِن ذلك، ولم يعمل على قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

رُوِيَ أنّ بِشْرَ بنَ الحارثِ الحافي قيل له: إنّ فلانًا – الغنيَّ – كثيرُ الصومِ والصلاةِ. فقال: المِسكينُ! ترَك حالَه ودخل في حالِ غيرِه، إنما حالُ هذا إطعامُ

---

(١) قوله: «للتعرض في» محمول على معنى: للوقوع في. وباب الحمل على المعنى باب فسيح في العربية. انظر: الخصائص، لابن جنّي، ٢: ٤١١.

(٢) ع: المؤثرين، س: الخلق.

الطعامِ للجائعِ، والإنفاقُ على المساكين، وهذا أفضلُ له مِن (*تجويعِه لنفسِه*١)، ومِن صَلاتِه لنفسِه مع جَمعِه الدنيا ومَنْعِه الفقراءَ.

النوع الثاني

| أنّ فرقةً استولى عليها البُخْلُ، فلا تسمحُ أنْ تُخْرِجَ إلّا بقدرِ الزكاةِ، ٤٩ظ
وهي كارهةٌ لذلك، فلا تُخرجُه إلّا من رَدِيء ما عِندَها، وتُعطِيهِ لِعلّةٍ، مِن متردّدٍ لخدمةٍ وتعظيمٍ، أو تألُّفٍ لقلبٍ نافرٍ، أو تُعطي القَدْرَ الواجبَ إلى رجلٍ مِن مشايخِ الفقراء، مشهورٍ بين الناسِ تَكتسبُ عنده جاهًا ومنزلةً، ويشهدُ لها بأنّها مِن أَهلِ الخيرِ تُخْرِجُ الزكاة، وهذا مَقتٌ كبيرٌ، وفُجورٌ ظاهرٌ، إذ قَصَدَ بعملِه عِوَضًا، ولم يتمحّض فِعله لله وحدَه، فقد تعرّض لبطلانِ عملِه.

النوع الثالث

أنْ يتبرّعَ بكثرةِ الإنفاقِ والإحسانِ إلى المحتاجينَ، وعليه زَكَوَاتٌ في ذِمّته مترتّبةٌ قد أهملَ أمرَها، وأضاعَ قَدْرَها، ويَعتقدُ أنّ ما يفعلُه مِن ذلك مُسقِطٌ لِما تَوجّب[٢] عليه منها، وليس كما زَعَمَ، بل هو مأمورٌ بالخروجِ عن عُهدة ما وجَب عليه مِن ذلك، فإنْ تبرَّعَ بعد ذلك بشيءٍ وقع الاعتدادُ له به، وإلّا فذِمّتُه مشغولةٌ أبدًا. واللهُ المُوفِّق. | فهذا ما يتعلّق بغُرور الخواصّ. ٥٠و

وأمّا ما يعمُّ جميعَ[٣] الخَلْقِ مِنَ الغُرورِ فهو حُضورُ المياعيدِ[٤]، ومجالسِ الذِّكْرِ، وسماعُ القرآنِ والوعظِ، وغيرُ ذلك.

(*-*١) س: تجويع نفسه.
(٢) ع، س: وجب.
(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٤) ع، س: المواعيد.

فتوهّموا أنّ ذلك يَكفِيهم ويَنفعُهم ويُغنِيهم، ويَجعلونه[١] عادةً، ويَزعُمون أنّ في سماعِ ذلك أجرًا ومَثُوبةً، وهُم في ذلك مُخطِئون مُغترُّون، فإنّ فَضْلَ تلك الأذكارِ بتلك الأمكنة إنّما كان لِما فيها مِنَ الترغيبِ والترهيبِ، والتأديبِ والتهذيبِ، فإذا لم يُؤثِّرْ ولم يُزعِجِ الهِمّةَ وتتحرّكِ الرغبةُ في الإقلاعِ، فلا ثمرةَ تحصُل منها، بل يزدادُ مُستمِعُها إثمًا؛ لأنّه يتجدّدُ عِنده عِلْمٌ فأهملَه وأضاعَه، وحقٌّ عليه أنْ يُصغِيَ لمقالِه[٢]، وأنْ يعملَ بمقتضى ما رُسِمَ له على الوضع الذي وُصِفَ له.

وبهذا تمّ الكلامُ في المُغترّين؛ فمَن سَلِمَ في أعمالِه مِنَ الغُرورِ، فقد كُسِيَ حُلَلَ الأُنْسِ والحُبُورِ، وأُقْعِدَ على موائدِ السُّرورِ، ووردَ[٣] على مواردِ القُدسِ إلى يوم النُّشورِ.

المقصد الثالث

فيما يَصُدُّ عنِ | الوصولِ، ويرُدّ العملَ عن القَبول ٥٠ظ

اِعْلَمُوا - وَفّقَكُمُ اللهُ - أنّ السالِكينَ في سَيْرِهم لا بدّ لهم مِن موانعَ تصدُّهم، ووقائعَ تَهدُّهم وتَكدُّهم، وما لم يأخذوا بالجِدِّ فيما يرُومون مِنَ القصدِ، حُرِمُوا الوصولَ وضَيّعوا المحصولَ، وكلُّ سالكٍ فلا بدّ أنْ تعترضَ له عقباتٌ يفتقرُ إلى قطعِها، وطرقاتٌ تحُولُ بينَه وبين ما يُريد لنفسِه مِن صلاحِها ونفعِها، والعقبةُ كلُّ ما يعترض فيَحُولُ عنِ الاتّصالِ بالمقصودِ. قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣].

---

(١) في الأصل: يجعلوه، وفي س: وجعلوه.

(٢) ع، س: للمقال.

(٣) في الأصل، ع: وردّد.

ورَوَيْنا من حديثِ أبي الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ بينَ أيدِيكم عقبةً كَؤُودًا، لا ينجُو فيها إلّا كلُّ مُخفٍّ» أخرجه البزّار[1].

والذي يفتقرُ السالكُ إلى قطعِه مِن ذلك سبعُ عقباتٍ: عقبةُ العلْمِ، والتوبةِ، والعوائقِ، والعوارضِ، والبواعثِ، والقوادحِ، والحمدِ، والشُّكرِ.

العقبة الأولى

العلم

وقد تقدّم الكلامُ فيه في الطَّرفِ الأوّل[2] وتقسيمُه | إلى: ظاهرٍ وباطنٍ. ولا ٥١و غِنًى بالمتوجّه عنهما. فإنْ لم يَسَعْ[3] وقتُه ذلك سألَ عن أمرِ دينِه، ولا يستبدّ بما يخطُر له في ذلك، فإنّه يخرجُ به عن طريق الاِستقامة.

العقبة الثانية

التوبة

وهي فرضٌ على العبدِ في جميعِ الأوقاتِ، لا تتقيّدُ بزمنٍ معيّنٍ. قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. ورُويَ عنِ ابن مسعودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الندمُ توبةٌ»[4].

وللتوبةِ أربعةُ شروطٍ:

أحدُها: تركُ ما كان قد لابَسَ مِنَ الذنبِ ندمًا واختيارًا. وثانِيها: أنْ يسبقَ منه مِثلُ ما تابَ عنه، عازمًا على تركِ العَوْدِ إليه، مَخافةً واعتذارًا. وثالثُها:

---

(١) انظر: مسند البزّار، ٤١١٨.

(٢) انظر فيما تقدم ص ٦٤.

(٣) ع: يتسع.

(٤) انظر: المستدرك على الصحيحين، ٧٦١٢؛ وصحيح ابن حبّان، ٦١٢.

اشتراكُ السابقِ واللاحقِ في حكمِ الإثم لا في الصُّورةِ والقُدرةِ على الفعلِ، إخفاءً وإظهارًا. ورابعُها: الصدقُ في الاختيارِ للتوبةِ تعظيمًا لله، لا لغرضٍ عاجلٍ أو آجلٍ، جَهْرًا أو إسرارًا.

العقبة الثالثة
عقبة العوائق

وهي أربعة:

أوّلُها: الدنيا

٥١ظ وقطعُها بالتجرُّدِ والزُّهد؛ لأنّ الرغبةَ | في الجَمعِ والمنعِ تُوجبُ شَغْلَ الظاهرِ بالكَدِّ وشغلَ الباطنِ بالفِكرِ، ولا يحصُل مع ذلك توجُّهٌ إلى الله تعالى، ويكفي العاقلَ منها ما وصفَه اللهُ به مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ورُوِيَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّه قال: زاولتُ بين العبادةِ والتجارةِ فلم يَجتمعا، فأقبلتُ على العبادةِ وتركتُ التّجارة[١]. ولقد أحسنَ مَن بقولِه (*تلينُ الجبالُ*٢):

[الخفيف]

إنمــا هــذه الحــيــاةُ مــتــاعٌ فالسفيهُ الجَهُولُ مَن يَصطفِيها
مـا مضَى فـاتَ والمُـؤمَّـلُ غيبٌ ولـك الساعةُ التي أنـت فيـها[٣]

(١) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٤٦٠٩؛ والزهد، لهنّاد، ٦٦٠.

(*-*٢) ع، س: لحال الدنيا قد بيّن.

(٣) البيتان منسوبان إلى إبراهيم بن عثمان الغزي. وهما في تاريخ دمشق، ٧:٥٣ برواية: الغبي الغبي من يصطفيها. والمنتظَم، ١٠:١٦ برواية: والسفيه الغويّ من يصطفيها.

وثانيها: الخَلْق

اعلموا أنّ مُعاشَرةَ الخَلْقِ قاطِعٌ عظيمٌ عنِ الوصولِ إلى الله، والتزامَ العُزْلةِ أعظمُ أسبابِ الوَصْلةِ، ولا سيّما في زمنِنا هذا، وقد حثّ النبيُّ ﷺ عليها، ومَن أرادَ الحكمةَ فعليهِ بها.

رَوَيْنا عن عبدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنه قال: بينما نحنُ حولَ رسولِ الله ﷺ إذ ذَكَرَ | الفتنةَ، فقال: «إذا رأيتُمُ الناسَ مَرِجتْ عهودُهم، وخفّتْ[1] ٥٢و أماناتُهم، وكانوا هكذا» وشبّكَ بين أصابعِه. قلتُ: ما أصنعُ عند ذلك، جَعَلَني اللهُ فِداكَ؟ قال: «اِلْزَمْ بيتَكَ وأَمْسِكْ[2] عليكَ لِسانَكَ، وخُذْ ما تَعرِفُ، ودَعْ ما تُنكِرُ، وعليك بأمرِ الخاصّةِ، ودَعْ عنكَ أمرَ العامّة»[3].

وثالثها: الشيطانُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠]، ومعنى عبادتِهم له طاعتُهم لِما يُلقِيه إليهم مِن عبادةِ غيرِ الله سبحانه، وإلقاء العداوةِ والشحناءِ بعد الأُلْفةِ والمحبّةِ، كلُّ ذلك طاعةٌ له ومُوافَقةٌ. وسُمّي[4] فِعلُهم عِبادةً؛ لأنّ الطاعةَ تستلزمُ العبادةَ مِن وجهٍ، وإنما وجبَ عُدوانُه[5] ومحاربتُه لِوجهَيْن:

أحدهما: الإياسُ عن مُصالحتِه والمُعاندة منه في بُعْدِ مراجعتِه. فيتعيّن الحذرُ منه والاِحتماءُ عنه.

(١) ع: وخانت.

(٢) س: واملُك.

(٣) انظر: سنن أبي داود، ٤٣٤٣؛ والترغيب والترهيب، ٤١٥٠.

(٤) س: وسيّما.

(٥) ع، س: عداوته.

وثانيهما: أنّه مجبولٌ على العداوةِ؛ لأنّه مُسلَّطٌ على ابنِ آدمَ، بما[١] أثبتَ اللهُ له مِنَ الولايةِ عليه بقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٦٤]، فمَن كانت سُلطتُه بهذه الحالةِ مِنَ القوّةِ فواجبٌ على العاقلِ الاحترازُ منه لكلّ وجهٍ، والأخذُ في صدرِه عن أذاهُ بكلِّ حيلةٍ. ولِدَفعِه طريقانِ:

٥٢ظ أحدُهما: كثرةُ الاستعاذةِ من شرِّه، | كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وثانيهما: المجاهدةُ والمقاومةُ له بالمُخالَفةِ، والجمعُ بينهما آكَدُ في الدَّفعِ له، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[العنكبوت: ٦٩].

فإذا استعاذَ وجاهدَ خَسِئ[٢] شيطانُه، وقَوِيَ بُرهانُه، وزال عنه ضَررُه[٣] وبُهتانُه، واللهُ أعلمُ.

ورابعها: النَّفْسُ

٥٣و اِعلَمْ أنّ النفسَ | أصلُ البلوى في الوَرَى، ومَعدِنُ الهوى في اعتبارِ ذوي النُّهَى، وهي أعظمُ الأعداءِ ضَرَرًا، وأتمُّها في تفويتِ المقاصدِ أثَرًا، وعلاجُها أشقُّ علاجٍ، ومزاجُها أسوأ مزاجٍ. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقد ورد فيما نُقِلَ مِنَ الحديثِ: «أعدَى عدُوِّك نفسُكَ التي بين جَنْبَيْكَ».

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) س: خشِيَ.
(٣) ع، س: ضرره.

ولله دَرُّ القائلِ: (*وهو العبّاس بن الأحنف*[١])

[السريع]

نفسِي إلى ما ضَرَّني داعِي ... تُكثِرُ[٢] أسقامِي وأوجاعي
كيف احتيالي (*يا عَذُولي*[٣]) إذا ... كان عدُوّي بين أضلاعي؟!

والِاحترازُ منها صعبٌ شديدٌ؛ لوجهَين:

أحدُهما: اتّصالُها وملازمتُها، فهي كاللصِّ داخل البيتِ لا غَلَقَ يَحُولُ بينه وبين مَقصِدِه، فتعسُر الحيلةُ في دَفعِه.

وثانيهما: أنّها عدوٌّ محبوبٌ مألوفُ المُعاشَرةِ، وعينُ الإنسان أبدًا تَعْمَى عن عُيوبِ المألوفِ له المحبوبِ عِندَه.

٥٣ظ كما أنشدني والدِي أبو العبّاس أحمدُ بنُ عليٍّ | القسطلانيُّ - بمكّةَ المُشرَّفةِ - لبعضِهم:

[الطويل]

ولستَ بِراءٍ عيبَ ذا[٤] الوُدِّ كُلَّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضِيَا
فعينُ الرِّضَى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَساوِيَا[٥]

وأعظمُ الاستعانةِ عليها بالمُخالَفةِ لها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ

(*-*١) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(٢) س: بكثر.
(*-*٣) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(٤) كذا في الأصل. وفي المصادر: ذي.
(٥) البيت الأول من أشعار عبد الله بن معاوية، والبيت الثاني من أشعار إبراهيم الطباطبائي.

مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧–٩]، أي طهّرَها مِن خواطِرها الذميمة وأفعالِها الدنيئة الخَسِيسة(١)، «وقد خاب» أي: خَسِرَ وحُرِمَ الخيرَ، «مَن دسّاها» أي: تابَعَها على أغراضِها ومَقاصِدها الرذلةِ القبيحة. وعِلاجُها بالمُجاهدةِ لها، وتركِ الِامتثالِ(٢) لأمرِها، واستعمالِ الاسترسالِ في مقاصدِها، فقد ورد عن النبيّ ﷺ ٥٤و | قال: «رَجَعْنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ»(٣). وإنّما سمّاه «الأكبرَ»؛ لأنّه يتكرّر فيتكثّر فيها تعدُّد الفِكَرِ، وذلك مِن أعظمِ الخطرِ. ومُداواةُ مرضِ النفسِ بثلاثةِ أشياءَ:

أحدُها: منعُها عنِ المراداتِ مِن مَضارِّ الشهوات. والثاني: دفعُها إلى (*جميلِ أفعالِ*٤) العبادات. وثالثُها: التضرُّع إلى اللهِ في أمرِها بإدامةِ الإعانات.

قال أحمدُ بنُ سهلٍ: أعداؤك أربعةٌ: النفسُ والهوى والدُّنيا والشيطانُ. فأمّا سلاحُ النفسِ فالشِّبَعُ وسِجنُها الجوعُ، وسِلاحُ الهوى الكلامُ وسِجنُه الصمتُ، وسلاحُ الدنيا مجالسةُ الناسِ وسِجنُها الخَلْوةُ، وسلاحُ الشيطانِ الغفلةُ وسِجنُه الذِّكْرُ.

وأنشَدَنا(٥) في ذلك:

[الكامل]

إنّـي بُلِيتُ بـأربعٍ ما سُـلِّطُوا ... إلّا لِفَـرْطِ شقائي وعنائي(٦):

إبليسَ والدُّنيا ونفسِي والهوى ... كيفَ الخلاصُ وكلُّهُم أعدائي؟!

---

(١) لا توجد في: س.

(٢) ع، س: الاهمال.

(٣) انظر: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ١١٢٦٠؛ وجامع العلوم والحكم، ١٩٦. وإسناده ضعيف.

(*–*٤) ع، س: حمل أثقال.

(٥) س: وأنشدوا.

(٦) س: عنادي.

والكلامُ في شأنِهَا يطولُ، وقد تقدّم الأولُ[١] في نفي النّقائصِ | وإثباتِ ٥٤ظ الكمالِ بما فيه كفايةٌ[٢].

وطُرقُ رياضةِ النفسِ كثيرةٌ، وأشَقُّها عليها إلزامُها الأدبَ، بحيثُ لا تتحرّكُ في حالٍ مِن أحوالها إلّا بِنيّةٍ مُخلِصةٍ، وطَويّةٍ مخلطةٍ عنِ الحظوظِ النفسانيّة، وإنما يتأتّى لها ذلك بالُموافقةِ والُمحاسَبةِ لا بالمرافقةِ والمصاحبةِ، فذلك هو أقربُ الطُّرقِ الُموصلة إلى السلامةِ.

وقد تقدّم النّاسُ قَبْلَنا في التصنيفِ في عُيوبها ومُعَانَاتِها[٣] فأكثَرُوا، فمَن أرادَ الاِطّلاعَ عليه عَرَّجَ النظرَ إليه.

وأقلُّ ما يلزم الُمكلّفَ في مُعاناتها: التقوى

وقد تكرّر ذِكْرُها في الكتابِ العزيزِ في غير آيةٍ عُمومًا وخُصوصًا، قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ الزمَر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، آل عمران: ١٠٢، المائدة: ٣٥، التوبة: ١١٩، الأحزاب: ٧٠، الحديد: ٢٨، الحشر: ١٨]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

فأصلُ التقوى: مجانبةُ المَنهِيِّ عنه، حَرَامًا كان أو مكروهًا. ومِن جملةِ المَنهِيِّ عنه الشُّرورُ، وهي نوعانِ: أصلٌ وفرعٌ.

أمّا الأصلُ: فالمحرّمُ مِنَ الأفعالِ | ، الكبائرِ والصغائر. وأمّا الفرعُ: فالمَنهيُّ ٥٥و عنه تأديبًا، كتركِ فضولِ[٤] الشّهواتِ مِنَ الحلالِ. فالأوّل: تقوى فَرْضٍ. والثاني: تقوى فَضْلٍ. فإنْ جَمَعَ بينهما استكملَ التقوى، وترقّى إلى الوَرَعِ الذي هو مِلاكُ الدينِ، وإنِ اقتنعَ بالفَرْضِ منهما حصل على الدرجة الأُولى.

---

(١) ع، س: القول.

(٢) انظر فيما سبق ص ٧١، ص ٧٣.

(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

قال ابنُ عطاء: للتقوى ظاهرٌ وباطنٌ. فظاهرهُ محافظةُ الحدودِ. وباطنُه النيّةُ والإخلاصُ.

فلِلتقوى أصلانِ: ظاهرٌ وباطنٌ.

الأصل الأول
الظاهر

وهو الجوارحُ السبعُ التي هي: العينُ والأذنُ واللسانُ والبطنُ واليدُ والرِّجلُ والفَرْجُ.

الجارحة الأولى
العين

مبدأ كلِّ آفةٍ إرسالُ النظرِ في مستحسَنِ صُوَرِ البشرِ، فمَن غَضَّ بصرَه فقد أَمِنَ مِنَ الفتنةِ، وسكَنَ عن حركةِ المحبّةِ. قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، فاشتملتِ الآيةُ على:

تأديبٍ بقوله: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عنِ الامتدادِ | إلى ما لا يحلُّ. ٥٥ظ

وتنبيهٍ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾، أي أطهرُ لقلوبِهم، (*أو أَنمى*١) لها في فعلِ الخيرِ. والزكاةُ في اللغةِ تُطلقُ على المَعْنَيَيْن.

وتهديدٍ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ مِنَ الامتثال والمخالفةِ، فاحذروا مُخالفتَه.

(*–*١) س: وأنمى.

ورُوِيَ عن عيسى – صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليه – أنّه قال: «إيّاكُم والنظرةَ؛ فإنّها تَزرعُ في القلبِ الشهوةَ، وكفى بها لصاحِبِها فِتنةً»[1]. وأنشدني والدِي أحمدُ بنُ عليٍّ، رحمه الله، بمكّةَ المُشرّفةِ لبعضِهم[2]:

[الطويل]

وأنتَ إذا أرسلتَ طرفَكَ رائدًا　　لقلبِكَ يومًا أعقبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلَّه أنتَ قادرٌ　　عليه، ولا عن بعضِه أنت صابرُ

فَلْيَجتهدْ عن[3] غضٍّ بصرِه عمّا لا يَحلّ له النظرُ إليه، فإنّه يَجني ثمرةَ ذلك مِنَ الله حُسنَ الإقبالِ عليه، فمَنْ أرسل طَرْفَهُ فقد جَنَى حَتْفَه.

الجارحة الثانية ٥٦و

| الأذُن

فَلْيَصُنْ سَمْعَهُ عنِ الإصغاءِ لِما قَبُحَ مِنَ المقالِ، فإنّه يحصُل على غايةِ السعادةِ في المآلِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفائدةُ الصيانةِ وجهانِ: أحدُهما: أنّ الاستماعَ يَشغلُ الخاطرَ، ويُهيِّجُ وساوسَ الفِكَرِ، ويُثيرُ العداوةَ والشُّرورَ. وثانيهما: أنّه يُكسِبُ الآثامَ؛ فقد رُوي أنّ المُستمِعَ شريكُ القائلِ.

وأنشد في ذلك:

(١) انظر: الزهد الكبير، للبيهقي، ٣٨٤؛ والزهد وصفةُ الزاهدين، ١٣٦.

(٢) ينسبان إلى أعرابية في قصة مع أبي الغصن الأعرابي، وهما في «المجالسة وجواهر العلم» لأبي بكر الدينوري، ٦٩٩؛ وعيون الأخبار، ٢:٢٢.

(٣) س: في.

[المتقارب]

تَـحَـرَّ مِـنَ الـطُّـرْق أوسَـاطَـهـا وعُــدْ عَــنِ الجـانـبِ المُشـتـبِهْ
وسَمْعَكَ صُنْ عنْ سَماعِ القبيحِ كصَونِ اللسانِ عنِ النُّطقِ بِهْ
فإنّك عند استماع القبيحِ شريكٌ لقائلِه فانتبِهْ

الجارحة الثالثة
اللسان

حِفظُ اللسانِ (*يُريحُ الإنسانَ*[١])، فَلْيُقيِّدْهُ عنِ النّطقِ إلّا بالصواب، ولْيَضْبِطْهُ عنِ الكلامِ إلّا بما يعنيه في السؤال والجواب، فإنّه يجني بذلك الزُّلفى في دارِ المآبِ. قال ﷺ: «أمْسِكْ عليكَ لسانَكَ»[٢]، وقال ﷺ: «هل يَكُبُّ الناسَ على مَناخِرِهِم في نارِ جهنّمَ إلّا حَصائدُ | ألْسنتِهم»[٣]. ٥٦ظ

وفي (*حِفْظِ اللسانِ*[٤]) فوائدُ:

أحدُها: أنّه أصلٌ ظاهرٌ في الصلاحِ والفسادِ، ومدارُ الأحكامِ الظاهرةِ عليه.

رَوَيْنا عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه أنه قال: إنّ ابنَ آدمَ إذا أصبحَ كفَّرتِ الأعضاءُ كُلُّها اللسانَ وقُلْنَ: نُنْشِدُكَ اللهَ أنْ تستقيمَ، فإنِ استقمتَ استقَمْنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا[٥].

وأنشدوا[٦] لبعضِهم: (*وهو جعفرُ بنُ محمّدِ بن عليّ بن أبي طالب*[٧])

(*-*١) س: مريحٌ للإنسان.

(٢) انظر: سنن الترمذي، ٢٤٠٦؛ وشعب الإيمان، ٨٠٥؛ والترغيب والترهيب، ٤١٤٦.

(٣) انظر: سنن الترمذي، ٢٦١٦؛ والسنن الكبرى، ١١٣٩٤؛ وسنن ابن ماجه ٣٩٧٣؛ ومصنّف ابن أبي شيبة، ٢٦٤٩٨؛ ومسند أحمد، ٢٢٠٦٩.

(*-*٤) ع، س: حفظه للإنسان.

(٥) انظر: سنن الترمذي، ٢٤٠٧؛ ومسند أحمد، ١١٩٢٧؛ ومسند أبي يعلى، ١١٨٥؛ وشعب الإيمان، ٤٩٤٦.

(٦) س: وأنشدنا.

(*-*٧) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

[الطّويل]

يمـوتُ الفـتى مِـن عَـثْـرةٍ بلسانِه ... وليس يموتُ المرءُ مِن عثرةِ الرِّجْلِ
فـعَـثْـرَتُـه مِـن فِيـهِ تـرمـي بـرأسِـه ... وعـثـرتُـه بـالـرِّجْـلِ تَـبْـرَا على مَـهْـلِ

وثانيها: حفظُ الوقت عنِ اللغوِ وما يُوجِبُ الإثمَ ويُوقِع في المكروهِ، ومَن حَسَبَ كلامَه مِن عملِه قلّ كلامُه إلّا فيما يعنيه.

وقد قِيل:

اغتنِمْ رَكعتينِ في ظُلمةِ الليلِ ... إذا كنت خاليًا مُستريحَا
فإذا ما همَمْتَ باللّغو في الباطلِ ... فاجعَلْ مكانَه تسبيحَا
(*فالتزامُ السكوتِ أولَى مِنَ النُّطقِ ... وإنْ كنتَ في الكلامِ فصيحاَ*1)

وثالثُها: صيانةُ الأعمالِ عنِ الفسادِ والإخلالِ، فإنّ | مَنْ[2] لم يَحبِس نُطقَه عن إرسالِه كثُر هَذرُه ووقَعَ في الغِيبة، كما قِيل: مَن كَثُرَ لَغَطُه[3] كثُر سَقَطُه[4]. ٥٧و

والغِيبةُ أعظمُ المفاسِد المُهلِكة للإنسانِ، ومَثَلُ المُغتاب كمَن نَصَبَ مِنْجَنِيقًا يرمي فيه بحسناته شرقًا وغربًا ويمينًا وشِمالًا.

ورابعُها: التحصُّنُ مِنَ الآفاتِ، والسلامةُ مِنَ المكروهاتِ، فإنّ تسليطَ اللسانِ مُفسِدٌ لِلشّان، وقد قِيل:

(*-*1) لا يوجد في: ع، س.

(2) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(3) س: لفظه.

(4) لم أقف عليه في مظانّه. وفي «جمهرة الأمثال» للعسكري، ١:١٩: «أفرط فأسقط»، وأخرج الطبراني في «الأوسط» ٦:٣٢٨، ٣٣٤ من حديثَي أبي هريرة وابن عُمر عن النبي ﷺ: «مَنْ كثُر كلامُه كثُر سَقَطُه، ومَن كثُر سقَطُه كثُرتْ ذُنوبُه». وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢:٣٧٠؛ والبيهقي في «الشعب»، ٤:٢٦٣؛ وابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ١٣٥؛ وابن أبي الدنيا في «الحلم»، ٧٧؛ وفي «الصمت»، ٦٨، من كلام عُمر رضي الله عنه، وانظر: أمثال الحديث، لأبي الشيخ الأصبهاني، ٢٩٣، و٤١٣.

[الكامل]

احفَظْ لسانَكَ لا تقولُ فتُبْتَلى إنّ البلاءَ مُوكَّلٌ بالمنطقِ

وخامسها: سلامةُ العاقبةِ في الآخرةِ، فإنّ مَن تكلّم يدُور أمرُ كلامِه بين المُباحِ والمحذور. فأمّا المحذورُ فإنّه يؤدّي إلى العقابِ. وأمّا المباحُ ففيه اشتغالٌ عمّا هو أولَى منه مِنَ المندوبِ، والمُوفَّقُ السعيدُ هو الذي يَحترزُ مِنِ انصرافِ هِمّتِه إلى استعمالِ[1] غيرِ الأَولى مِنَ الأقوالِ والأفعالِ والنيّاتِ. فهذا ما يتعلّق باللسانِ.

الجارحة الرابعة

البطن

فيتعيّن أن يُصانَ عنِ | الحرامِ والشُّبُهاتِ، فإنّه مَثارُ الدواعي المُتعِبة[2]، ومنه ٥٧ظ
تثُور الحركاتُ (*المُهلِكاتُ، وهو أحوجُ الخارجِ إلى الصلاحِ؛ لأنّ فيه مودعٌ[3] مِنَ القلبِ وغيرِه يمدُّ الحركاتِ*)[4] الظاهرةَ بالهوى[5]، فليكن ما يدخُله مِنَ المَطعمِ والمَشربِ حلالًا، فإنّه يزدادُ بذلكَ عند الله رِفْعةً وجلالًا، ولْيُقلِّلْ مِن فضولِ الحلالِ، فإنّ ذلك ينفعُه في المآلِ.

وقد نُقل عنه ﷺ أنه قال: «كلُّ لحمٍ نَبَتَ مِن سُحْتٍ فالنارُ أَولَى به»[6].
(*فَلْيَحْذَرْ مِن مُداناةِ هذه الحالة*)[7].

---

(١) س: اشتغال.

(٢) س: المتبعة.

(٣) كذا في الأصل. ويخرّج على أنّ اسم «إنّ» ضمير الشأن أو القصة و«مودع» خبرها.

(*-*٤) لا يوجد في: س. [انتقال نظر].

(٥) س: القُوى.

(٦) انظر: المعجم الكبير، ٢٨٩؛ وسنن الترمذي، ٦١٤؛ وسنن الدارمي، ٢٧٧٦؛ وكنز العمّال، ٩٢٧٧.

(*-*٧) ع: من مداناته.

الجارحة الخامسة

اليد

فبَسْطُ اليدِ بمدِّها[١] إلى تناوُل المَنهيِّ عنه وقَبْضُها عنِ المأمورِ به[٢] مُوجِبٌ لاستحقاقِ العقوبةِ، مُفَوِّتٌ لتحصيلِ المَثُوبةِ، وقد ذمّ اللهُ المُنافِقين بقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أيْ عنِ المُبايَعة للرسول والمُناصَحة له، أو عنِ الصَّدَقةِ التي هي دَلالةٌ على الإيمان والتصديق، فحقٌّ على العبدِ إرسالُ يدِه بالمعروفِ وجهادًا لأعدائِها، وتصريفُها | ٥٨و في وجوهِ الخيراتِ مِنَ الصدقاتِ والزكَوَاتِ وغيرِ ذلك، وإمساكُها عنِ العُدوانِ والإفسادِ والإضرارِ وتناوُلِ الحرامِ[٣]، فإنّه يُحْرِزُ بذلك ثوابًا جزيلًا، وثناءً جميلًا، واللهُ المُوفِّقُ.

الجارحة السادسة

الرِّجل

فتوقُّفها عنِ المشي في غير قُربةٍ أَوْلَى، وتنزُّهُها عنِ الرِّيبةِ[٤] في الأمورِ المُشكِلة أشرفُ عند الله قَدْرًا وأعلى.

وقد وردتِ الأحاديثُ بالثواب المُرتَّب[٥] على المَشْيِ إلى المساجدِ والجُمُعةِ والجماعاتِ، وزيارةِ الإخوانِ، والمَشْيِ في قضاءِ الحوائجِ، وعيادةِ المرضى، واتّباعِ الجنائزِ، وغيرِ ذلك ممّا تتبُّعُه يطُول.

فَلْيُوفِّرِ العبدُ حظَّه مِن هذه المَثُوبات، ولْيَشكُرِ اللهَ تعالى على ما أولاهُ مِن نِعمِه، فإنّ الشُّكرَ مَجْلَبَةٌ للزِّياداتِ.

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) ع، س: بأخذه.
(٣) لا توجد في: س.
(٤) ع: الرتبة.
(٥) س: المترتب.

الجارحة السابعة
الفَرْج

قد أثنى الله ﷻ على حافِظِي فُروجِهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَـٰفِظَـٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فحقٌّ على العاقلِ أنْ يحفظَ فَرْجَهُ عن كشفِه ٥٨ظ على غيرِ مُباحٍ، وأنْ يعتصمَ بالعفافِ عن إقدامِه على ارتكابِ | ما فيه قيامُ جُناحٍ. وبه تمّ الكلامُ في الأصلِ الأوّل مِن تقوى الظاهرِ.

الأصل الثاني
الباطن من التقوى

وهو تقوى(١) القلبِ، وعليه مدارُ القُرْبِ مِنَ الربِّ. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فالقلبُ هو سلطانُ الجسدِ ومالكُه والمُتحكِّمُ فيه، وأعضاؤه أعوانُه وخُدّامُه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧]، (*وقال ﷺ: «إنّ في الجسد مُضغةً إذا صلحتْ صلح الجسدُ، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ ألَا وهي القلبُ»*٢)،(٣) وقال ﷺ: «إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُورِكُم وأعمالِكُم ولكنْ يَنظُر إلى قلوبِكم ونيّاتِكم»(٤). فإصلاحُ القلبِ وحمايتُه(٥) عن الفِكَرِ الذميمةِ، والخواطرِ الراحلةِ والمُقيمة، أصلٌ في الوصولِ إلى الحصولِ في منازلِ المُقرَّبينَ، وفضلٌ مِنَ اللهِ يَهَبُه لِمَنِ اختصَّه بعنايتِه به مِنَ المُوفَّقِينَ. فحَقِيقٌ بالمُتوجِّه مُراعاتُه ومُعاناتُه،

---

(١) لا توجد في: ع.

(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: صحيح البخاري، ٥٢؛ وصحيح مسلم، ١٥٩٨؛ وشعب الإيمان، ٥٣٥٦.

(٤) انظر: صحيح مسلم، ٢٥٤٦؛ وسنن ابن ماجه، ٤١٤٣؛ وصحيح ابن حبّان، ٣٩٤؛ وشعب الإيمان، ١٠٤٧٧.

(٥) ع: رحمانيته.

وخَليقٌ به عند هجوم الأمراض عليه مُداواتُه، وهو أعظمُ الجوارحِ ضَرَرًا، وأتمُّ القبائحِ عنه ينشأ وِردًا وصَدَرًا، فمعاناتُه مِنَ الأمورِ المهمّة، ومُراعاتُه مِنَ المقاصدِ المُتَعيِّنة، وإهمالُه مِنَ المفاسِد | المتبيّنة[1]، وهو مَعدِنُ الأخلاقِ الحسنةِ ٥٩و والقبيحةِ، والأفعالِ الحميدةِ والذميمةِ، والمُعْوَجّةِ والمُستقيمة، فالتنبُّه فيه لِلمُراقبةِ له والمُحاسَبةِ مِنَ الأمورِ اللازمة الواجبة، وتطهيرُه مِن نجاسةِ الهواجسِ المُصاحِبةِ مِنَ الكرامةِ النافعةِ له في الدار الأخرى عند المُحاسبة.

قال بعضُ المحقّقين: ليس شيءٌ أفضلَ مِن طهارةِ القلبِ، وليس فوقَ طهارةِ القلبِ إلّا الصدقُ، وليس فوقَ الصدقِ إلّا النُّورُ، وليس فوق النُّورِ إلّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فالقلبُ هو مَعدِنُ المقاماتِ والأحوالِ، ومَوطِنُ المَعاصي والطاعاتِ، ومَقرُّ التجلّياتِ بالأنوارِ[2]، والترقّياتِ في الأطوارِ، فمَن لم تكُن له بسياستِه عنايةٌ، فإنّه قد وقَع مِنَ الخَطإ والخطرِ فيما ليس له نهايةٌ. وقد تقدّم القولُ فيما يُثْبَتُ ويُنْفى مِنَ الصِّفاتِ الحميدةِ والذميمةِ، فَلْيَعتمِدْ ذلك السالكُ، فإنّه له مِن أعظمِ الغنيمةِ، فمَن راعَى ما يَرِدُ على قلبِه مِنَ الخطراتِ، فقد وافَى مِنَ المُراداتِ أتمَّ الطلباتِ.

وقد تخصّصَ عن غيرِه مِنَ الجوارحِ الظاهرةِ | بثلاثةِ أُمورٍ: ٥٩ظ

أحدُها: أنّه محلُّ نظرِ الله وإشراقِه واطّلاعِه، وخزانةُ بيتِ مالِ أسرارِه ومَعارفِه، فقد ورد: «ما وَسِعَتْنِي سمائي ولا أرضي، ووَسِعَنِي قلبُ عبدي المؤمن»[3]، ومَن كان بهذه المثابة فحِراستُه عند الغفلة[4] مُتعيِّنةٌ، وصِيانتُه عنِ الأخطارِ مستحسنةٌ.

وثانيها: أنّه حِصنُ العبدِ ومَلجَؤُه عن[5] العذابِ، بما استقرّ فيه مِنَ الإيمانِ، والعدوُّ اللعينُ مُحاصِرٌ لذلك الحصنِ يقصده غِرّةً وغفلةً، حتى ينتهزَ فرصةً منه،

---

(١) ع: المبينة.

(٢) س: للأنوار.

(٣) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ٤٤٦٦.

(٤) ع، س: العقلاء.

(٥) س: من.

فيدخُلُ فيها إلى ذلك الحِصنِ، فيخربه ويتمكّن منه، فيشمتُ بمالكِه، وينتصرُ عليه. فيتعيّن على العاقلِ تحصينُ ذلك الحِصنِ، وإعمالُ الحِيلةِ[١] في الِاحترازِ مِنَ العدُوِّ المُحاصِر له، باليقظةِ والتحفُّظِ منه.

وثالثُها: أنّه اشتملَ على حُكمَينِ مُتضادَّينِ ومَقْصِدَيْنِ مُتجادَّيْنِ، ودَعْوتَيْنِ مُتقابلتَيْنِ، وهما: الإلهامُ والوَسوسةُ، المُعبَّرُ عنها بلمّة الشيطانِ ولـمّة الملَك،
٦٠و فالمحاربةُ أبدًا بينهما واقعةٌ، كلٌّ منهما يُريد عَزْلَ مُقَاوِمِه وإثباتَ ولايتِه | وسُلطانِه
عليه، فالخطرُ فيه أكثرُ، والمشقّةُ في معاناتِه أشدُّ، فكان أشرفَ الجَوارحِ وأعظمَها قَدْرًا، فمُراعَاتُه ومعاناتُه تكون عند الله أكثرَ أجرًا.

والتقوى على ثلاثةِ أوجُهٍ: تقوى الشِّرْكِ، وتقوى المعاصي، وتقوى الخواطر، فإنّها تأتي كالسَّيلِ في الليلِ[٢]، وتَرادُفُها مانعٌ مِنِ اتّصالِ النَّيْلِ. وبه تمّ الكلامُ في التقوى الظاهرة والباطنة، وبذلك انتهى بنا القولُ في العقبة الثالثة.

العقبة الرابعة
العوارض

وهي شاغلةٌ عنِ المُرادِ، قاطعةٌ حَبْلَ الوداد، وهي أربعةٌ: الِاهتمامُ بالرِّزقِ والسعيُ في طلبِه، والخطرُ المتوجّه والفِكْرُ في دَفْع سببِه، والقضاءُ السماويُّ والضجرُ مِن ترادُفِ كُرَبِه، والمصائبُ النازلةُ، والشدائدُ الواصِلةُ، التي لا يَمنعُ العبدَ منها الِاشتدادُ في هربِه.

(١) س: الحيوة.
(٢) س: النيل.

العارض الأول
تعلُّق النفس بِهَمّ الرزق

والطلبُ(١) له أعظمُ قاطعٍ، وهو في أكثرِ الخَلْقِ نقصٌ فاقعٌ(٢)، والمتثبّتُ
| فيه منهم قليلٌ، فإنْ وُجِدَ فهو لشأنِهِ رافعٌ. وقطعُ هذا التعلُّقِ بالتوكُّلِ(٣)، فإنّه ٦٠ظ
مَبْلَغُ المُنقطعِ إلى التوصُّلِ، فمَن عَمِلَ عليه أراحَ سِرَّهُ مِنَ الفِكْرِ، وصَدْرَهُ مِنَ الضيقِ، وتفرّغَ لعبادةِ ربِّه بقالبِه وقَلْبِه، وكان في أمرِه على بيّنةٍ(٤) مِن ربّه.

والفراغُ هو جُلُّ العبادةِ، بل كُلُّها، والمُتوكِّلُ أكثرُ الخَلْقِ فراغًا، وأقلُّهم تعلُّقًا بما يشغَلُ خاطِرَه مِنَ الأسبابِ الأُخرويّة والدنيويّة. وقد خاطبَ اللهُ به الأنبياءَ، فقال لرسولِه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال أيضًا: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمّل: ٩]، وأمرَ به المؤمنينَ، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وضَمِنَ الرزقَ لِخَلْقِه، وأَقسَمَ لهم فما وَثِقُوا بقَسَمِه، فقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢١-٢٢].

وللتوكُّل مَواطنُ ثلاثةٌ:

الأوّل: في القِسمةِ المُقدَّرة(٥) – قِلّةً أو كثرةً – وهو (*سكونُ النفسِ*٦)
| إلى ما قُسِم في الأزلِ، وأنّه لا زيادةَ فيه ولا نقصَ منه، وهذا ممّا عُلِمَ مِنَ ٦١و
الشرعِ وُجوبُه.

(١) ع: والتطلُّب.
(٢) ع، س: واقع.
(٣) في الأصل: فالتوكل.
(٤) في الأصل: سنة [تصحيف].
(٥) س: لقدره.
(*-*٦) ع: سكونٌ.

الثاني: في النصرِ على العدوّ عند اللقاءِ، وهو الوثوقُ وثباتُ الإحساسِ[١] بالِانتصارِ مِنَ الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. وهذا ممّا عُلِمَ أنّه واجبٌ بالوَعْدِ، فمهما عَلِقَتِ الهِمّةُ باللهِ وصدَقَتْ في توكُّلِها كفَاهَا ما تخشى[٢]، ووَفّاها مِنَ الجزاءِ في العُقبى ما ترضى[٣].

والثالث: في سَدِّ الخُلّةِ وإزاحةِ الحاجةِ، فيعتقد أنّ ما يُقَوِّمُ بِنْيَةَ جسدِه، وكُلفةَ أهلِه وولدِه، ومَن له عَوالةٌ عليه، فلا بدّ وأنْ توصل إليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي كافِيهِ.

وقال في الحديث الذي رواه عُمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ
٦١ظ الله ﷺ يقول: «لَوْ | أنّكُم تتوكّلُونَ على اللهِ حَقَّ توكُّلِه لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطَانًا». أخرجه الترمذي وقال: حسنٌ صحيح، وأخرجَه ابن ماجه[٤].

العارض الثاني
الِانتظار لعوارض الأخطار

وهو وَهْمٌ مُستحكِمٌ في الجِبِلّةِ، مُكْسِبٌ للمهانةِ في النفسِ والذلّة. ومداواةُ هذه العلّة بالتفويضِ لأمرِ الله، وله فائدتان:

---

(١) ع، س: الجأش.
(٢) ع، س: تخشاه.
(٣) ع، س: ترضاه.
(٤) انظر: سنن الترمذي، ٢٣٤٤؛ وسنن ابن ماجه، ٤١٦٤.

الأولى: سكونُ الخواطرِ المتردّدةِ بما وقع مِنَ الطمأنينة للقلبِ، فمِن[١] ذلكَ تعجيلُ راحة النفسِ، وذلك غنيمةٌ حاصلةٌ خاليةٌ عنِ اللَّبْسِ.

والثانية: رجاءُ سلامةِ العاقبةِ، ووجود الأمنِ مِنَ الخوفِ في المستقبلِ، فإنّ الأمورَ بخواتيمِها وعواقبِها، وذلك أمرٌ مُبْهَمٌ على العبادِ، فالتفويضُ فيما جُهِلَتْ عاقبتُه محصِّلٌ للمرادِ، قال الله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ﴾ [غافر: ٤٣-٤٤]، فمن فَوّضَ قَدِمَ على قَدَمِ السلامةِ، وعَدِمَ ما عليه نَدِمَ غيرُه مِنَ المَلامةِ، | فلقدِ ٦٢و
استراحَ مَن أعرض عنِ التدبيرِ[٢]، وفوَّضَ فيما وقَع مِنَ الأمرِ العسيرِ.

العارض الثالث

ما وردَ مِن الأَقْضِيَةِ الغَيْبيّة فيما لا شعورَ به للنفسِ[٣] البشريّة ويَكِيعُ[٤] مِنَ الصبرِ عليه أكثرُ البَرِيّة، فمُتعيِّنٌ على العبدِ الرِّضَى به؛ لِوجهَينِ:

أحدُهما: ليتفرّغَ القلبُ مِنَ الاشتغالِ بغيرِ مَولاهُ، فيُقبِلُ على عبادةِ الله خاليَ البالِ عنِ الاهتمامِ بما يتوقّع في ثاني الحالِ. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] الآية، ثمّ قال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣].

وقال شقيقُ البَلْخِيُّ رضي الله عنه: إنّ حسرةَ الأمورِ الماضيةِ وتدبيرَ الآتيةِ، قد ذهبتْ ببركةِ ساعاتِكَ هذه.

وثانيها: التعرُّض لحلولِ الغضَبِ والسَّخَطِ، وذلك مِن أعظمِ الغَلَطِ، فغضبُ اللهِ لا يقومُ له شيءٌ، وأقضِيتُه لا تُرَدُّ، بل هي باقيةٌ[٥]، على ما سبقَ به عِلمُه

---

(١) س: ففي.

(٢) ع: التدابير.

(٣) ع، س: إلى القوى.

(٤) كاع يكيع عن الأمر: جبن عنه وهابه. انظر: تاج العروس (ك. ي. ع).

(٥) لا توجد في: ع، س.

جاريةٌ، فمَن رضِيَ بالمقدورِ، ظفِرَ مِن مولاهُ بالسُّرورِ، وقد بشّر[١] اللهُ تعالى
٦٢ظ | بقولِه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

العارض الرابع

مُنازلة المصائب الصوائب ومُكابدة الشدائد النوائب

فإنّ الجَزَعَ مُفَوِّتٌ لِلأَجْرِ، مُثَبِّتٌ للوِزْرِ، وعلاجُ ذلك بالصبرِ، فإنّه يُحْمَدُ مِنَ العبدِ؛ لِحالتَين:

أحدهما: التمكُّنُ مِنَ العبادةِ بتسكينِ الخاطرِ، فمَبنى العباداتِ على الصبرِ ومُكابدةِ المَشاقِّ.

وثانيهما: ما يترتّبُ عليه مِنَ الثوابِ في العُقبى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، فمَن وُفِّقَ لِقَطْعِ هذه العقبةِ فقد رُزِقَ مِنَ الصبرِ ما يُؤمّلُ[٢] مِن عَتْقِ الرقبةِ. وبذلك تمّتْ عقبةُ العوارضِ.

العقبة الخامسة

البواعث

مَن لم يكن له باعثُ طلبٍ لَمْ يَظفَرْ في سَيرِه بِأَرَبٍ، فإذا زالتِ العوائقُ تحرّكتِ البواعثُ، والمُحرّكُ لها أمرانِ: خوفٌ ورجاءٌ.

الأمرُ الأوّل: الخوفُ. والتزامُه[٣] واجبٌ؛ لوجوهٍ، أحدُها: لإقامةِ هيبة[٤]
٦٣و المعبود | وتعظيمِه. وثانيها: لزجرِ النفسِ عنِ المعاصي، فإنّها كثيرةُ التلوُّث بها،
والخوفُ يمنع منها ويصدُّ عنها.

(١) ع، س: بشّرهم.
(٢) ع، س: يأمل.
(٣) س: وإلزامه.
(٤) غير واضحة في الأصل والمثبت من: ع، س.

وثالثها: السلامةُ مِنَ العُجْبِ بالعملِ الصالحِ؛ فإنّه مُفسِدٌ لصحّةِ العباداتِ، مُبطِلٌ لقَبولِ الطاعاتِ، فحقٌّ على العاقلِ الِالتزامُ له(١) في أحوالِه، فإنّه نافعٌ له عند مآلِه، ولأجْلِ ذلك قال ﷺ: «واللهِ إنّي لَأَعْرَفُكم باللهِ وأشدُّكم خوفًا منه»(٢)، فالخائفُ أبدًا ساعٍ في طلبِ المزيدِ مِنَ العملِ، داعٍ لنفسِه إلى ما تبقى(٣) مِن كثرةِ الأملِ.

الأمرُ الثاني: الرجاءُ. فالقُنوطُ مَنهِيٌّ عنه، مأمورٌ بالهربِ منه؛ لِما يتضمّنُ مِن إساءةِ الظنِّ بالكريمِ، ويتعيّنُ مِن تعلُّقِ الأملِ بالرحيمِ، واستشعار الرجاءِ لازمٌ لِقصدَينِ:

أحدهما: لتحكُّمِ الغفلةِ مِنَ النفوسِ، وثِقَلِ الطاعاتِ عليها، ومَيلِها إلى الراحةِ والدَّعَةِ واللهوِ والبطالةِ، وما تميلُ إليه مُشاهَدٌ حاضرٌ معها | ، فتثقُ به وتُعَوِّلُ ٦٣ظ عليه، وما توعّدَ به مِنَ الثوابِ غائبٌ عنها، فتُعرِضُ عنه، والأنفُسُ مُوْلَعَةٌ بحُبِّ العاجلِ، وهذه كلُّها مَوانعُ، فلا بُدّ مِن مُقابلتِها بضدٍّ يَرفعُها ويَدفعُها، وهو الرجاءُ المُتمكِّنُ، والترغيبُ المُتَبيّنُ، بحَسَبِ الثوابِ في دارِ المآبِ.

وثانيهما: لتسهيلِ ما يجري مِنَ المَشاقِّ، وتهوينِ ما تحذر مِنَ الإشفاقِ، فإنّ مَن عَرَفَ ما طلبَ(٤)، هانَ عليه (*ما بذَل بما أَحَبّ*٥)، كما أنّ التُّجّارَ لمحبّةِ الفوائدِ يُكْثِرُونَ الأَسفارَ، ويَرْكَبُونَ الأخطارَ، فإذا أتَوا سالِمينَ غانِمينَ أنساهُمُ الرِّبْحُ ما قاسَوهُ مِنَ الخطرِ المُبينِ، فمَن لم يبذُلِ المجهودَ فقد فوَّتَ المقصودَ، وقد أنشدَنا بعضُ مَشايخِنا:

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٢) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ١٦٦.

(٣) ع: يُتّقى.

(٤) ع: يطلب.

(*-*٥) ع: بذل ما أحبّ.

[البسيط]

إنّ التجار إذا أتوا وقد ربحوا … أنْساهم الرّبحُ ما (*عَنّى مِنَ*١) السفرِ

٦٤و واعلَمْ أنّ الخوفَ والرجاءَ لا قُدرةَ للعبدِ عليهما، فإنّهما | مِن قَبيلِ الخواطرِ. والمقدورُ للعبدِ المقدّماتُ، فمقدّماتُ الخوفِ أربعٌ: ذِكْرُ الذُّنوبِ، وشدّةِ العذابِ، وضعفِ النفسِ عنِ العقابِ، وذِكْرُ قُدرةِ اللهِ على العبدِ.

ومقدّماتُ[٢] الرجاءِ أربعٌ:

ذِكْرُ ما سبقَ مِن فضلِ الإلهِ إليه.

وذِكْرُ ما وعدَ مِنَ الثوابِ للمُطيعِ.

وذِكْرُ كثرةِ النِّعَمِ والألطافِ حالًا ومآلًا. كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وذِكْرُ سَعَةِ الرحمةِ، كما قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عليه السلام حكايةً عن ربِّه: «رحمتي سَبَقَتْ غضبي»[٣].

فمَن كان بهذه المثابةِ كيف لا يتعلّق به حَبْلُ الرجاءِ، ويتوثّقُ به مَن هو مُنقطعٌ بكثرةِ اللّاواءِ[٤]. وبه تمّتْ عقبةُ البواعثِ.

(*-*١) في رواية: عناهم.

(٢) ع: ومفسدات.

(٣) انظر: صحيح البخاري، ٦٩٨٦؛ وسنن ابن ماجه، ١٨٩؛ والسنن الكبرى، ٧٧٥١؛ ومسند أحمد، ٧٤٩١.

(٤) اللأْواء: الشدّة وضيق المعيشة، ومنه الحديث: قال له: «أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُك اللأْواء؟». انظر: لسان العرب (ل. أ. ي).

العقبة السادسة

القَوادِح

اِعلَمْ أنّ قَبُولَ الأعمالِ مُتوقِّفٌ على تخلُّفِ المفسداتِ الظاهرةِ والباطنةِ، واشتغالُ أكثرِ الخَلْق إنّما هو بما يُفسِدُ العملَ ظاهرًا، وإنّما يشتغلُ بما يفسدُه باطنًا المُتوجّهونَ. فمُفسداتُه مُتنوّعةٌ، ونقتصرُ منها على | ثلاثةِ أنواعٍ: ٦٤ظ

النوع الأول

الشِّرْك في المقاصد والنيّات

وهو مِن أعظمِ الزّلّاتِ وأطَمِّ الآفاتِ. قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، فمفهومُه: أنّ مَا كان مَشُوبًا مِنَ العملِ فهو لغيرِ الله، فالإخلاصُ في الأعمالِ[1] مطلوبٌ. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، (*وإنما أمرَ ونهى عن ذلك*٢)؛ لوجهينِ:

أحدُهما: لِما يترتّبُ بفعلِه مِنَ القَبولِ وبلوغِ المأمولِ مِن توفيرِ الثوابِ في دارِ المآلِ[3]، فإنْ فات رُدَّ أو نقصَ ثوابُه. رَوَيْنا مِن حديثِ الضحّاك بنِ قيسٍ الفهري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ تبارك وتعالى يقول: أنا خيرُ شريكٍ، فمَن أشرَكَ معي شريكًا فهو لشريكي، يا أيُّها الناسُ أَخلِصُوا أعمالكم لله، فإنّ الله تبارك وتعالى لا يَقبلُ مِنَ الأعمالِ إلّا ما خَلُصَ، ولا تقولُوا: هذا لله ولِلرَّحِمِ، فإنّها للرَّحمِ، وليس لله منها شيءٌ، ولا | تقولوا: هذا لله ولِوُجوهِكم، فإنّها لوجوهِكم، وليس لله منها شيءٌ»، أخرجه البزّار[4]. ٦٥و

(١) س: العمل.

(*-*٢) ع، س: وإنما أمر به ونهى عن ضدّه.

(٣) ع، س: المآب.

(٤) الحديث ورد في مسند البزّار، ٨٣٠٩ بنصّ: «أنا خيرُ الشركاء، مَنْ عَمِلَ عملًا فأَشْرَكَ فيه غيري فأنا منه بريء، وهو لِلذي أشرك». و ٩٠١٢ بنصّ: «أنا خيرُ شريكٍ، فمَن أشرَكَ بي أحدًا فهو له كلُّه». والحديث بنصّه في سنن الدارقطني، ١٣٣.

وثانيهما: إتعابُ بَدَنِه بالعملِ مِن غير فائدةٍ عليه عائدةٍ، فَدَعَتُه عنِ العملِ أَرْوَحُ لِبدنِه، بل يترتّبُ مِنَ الإثم بذلك العملِ كثيرًا، فنسألُ اللهَ العافيةَ.

النوع الثاني
الرياء[1]

إنّ الرِّياءَ مِن أعظمِ الآفاتِ الداخلةِ على الأعمالِ المُوْقِعةِ في الأوحالِ. رَوَيْنا مِن حديث ابنِ عبّاسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به، ومَن رَاءَى راءَى اللهُ به»، أخرجه مسلم[2].

قلتُ: المعنى: أنّه[3] يُعَامِلُه مُعامَلةَ المُرائي، مِن إحباطِ ثوابِه، وفضيحتِه على رُؤوسِ الخلائقِ بإظهارِ ما كان أخفاهُ[4] في هذه الدارِ، مِن خُبْثِ[5] النيّة وفساد الطَّوِيّةِ.

رَوَيْنا من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُجَاءُ يومَ القيامةِ بصُحفٍ مُخَتَّمةٍ، تُصَبُّ[6] بينَ يَدَي اللهِ تعالى، فيقول ﷻ للملائكةِ:
٦٥ظ أَلْقُوا هذا واقْبَلُوا هذا. | فتقولُ الملائكةُ: وعِزّتِكَ وجلالِكَ، ما رَأَيْنَا إلّا خَيرًا، فيقولُ تعالى وهو أعلمُ: إنّ هذا كان لِغَيري، ولا أَقبلُ اليومَ مِنَ الأعمالِ إلّا ما ابتُغِيَ به وَجهِي». رواه الدارقطني في السُّنن[7].

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) انظر: صحيح مسلم، ٢٩٨٦
(٣) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٤) ع: عوّضه.
(٥) في الأصل، ع: حيث، والمثبت من: س.
(٦) ع، س: فتُنْصَبُ.
(٧) انظر: سنن الدارقطني، ١٣٢.

وقال معاذٌ لرسولِ الله ﷺ حين بعثَه إلى اليمنِ: أَوْصِنِي، فقال ﷻ: «أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ[١] القليلُ مِنَ العملِ»[٢].

فعلى الساعي في طلبِ نجاتِه الِاجتهادُ في إخلاصِ أعمالِه، والِابتعادُ عنِ الرِّياءِ في جميعِ أحوالِه.

وأمّا الإخلاصُ فعلى ضَرْبَينِ: إخلاصُ عملٍ، وإخلاصُ طلبِ ثوابٍ.

فالأوّلُ: هو إرادةُ القُربةِ وتعظيمِ المعبودِ بالعمل. والثاني: هو إرادةُ تنفعُ الآخرةَ بالعملِ الصالح. فهذا لِلعَوَامِّ، وذلك لِلخَوَاصِّ مِنَ الأنامِ.

رَوَيْنا أنّ الحَوارِيّينَ قالوا لعيسى ابنِ مريمَ: ما الخَالصُ[٣] مِنَ الأعمالِ؟ فقال: «الذي يَعملُ لله لا يُحِبُّ أنْ يَحمدَه عليه أحدٌ»[٤].

وقال الفُضَيْل بنُ عياضٍ: الإخلاصُ: دوامُ المراقبةِ ونسيانُ الحظوظِ كلِّها[٥].

٦٦و وقال | الجُنَيدُ: تصفيةُ الأعمالِ من الكُدُوراتِ[٦].

وأمّا الرياءُ، فهو إرادةُ نفعِ الدنيا بعملِ الآخرة، وهو ضِدُّ الإخلاص، وهو نوعانِ: خالصٌ، ومَشُوبٌ[٧].

فأمّا الخالصُ فهو تَمَحُّضُ العملِ لنفعِ الدنيا. وأمّا المشوبُ فهو إضافةُ نفعِ الآخرةِ إلى الدنيا، فَلْيَحْذَرِ العاقلُ مِن هذا الفعلِ النازلِ، فإنّه يَجمَعُ له بينَ الضررِ العاجلِ والآجلِ. قال الفُضَيْلُ: تركُ العملِ مِن أجلِ الناسِ رياءٌ، والعملُ مِن أجلِ الناسِ شِرْكٌ، والإخلاصُ أنْ يُعافِيَكَ اللهُ منهما[٨].

---

(١) في الأصل: يكفيك، والمثبت من: س. مجزوم في جواب الطلب.

(٢) انظر: شعب الإيمان، ٦٤٤٤، و٦٨٥٩؛ وكنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ٥٢٥٧.

(٣) في الأصل: الخاص. والمثبت من: ع، س.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، ٩:٧٦.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين، ٩:٧٦.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه.

(٨) انظر: سِير أعلام النبلاء، ٨:٤٢٧.

النوع الثالث
العُجْب

اِعْلَمْ أنّ العُجْبَ أردَى حالةٍ تَرِدُ في الأعمالِ: العادةِ والعبادةِ. وحقيقةُ العُجْبِ هو الاِستعظامُ للعملِ الصالحِ. فَلْيَتيقَّظْ له[1] الغافلُ عنه، وَلْيَحْذَرْ مِنَ المُداناةِ له[2]. واجتنابُه مُتعيِّنٌ لِوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنّه اشتغالٌ بتعظيمِ نفسِه عن رُؤيةِ مِنّةِ الله تعالى عليه، فهو محجوبٌ عن تأييدِه وتوفيقِه الذي يفتقرُ العِبادُ إليه، فمَن عاناه فإنّه مخذولٌ، ليس له إلى بابِ الله تعالى وُصولٌ.

٦٦ظ وثانيهما: أنّه يُبطِلُ صالحَ[3] | العملِ، ويُحصِّلُ فاضحَ الوَجَلِ، فتبطلُ به فائدةُ العبادةِ وثمرتُها، ويَلتحِقُ مَن عاناهُ بما حَكَاه اللهُ تعالى في كتابِهِ بقولِه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال المسيح عليه السلام: «يا معشرَ الحَوارِيِّينَ، كم مِن سِراجٍ أطفأتْهُ الريحُ، وكم مِن عابدٍ أفسدَه العُجْبُ!»[4]. وقال أبو عثمانَ الحِيريُّ: الخوفُ مِنَ اللهِ يُوصِلُكَ إلى الله عز وجل، والكِبْرُ والعُجْبُ في نفسكِ يَقطعُك عنِ الله، واحتقارُ الناسِ في نفسِك مَرَضٌ عظيمٌ لا يُداوَى[5].

وقد مضى الكلامُ في العُجْب بما هو أكثرُ مِن هذا. وبه تمّتِ العقبةُ السادسةُ.

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٢) ع، س: منه.

(٣) لا توجد في: س.

(٤) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك، ١: ٥٢٤.

(٥) انظر: صفة الصفوة، ٤: ١٠٥.

العقبة السابعة
الحمد والشكر

فمجدُ اللهِ وعُلاهُ قائمٌ في الوجودِ، وحَمْدُه وثناؤُه ناظِمٌ لِما تَبدّدَ مِنْ شُكرِ نِعَمِه في القيامِ والقُعودِ، فمَن لم يشتغِلْ بحمدِه، لم يتّصلْ إلى شيءٍ مِن سَنِيِّ رِفْدِه، فواجبٌ حَمْدُ اللهِ وشُكرُه في جميعِ الأحوالِ، وهو مُتعيّنٌ لوجوهٍ(1):

٦٧و أحدُها: الِامتثالُ | للأمرِ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فإذا شَكَرَ فقد بادرَ إلى الِامتثالِ، ومَشَى في طريقِ الِاعتدالِ.

وثانيها: إدامةُ النِّعمةِ. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وفي الحديثِ: «إنّ لِلنِّعمِ أَوَابدَ(2) كأوابدِ الوحشِ، فقَيِّدُوها بالشُّكرِ»(3).

وثالثها: الزيادةُ. قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومثالُه في الشاهدِ أنّ المَلِكَ العظيمَ إذا أنعمَ على أحدٍ (*مِن خَدَمِه*4) بِنَزْرٍ يسيرٍ، وقصَّرَ عنِ الِاعترافِ بشُكرِ ما أولاهُ، استحقَّ المُؤاخَذةَ؛ لِوجهَينِ:

أحدُهما: أنّ المَلِكَ مُسْتَغنٍ عنه بأمثالِه مِن رَعيّتِه، وهو مُفتقِرٌ إليه. وثانيهما: أنّه خصّه(5) بالعطاءِ لذلك القَدْرِ، (*وشرّفه بذِكرِه له*6)، فتعيّن عليه أنْ يشكُرَه، فكما قَبُحَ في الشاهدِ تركُ شُكرِ المُنعمِ على ما أولاهُ مِن معروفِهِ وإحسانِه، فكذلك يَقبُح في الغائبِ.

---

(1) ع، س: لجهات.

(2) الأوابد: النفور والتوحش، وهو جمع آبدة. انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣: ١٢٥.

(3) انظر: السنن الكبرى، ١٩٤٠٠؛ والمعجم الكبير، ٤٣٨٠؛ وسنن أبي داود، ٢٨٢٣؛ وسنن الترمذي، ١٤٩٢؛ وسنن الدارمي، ١٩٧٧.

(*-*4) لا يوجد في: س.

(5) ع: اختصه.

(*-*6) ع: وشرفه به وتذكره له.

والفرقُ بين الحَمدِ والشُّكرِ أنّ الحمدَ هو الثناءُ على المُنعِم بما يستحقُّه مِنَ الشرفِ لذاتِه، والشُّكرَ: الثناءُ (*على المُنْعِم*١) عليه بما أَوْلاهُ إلى سِواهُ. وضِدُّ ٦٧ظ الحمدِ الذَّمُّ | ، وضدُّ الشكرِ الكُفرُ، فالحمدُ كالتسبيحِ والتهليلِ مِنَ الأذكارِ تُعَدُّ مِنَ المَساعي الظاهرةِ، والشكرُ كالتفويضِ، والصبرُ يكون مِنَ المساعي الباطنةِ، فالحمدُ أعظمُ وأعمُّ وأظهرُ وأكثرُ، والشكرُ أخَصُّ وأقلّ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وللعلماءِ في الشُّكرِ والحمدِ تفاصيلُ كثيرةٌ وأقوالٌ أَضْرَبْنا عن ذِكرِها مخافةَ التطويلِ. وبه تمّتِ العقبةُ السابعة، واللهُ أعلمُ.

تمّ النوعُ الأوّل مِنَ الطرفِ الثاني.

(*–*١) لا يوجد في الأصل، س، والمثبت من: ع.

النوع الثاني
في بيان شرح المقامات لأهل الإرادات
وفتح باب الزيادات على مَن يرغبُ في الإفادات

والنظرُ فيه يقعُ في حُكمِ السالكِ، وما يُخشى عليه في طريقه مِنَ المهالكِ، وفي بيانِ شيءٍ من المصطلحِ، ليُفهم ما هُم عليه مِنَ المعنى المُقترحِ، وفي ذِكرِ أحكامِ المقاماتِ والأحوالِ، وأحكامِ الرياضاتِ لِمَن يقصدُ الأمنَ مِنَ الأهوالِ. فنَعقِدُ في ذلك فصولًا[١] ثلاثةً.

الفصل الأول
في حُكم السالِك وما يُخشى عليه
في | طريقِه من المهالك ٦٨و

اِعلَمُوا أنّ الطريقَ المطلوبةَ للسالكينَ مطلبٌ، وعليه مَهالِكُ للمُتوجّهينَ، وهي بمثابةِ شخصٍ سَمِعَ بِقَصْرٍ مُفردٍ في مَهْمَةٍ مِنَ[٢] الأرضِ لا يُعرَفُ له طريقٌ تُوصلُ إليه إلّا واحدةٌ، وسمع أنّه اشتملَ على نفائسِ الأمتعةِ وذخائرِ الجواهرِ، فتطلّعتْ نفسُه للوصولِ إليه، ورَغِبتْ[٣] في مشاهدةِ ما كان فيه، فسارَ عامدًا لذلك القَصْرِ، فاعترضتْ له طُرقٌ مُتشعّبةٌ، فتحفّظَ منها، فلم يَزَلْ يأخذُ على الجادّة حتى وصلَ إلى بابِ القصرِ بعد أنْ لَغَبَ وتَعِبَ، فأرادَ أنْ يدخُلَ بغيرِ مفتاحٍ، فما تمكّنَ، فإنْ كان صادقًا في طريقِه جَدَّ في البحثِ عن[٤] تحصيلِه، فإنْ وجدَه فتحَه ودخلَه،

---

(١) في الأصل: فصول.
(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٣) ع: ورغبةً.
(٤) ع، س: على.

وتنزّه فيما كان فيه مُودَعًا مِنَ النفائسِ، وما كان عِنده سماعًا صارَ عيانًا، وإنْ كان كاذبًا في سيرِه أهملَ أمْرَ المِفتاحِ، فلَمْ يَظفَرْ بشيءٍ مِن خيرِه.

فظاهِرُ القَصرِ هو عالَمُ الشهادةِ، وباطِنُه هو عالَمُ الغيبِ، ومِفتاحُه هو التجرُّدُ عنِ العلائقِ والعوائقِ.

٦٨ظ | والطّرائقُ[1] الموصلة إليه هي: الجِدُّ في المُجاهَدةِ والبُعْدُ عنِ المُعانَدةِ، وهو السُّلوك الذي هو انتقالٌ مِن فِعلِ طاعةٍ إلى أخرى مِثلِها أو أشرفَ منها. فهو أبدًا عاملٌ في مُعاناةِ المُداواةِ لأمراضِ قلبِه بمُجاهَداتٍ بدنيّةٍ، ورياضاتٍ نفسيّة، لمواصلاتٍ نُوريّة ومُفاتحاتٍ غيبيّة، ومُعامَلاتٍ بأخلاقٍ مَرضِيّة، واقتصارٍ على أغذيةٍ هَنِيّةٍ مَرِيّةٍ، آخذةٍ[2] مِنَ الوسطِ عن كثرةٍ وقلّةٍ عريّة.

فمَن أرادَ مُجالَسةَ الحقِّ والحُضورَ بَيْنَ يديهِ لِطلب ما مِنَ الفضلِ لديه، فَلْيَلزَمِ الأدبَ، وَلْيَطلُبْ مِن نفسِه إلى الله الهَرَبَ، وليُحافِظْ على عَشْرِ[3] خصالٍ، وهي:

الطهارةُ، والخَلْوةُ، والصمتُ، والصومُ، والذِّكرُ لله دوامًا، والتسليمُ، ونفيُ الخواطِرِ، وتوسُّطُ الغذاءِ، ونومُ الغلَبةِ، والارتباطُ على الشيخِ الذي[4] يقتدي به؛ فإنّه الأصلُ في إمدادِه، والوصلُ لِما يخشى أنْ ينقطعَ عنه مِن إعدادِه.

٦٩و | فبدوامِ الطهارةِ يكتسبُ تخفيفَ أثقالِ الكثافةِ الطِّينيّة، وتستفيدُ الرُّوحُ الأنوارَ القُدسيّة، فعِندَ وُرودِ الوُضوءِ على الوُضوءِ نورٌ على نورٍ.

وبدوامِ الخَلْوة يستفيدُ جَمْعَ الفِكرةِ، فلا تتبدّدُ منه خواطِرُه. وبالسُّكوتِ تقلُّ منه التَّبِعاتُ، كما وردَ في حديثِ معاذ: «وهل يَكُبُّ الناسَ على مَناخِرِهم في نارِ جهنّمَ إلّا حَصائدُ ألسنتِهم»[5].

---

(١) ع، س: الطريق.

(٢) في الأصل، س: أخذه، والمثبت من: ع.

(٣) في الأصل: عشرة، والمثبت من: س.

(٤) لا توجد في: س.

(٥) انظر: سنن الترمذي، ٢٦١٦؛ ومسند الطيالسي، ٥٦١؛ ومصنّف عبد الرزّاق، ٢٠٣٠٣؛ والمعجم الكبير، ١١٦؛ والمعجم الأوسط، ٧٥٠٣؛ وشعب الإيمان، ٢٥٤٩.

وبالصومِ تقلُّ منه الشهواتُ، فيحصُلُ الصفاءُ للباطنِ. وقال ﷺ: «الصومُ جُنّةٌ»، والجُنّةُ: السُّتْرَة. فهو إمّا سَتْرٌ عنِ الشهواتِ والزلّاتِ، و[إمّا سَتْرٌ](١) عن عذابِ الله يوم القيامةِ.

وأمّا الذِّكر فإنّ القلبَ محلُّ الفِكْرِ، والشيطانُ يُوسوسُ ويُسَوّل، فإذا أدامَ الذِّكرَ قطَع سلطانَه ولم يبقَ في القلبِ إلّا المذكورُ. وأفضلُ الذِّكْرِ: لا إله إلّا اللهُ، وقدِ اشتملتِ الكلمةُ على نفيٍ وإثباتٍ. فينفي عنِ القلبِ ما يدّعي الرُّبوبيّةَ والإلهيّة، مِنَ الهوى والنفسِ | والشيطانِ والشهوةِ. قال الله تعالى: ٦٩ظ
﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وثَبَّتَ(٢) فيه سلطانَ الحقِّ وجنودَه وعساكرَه، مِنَ العِلمِ والإلهامِ والقرآنِ والسُّنّة.

وأمّا التسليمُ فإنّه يُنْفَى به الاعتراضُ ويُحصّلُ به الرِّضَى والتفويضُ ومقدّماتُ التوكُّلِ، فمَن سَلَّمَ سَلِمَ، ومَن اعترضَ نَدِم. قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ويلزمُ مِن ذلك الرِّضَى بما يلزمُ(٣) مِن أحكامِ القدَرِ في أحوالِ العبدِ، مِنَ الرجاءِ والخوفِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والغِنى والفقرِ، وغيرِ ذلك مِنَ الوارداتِ الغيبيّة، والملاحظاتِ القلبيّة والمشاهدات الحِسّية.

قال سهلٌ: مَن صَحِبَ نفسَه هَلَكَ، ومَن صَحِبَتْه نفسُه لم يَسلَمْ، ومَن سَلَّمَ نفسَه إلى اللهِ تعالى، حَكَمَ اللهُ له على النفسِ أنْ تقومَ بأمرِه(٤).

وأمّا نفيُ الخواطرِ | فإنّه أصعبُ ما يُعانِيهِ السالكُ، وثمرتُه خُلُوُّ المحلِّ لما ٧٠و
يتجلّى عليه مِنَ الواردات.

وتوسُّط الغِذاءِ؛ لِما فيه مِن كثرةِ تحليلِ الفضلاتِ المُوجِبةِ لكثافةِ الطبعِ.

(١) زيادة اقتضاها السياق.
(٢) س: ويثبت.
(٣) ع، س: يظهر.
(٤) انظر: ذمّ الهوى، ٤٨.

وأمّا نومُ الغَلَبةِ، فلأنّ اليقظةَ حياةٌ، والنومَ موتٌ، والحياةُ أشرفُ مِنَ الموتِ.

وأمّا التسبيحُ، فلأنّه الدليلُ المُوصِّلُ والخيرُ الموقّف، فحقٌّ مُراعاتُه ومُوالاتُه فإنّه الأصلُ في إمدادِه؛ لفيضِ العلومِ عليه. فإذا حافظَ في سَيرِه[١] على هذه الخصالِ فُوتِحَ مِن خزائنِ الغيبِ بعجائبِ النَّوَالِ، وصُولِحَ مِنَ الأعداءِ، فلا تسليطَ لهم عليه في الحالِ والمآلِ.

واعلَمْ أنّ الشيخَ أصلٌ في تحصيلِ المقاصدِ وتوصيلِ الفوائدِ، وقد تكلّم أهلُ الطريقِ في صفتِه وشَرْطِه، وبيّنُوا ما يتعيّنُ مِن معرفتِه لهذا الشأنِ وضبطِه، وقد عَزَّ (*أو ندر*[٢]) في وقتِنا هذا مَن يَعرفُ ما كان عليه سلفُ هذه الطائفةِ، وما كانوا[٣] يتحلَّونَ به مِنَ الرُّسومِ الواصفةِ للمعاني التالدةِ والطارفةِ[٤]، فليس يليقُ بالعاقلِ | فيه إلّا الصبرُ على ما يَسمعُ ويرى، والعزلةُ عنِ المشاركةِ لما فيه أقامَ مَنِ ٧٠ظ
التَحَفَ بُرْدَ[٥] الجهلِ مِنَ الوَرَى.

واعلَمْ أنّ السالكَ له آفاتٌ في نفسِه لازمةٌ، ولِظهرِه قاصِمةٌ، منها تحسينُ أعمالِه وتزيُّن آمالِه، فما ينبغي أنْ يتحسّن له في عينِه عملٌ، ولا أنْ يتزيّنَ له أبدًا أمَلٌ. قال أبو سُليمانَ الدارانيُّ: ما استحسنتُ مِن نفسي عملًا فاحتسبتُ به[٦].

ومنها: إهمالُ تمييزِه بين المقاصدِ، والفرقِ بين الصحيحِ منها والفاسدِ، فإنّ النظرَ في ذلك أصلٌ مِنَ الأصولِ في تحصيلِ الوصولِ، وتركُه تضييعٌ لِما يريد أنْ يتصرّفَ فيه مِنَ المحصولِ.

ومنها: إقبالُ الخَلْقِ عليه، فإنّه فِتنةٌ قد تعجّلتْ إليه، وقاطِعٌ يَحُولُ عنِ استقرارِ المَعارفِ لديهِ، إلّا أنْ تَلحَظَهُ عنايةٌ وهدايةٌ تختلسُه عنِ السُّكونِ، وتَحبِسُه عن

---

(١) ع: سره.

(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) س: كان.

(٤) التالد: كلّ قديم من المال، وكلّ ما ورثه من الآباء. والطارف: كل ما استحدث من المال. انظر: تاج العروس (ت. ل. د) و(ط. ر. ف).

(٥) ع، س: برداء.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٧٠.

تعلُّقاتِ الظُّنونِ، وتُؤنِسُه بما يستوحشُ عنِ الركونِ، فإنّه إنْ[١] عزّ ذلك فإنّه لا محالةَ المطرودُ المفتونُ، المُبْعَدُ المَغبُون.

ومنها ما يتمكّن منه[٢] مِنَ التخيُّلاتِ النهاريّة، | تتجلّى له[٣] صُورُها من ٧١و المناماتِ الليليّة، فيَغترُّ ويعتقدُ أنّ تلكَ مكانةٌ عاليةٌ، وأنها مَرَاءٍ صادقةٌ، صادرةٌ عن أحوالٍ باديةٍ، والوقوفُ معها عند أهلِ الطريقِ لا محالةَ غرورٌ، والعُكوفُ على الاِشتغالِ بذكرِها حُزْنٌ[٤] ليس يَعقُبُه سرورٌ، فَلْيَستيقِظْ عن هذه الغفلةِ؛ فإنّها مُسقِطةٌ عن رُتبةِ السادةِ الأَجِلّة.

ومنها احتقارُ مَن لا يستندُ إلى رُكنِ جاهٍ أو مالٍ، وتعظيمُ مَن لهُ وَجاهةٌ وصورةٌ في حالٍ أو مآلٍ. وهذه مِحنةٌ لا يَسْلَمُ منها إلّا مَن أقامَ على نفسِه قِسطاسَ المُحاسَبةِ في كُلّ نيّةٍ أو فعالٍ[٥].

وأنواعُ الآفاتِ والعِللِ المُفسِدةِ للأعمالِ كثيرةٌ، وقد تقدّمَ التنبيهُ عليها بما يُغْنِي عنِ الزيادةِ لِمَن له بصيرةٌ[٦]. ومَن لم يَستقِمْ منه الاِبتداءُ، لم يَتِمَّ له الاِنتهاءُ. قال الجُنيدُ: أكثرُ العوائقِ والحَوائلِ والموانعِ في الأحوالِ مِن فسادِ الاِبتداء. وقال أبو يزيد: آخِرُ نهاياتِ الصِّدّيقِينَ أوّلُ أحوالِ الأنبياء، وليس لنهايات الأنبياءِ عِلمٌ يُدْرَكُ[٧]. وبهذا تمّ الفصلُ الأوّل.

---

(١) لا توجد في: ع، س.
(٢) ع، س: في نفسه.
(٣) في الأصل: لها، والمثبت من: ع، س.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٥) ع: فعل.
(٦) انظر فيما سبق ص ٩٩
(٧) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١: ٦٩.

الفصل الثاني

٧١ظ في بيان طُرَفٍ | من مصطلح القوم، لِيتميّز (*مِن تعلُّمِه*[١]) مَن يتحصّن في سِرّه عن الذمّ واللَّوم

اِعلَمْ أنّ كُلَّ طائفةٍ انتمتْ لِلاشتغالِ بعِلمٍ، فلا بدّ لها مِن مصطلحٍ في ذلك العِلمِ، حتّى يتميّزَ به أهلُه، ويُعرَفَ به عن غيرِه فضلُه وفصلُه، ويقعَ المَخاطَبُ[٢] به بينهم كما وقع للفقهاءِ والنُّحاةِ والمتكلّمين وغيرِهم، وكما وقع لأربابِ الصنائع، كالتجارة والحِياكة وغير ذلك.

فافتقرتْ هذه الطائفةُ إلى مصطلحٍ تُعبِّرُ به عن معلومِها في مقاصدِها، وتُخبرُ به عن مَصادِرها في مَعارِفها ومواردِها، حتى يقعَ الفرقُ بين مَنِ انتمَى إليها، وتخلّقَ بأخلاقِها، وتأدّبَ بطريقِها ومارَسَ عُلومَها، وبين مَن كان خَليًّا منها، مُعْرِضًا عنها، آخِذًا في غيرِ منهجِها، أو مُعاشِرًا لها قد تزيّا بِزِيِّها، ولم تَسْمُ هِمّتُه إلى طلبِ عِلمِها وفَهمِ مُصطلَحِها، فظنّ مَن رآه أنّه مِن عُلمائِها.

ومعَ ذلك، فإنّ العبارةَ والإشارةَ لا تُفيد لما يُرادُ للنفسِ الأمّارة مِنَ الطهارة، وإنّما يفيدُها ذلك ما تعامَل به مِنَ الإهانةِ والحقارة. فَلْيَعْمَلْ على ذلك

٧٢و | أربابُ الفطانةِ والبصارةِ.

قال بعضُ المتكلّمين لأبي العبّاس بنِ عطاءٍ: ما بالُكم أيُّها الصُّوفيّةُ اشْتَقَقْتُم ألفاظًا أغْرَبتُمْ بها على السامعينَ، وخرَجْتُم عنِ اللسانِ المُعتاد؟! هل هذا إلّا طلبًا للتمويه أو سَترًا لِعَوَارِ المَذهب؟!، فقال أبو العباس: ما فعَلْنا ذلك إلّا لِغَيْرتِنا عليه؛ لِعِزّته علينا، كَيْلا يُشيرَ بها غيرُ طائفتِنا[٣].

(*-*١) ع، س: بعمِله.

(٢) س: التخاطب.

(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٧٨، و٢٤٠، و٢٦٣.

وَلْنَشرَعْ فيما وَعَدْنا به مِنَ الألفاظِ المُتداوَلَة والكلماتِ المُتردّدة الحائلة، ونقول:

القول في الوقت

الوقتُ في اللغة: اسمٌ لزمنٍ متعيّن، كقولنا: وقتُ الزوالِ أو طُلوعِ الشمس أو غُروبِها.

وفي المُصطلَحِ: اسمٌ لحُكمٍ قائمٍ بالمحلِّ، فنُقِلَ عَنِ الزمن إلى ما لازَمَه، وهو الواقعُ فيه.

وقال الشيخ أبو عليٍّ الدقّاقُ: الوقت: ما أنتَ فيه[1]: إنْ كُنتَ بالدنيا فوقتُكَ الدنيا، وإنْ كنتَ بالعُقْبى فوقتُك العقبى، وإنْ كنتَ بالسُّرورِ فوقتُك السرورُ، وإنْ كنتَ (*بالخوف فوقتُك الخوفُ*٢)،[3].

قلتُ: يعني أنّ الحُكمَ لِما غَلَبَ على حالِ العبدِ مِنَ الصفةِ القائمةِ | به. وقال قومٌ: الوقتُ ما بين الزمانَيْنِ، الماضي والمُستقبَل[4]، وهو الحالُ، فأجْرَوهُ على أصلِه. ٧٢ظ

وقالوا: الصُّوفيُّ ابنُ وقتِه. أي مقطوعُ النظرِ عنِ الزمانَيْنِ، مشغولٌ بالأهمِّ مِنَ الأمرَيْنِ[5].

وقد قيلَ: الاشتغالُ بفواتِ وقتٍ ماضٍ تَضْييعُ[6] وقتٍ ثانٍ[7]. وقد يُطلِقُون الوقتَ على ما لا مَدْخَلَ للاختيارِ فيه مِن تصرُّفاتِ الحَقِّ في الخَلْق، كقولهم: فلانٌ بِحُكمِ الوقتِ، أي هُو مُستسلِمٌ مُنقادٌ لِما يَجري عليه مِنَ الأحكامِ[8].

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س، والرسالة القشيرية، ١٨٨.

(*-*٢) الرسالة: بالحزن فوقتك الحزن.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ١٨٨.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ١٨٨.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ١٨٨.

(٦) في الأصل: يضيّع. والمثبت من: س، الرسالة.

(٧) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٠.

(٨) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٠.

ومنه قولهم: الوقتُ سيفٌ[(١)]. أيِ التصَرُّفُ الواقعُ عنِ المقدورِ قاطعٌ للأعذار، فإنّه كحدِّ السيفِ القاطعِ لِمَا اتّصلَ به. فالحاذقُ الفَطِنُ مَن هو لِحُكمِ وقتِه مُتقِنٌ، إنْ كان صَحْوًا فبالشريعةِ، وإنْ كان مَحْوًا فبالحقيقةِ.

القول في المَقام

المَقامُ بالفتح: موضعُ الإقامةِ، لُغةً. قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وبالضَّمِّ: الإقامةُ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، كالمدخَلِ والمخرَجِ | ٧٣و بمعنى الإدخال والإخراج[(٢)].

وفي الاِصطلاح: ما نالَه العبدُ بأدبٍ مُوصِّلٍ وطلبٍ مُحصِّلٍ، وتَحقَّقَ به مِنْ خُلُقٍ للنقصِ مُكمِّلٍ، فلا يقعُ[(٣)] الاِرتقاءُ مِن مقامٍ إلى آخَرَ حتّى يُحْكِمَ أحكامَ ما قَبْلَه، فلا توبةَ لمن ليست له إنابةٌ، ولا وَرَعَ لمن لا زُهدَ له، ولا قناعةَ لمن لا توكُّلَ له، ولا توكُّلَ لمن لا تسليمَ له، وكذلك ما شابَهَهُ.

القول في الحال

الأحوالُ مواريثُ الأعمالِ، ولا إرثَ يَصِحُّ إلّا بعد تصحيحِ العملِ، فمَن لا عَمَلَ له صحيحًا، لا إرثَ له صريحًا. قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]، فجنّةُ العبدِ في الدنيا حالُه[(٤)] الحسنةُ معَ الله في ذاتِه حالةَ حياتِه، وسُمِّيَ حالًا لِسُرعةِ ارتحالِه وذَهابِه.

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٠.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩١.

(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) ع، س: حال.

فالمقاماتُ مَكاسبُ العمّال، والأحوالُ مَواهبُ الأفضالِ، فالمقامُ بالقيامِ على قَدم الاِجتهادِ حاصلٌ، والحالُ بالإنعامِ بالإمدادِ واصِلٌ، فحُكمُ المقامِ الثباتُ والتمكُّنُ، وحكمُ الحالِ الترقّي والتلوُّنُ، قد عَلِم كلُّ أُنَاسٍ مَشربَهُم | ، وفَهِمَ كلُّ فريقٍ مَطلبَهُم. ٧٣ظ

حُكيَ عنِ الجُنيدِ أنّه قال: الحالُ: نازلةٌ تَنزِلُ بالقلوبِ فلا تُدْفَعُ(١). وقال قومٌ بالبقاء والدوام للأحوال.

فإذا لم تَدُمْ (*ولم تتوالَ*٢) فهي بَوادِهُ ولوائحُ، وإنْ دامت فهي أحوالٌ عِندهم(٣).

قال الشيخ أبو عثمانَ الحِيريُّ: منذ أربعينَ سنةً ما أقامَنِي اللهُ في حالٍ فكَرِهتُه.

(*فهو إشارةٌ*٤) إلى دوامِ الرِّضَى، (*وإنّه يُعَدُّ مِنَ*٥) الأحوالِ(٦).

(*والحقُّ التفضيلُ، فمَن قال ببقائِها يُشيرُ إلى استصحابِ الواقعِ مِن شِرْبِها(٧)، حتى يتحكّمَ في ريِّها، ثمّ نفحاتُ طوارقَ(٨) لا تدُومُ، فإنْ دامت كدوامِ الأحوالِ ارتقى إلى أحوالٍ أُخَرَ، فلا يزالُ مُترقِّيًا، والله أعلمُ*٩).

---

(١) في اللمع وآداب المريدين: تدوم. وفي بعض نسخه كالمثبت.

(*-*٢) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س، الرسالة.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٤.

(*-*٤) الرسالة: أشار.

(*-*٥) الرسالة: والرضا من جملة.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٤.

(٧) من حظّها ومقامها. انظر: الرسالة القشيرية، هامش ٢، ١٩٤.

(٨) أحوال. انظر الرسالة القشيرية، هامش ٣، ١٩٤.

(*-*٩) الرسالة: «فالواجب في هذا أن يقال: إنّ مَن أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال، فقد يصير المعنى شِربًا لأحد فيربى فيه. ولكن لصاحب هذه الحال أحوال: هي طوارق لا تدوم فوق أحواله التي صارت شِربًا له، فإذا دامت هذه الطوارق له كما دامت الأحوال المتقدمة ارتقى إلى أحوال أخر فوق هذه وألطف من هذه، فأبدًا يكون في الترقّي».

القول في الخاطر

(*الخواطرُ أربعةٌ: مِنَ اللهِ، ومِنَ الملَكِ، ومِنَ النَّفْسِ، ومِنَ الشيطانِ*[١]). (*فالخاطرُ مِنَ اللهِ تنبيهٌ وإنعامٌ، ومِنَ الملَكِ تحريضٌ على خيرٍ وإلهامٌ، ومِنَ النفسِ هاجسٌ بشهوةٍ وإيهامٌ، ومِنَ الشيطانِ وَسْواسُ شرٍّ وإلمامٌ*[٢]). فيستمعُ بنورِ ٧٤و | التوحيد مِنَ اللهِ، وبنورِ المعرفةِ مِنَ الملَكِ، ويزدادُ[٣] بنورِ الإيمانِ على النفسِ، وبنورِ الإسلامِ على عدُوِّه الشيطانِ، وإذا اجتمعَ خاطِران أوّلُ وثاني[٤] مِنَ الحقِّ، فأيُّهُما تقدّم؟

قال قومٌ: هو[٥] الأوّل؛ لأنّه سابقٌ، وقال قوم: إنّه الثاني؛ لأنّه لاحقٌ. وقال قوم[٦]: هما سواء؛ لِنسبتِهما إلى الحقِّ[٧].

القول في الوارد

(*هو اسمٌ لِما ورَدَ على القلبِ مِن خاطرٍ محمودٍ، أو عِلمٍ مقصودٍ، بغيرِ كَسْبٍ أو تَسَبُّبٍ. وهو أعمُّ مِنَ الخواطرِ، (*فإن الخواطر*[٨]) تتعلَّقُ بنوعِ الكلام

(*–*١) الرسالة: «والخواطر خطاب يَرِدُ على الضمائر، وهو قد يكون بإلقاء مَلَكٍ، وقد يكون بإلقاء شيطان، ويكون أحاديث النفس، ويكون من قِبل الحقّ سبحانه».

(*–*٢) الرسالة: «فإن كان من الملَك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبل النَّفْس قيل له: الهواجس، وإذا كان من قبل الشيطان فهو: الوَسواس، وإذا كان من قِبل الله سبحانه وإلقائه في القلب فهو خاطرُ حقّ».

(٣) ع، س: ويزد.

(٤) كذا في الأصل بإثبات الياء، والوقوف على الاسم المنقوص النكرة المنوّن في حالتَي الجرّ والنصب أجازه يونس بن حبيب البصري. انظر: الكتاب، لسيبويه، ٤: ١٨٣ – ١٨٤.

(٥) لا توجد في: ع، س.

(٦) س: آخرون.

(٧) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٤٣.

(*–*٨) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

أو ما تضمّنَهُ[*١]. [*]والواردُ قد يكون سُرورًا أو حُزنًا، وقَبْضًا أو بَسْطًا، وما أَشبَهَه[*٢].

القول في الشاهد

وَرَدَ الشاهِدُ في لسانِهم على ما يَغلِبُ على اللسانِ ذِكرُه، ويَستولي على القلبِ فِكرُه، حتى كأنّه شاهِدٌ[٣] وإنْ غابَ عنه، يقولون: فلانٌ يشاهدُ العلمَ، أو يشاهدُ الوَجْدَ، أو يشاهد الحالَ[٤]. فمعناه: الخاطر. قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي حضَرَه.

القول في النَّفْس

فرّق قوم بين | الرُّوحِ والنفسِ. وآخَرُون قالوا: هما شيءٌ واحد. والصُّوفيّةُ ٧٤ظ
أطلقوا النفسَ على المعلولِ المذمومِ مِنَ الأفعالِ والمقاصدِ. ثمّ مِنه ما هو فِعلُ معصيةٍ، كالزِّنَا والسرقة، ومنه ما هو خُلُقٌ دَنِيٌّ في النفس، كالحَسَدِ والحِقدِ والغضبِ.. وغيرِ ذلك[٥].

وأنفعُ شيءٍ في [*]علاجِ النفسِ[*٦] احتقارُها وإهانتُها وحَمْلُها على ما تَكرَهُ، وهو مِن أعظمِ المُجاهَدات في حقِّها، ولأجْلِ ذلك قال ﷺ لمن قال له:

(*-*١) الرسالة: «ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة، ممّا لا يكون بتعمُّد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر، فهو أيضًا وارد».

(*-*٢) الرسالة: «والواردات تكون: واردَ سرورٍ، وواردَ حزنٍ، وواردَ قَبْضٍ، وواردَ بَسْطٍ ... إلى غير ذلك من المعاني».

(٣) ع: يشاهده.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٤٦.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٤٨.

(*-*٦) ع: علاجها.

أَوْصِني، ولا تُكْثِرْ عَلَيَّ فأنساهُ[١]، قال له: «لا تَغْضَبْ»، وذلك أنفعُ لها مِنَ المُجاهَدةِ بالسّفرِ[٢] والجُوعِ والعطشِ[٣].

وقال طائفةٌ: يجوزُ أن تكون النفسُ لطيفةً أُودِعَتْ في القالبِ، جُعلت مَحلًّا لمعلولِ الأخلاقِ كما كانت الرُّوح لمحمودِ الأخلاقِ. فالمحمودُ محلُّه القلبُ والرُّوحُ، والمذمومُ محلُّه النفسُ. واللهُ أعلمُ[٤].

القول في الرُّوح

أكثرُ أهلِ السُّنّة مِنَ المحقِّقينَ قالوا بحدَثِ الأرواحِ، وأنّ الرُّوحَ جِسمٌ لطيفٌ مُوْدَعٌ في الجسدِ، يبقى به حيًّا في العادةِ، مهما صاحَبَه.

فالإنسانُ هو[٥] الرُّوحُ | والجسدُ. (*والحَشْرُ واقعٌ على الجُملةِ*[٦])، ثمّ لِلرُّوح ٧٥و
عند النومِ للبدنِ فِراقٌ فيه إدراكٌ، ثمّ رجوعٌ عند اليقظةِ.

وقيل: الرُّوحُ الحياةُ فقط. والقائلُ بقِدَمِ الرُّوحِ مخطئٌ ضالٌّ[٧]، فلا يخرج على قولِه، واللهُ أعلمُ[٨].

---

(١) ع، س: فأنسى.

(٢) في الأصل: بالنفرة، والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٤٨ – ٢٤٩.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٤٩.

(٥) لا توجد في الأصل، س، والمثبت من: ع، والرسالة.

(*–*٦) الرسالة: والحشر يكون للجملة.

(٧) الرسالة: خطأً عظيمًا.

(٨) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٥٠.

القول في السرّ

أصلُ السرِّ ما استترَ، أي خَفِيَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، أي ما حدّثَ به العبدُ سِرًّا لغيره، وما أضمَرهُ في نفسِه.

وفي الاِصطلاح: (*هو لطيفةٌ خفيّةٌ[١] مُوْدَعةٌ في ذاتِ العبدِ، كالرُّوح*[٢])، والسرُّ[٣] مَحَلُّ المُشاهَدة، كما أنّ (*الروحَ محلُّ المحبّة*[٤])، (*والقلب محلُّ المعارف*[٥])، والرُّوحُ أشرفُ مِنَ القلبِ، والسِّرُّ أَلطَفُ مِنَ الروح[٦].

(*وقد يُطلقُ*[٧]) السرُّ على ما هو (*مكتومٌ مَصُونٌ*[٨]) بين العبدِ والربِّ[٩]، ومنه قولُهم: لو عَرَفَ زِرّي سِرّي لَطَرَحْتُه[١٠]. وقولُهم: الوَلَدُ سِرُّ أبيه. أيْ يُخفِيه حالةَ إيداعه[١١] في مُستقَرِّه. ومنه سُمّي النكاحُ سِرًّا؛ لأنّه يَخفَى عِند فِعلِه.

القول في النَّفَسِ – بفتح الفاء

النفَسُ لغةً: جذبُ الخَيَاشِيمِ لِلهواء | وإخراجُه منها. وفي المصطلحِ: عبارةٌ ٧٥ظ
عن فهمِ راحةٍ تُزيلُ تعبَ القلبِ بشمّ روائحِ نفحاتٍ تَرِدُ مِنَ الغيوب.

---

(١) س: خفيفة.
(*-*٢) الرسالة: يحتمل أنها لطيفة مودعة في القالب كالأرواح.
(٣) الرسالة: وأصولهم تقتضي أنها.
(*-*٤) الرسالة: الأرواح محلّ للمحبّة.
(*-*٥) الرسالة: والقلوب محلّ للمعارف.
(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٥١.
(*-*٧) الرسالة: ويطلق.
(*-*٨) الرسالة: مصونًا مكتومًا.
(٩) الرسالة: والحقّ سبحانه.
(١٠) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٥١.
(١١) في الأصل: أودعه.

(*فالوقتُ لِلابتداءِ، والنفَسُ لِلانتهاءِ، والحالُ متوسّطٌ بينهما*١). (*فلأصحابِ القلوبِ الأوقاتُ، ولأصحابِ الأحوالِ الأرواحُ، ولأهلِ الأنفاسِ السرائرُ*٢) (*ومِن ههُنا قال أربابُ التحقيق*٣): أفضلُ العباداتِ عَدُّ الأنفاسِ مع الله تعالى. (*فالمحبُّ لا بدّ له مِن نَفْسٍ لطيفةٍ وحضرةٍ. والعارفُ ليس كذلك؛ لِسَعتِه وتمكُّنِه وترك مُسَامَحَتِه*٤).

القول في الغلبة

قد تَطفَحُ المَوَاجِيدُ على القلوبِ، فيَحدُثُ عنها غَلَبَةٌ لا يُستطاعُ رَدُّها، فالغلبةُ حالةٌ تَظهَرُ على العبدِ (*يصطلِمُ على*٥) التمييز إلى النظرِ في السببِ والأدبِ، فربّما بدا منه ما يُوجِبُ الإنكارَ عليه، وهي تحدُثُ عن خوفٍ أو هَيبةٍ أو جَلَالٍ أو جَمالٍ أو حَياءٍ، وغيرِ ذلك. فإذا سكنَ هَيَجَانُ الغَلَيانِ، عادَ إلى ما عليه قد كان، ولا شعورَ له بما عنه قد بَانَ، فهذا مَعذُورٌ في حالِه، مَحصورٌ في تَقيُّدِ مَنالِه.

٧٦و فهذا شيءٌ من بيانِ المُصطلحِ يَفتقرُ إليه | مَن له هِمّةٌ تحتاجُ إلى فهمِ ما لهم من المعنى المُقترَح، ولهم أيضًا وراء هذا ألفاظٌ أُخَرُ تفتقرُ إلى شرحٍ وبيانٍ، كالقَبْضِ والبَسْطِ، والجَمْعِ والفَرْقِ، والفَنَاءِ والبقاءِ، والهَيْبَة والأُنْسِ، والصَّحْوِ والسُّكْرِ، والغَيْبَة والحُضُورِ، والمَحْوِ والإثباتِ، والسَّتْرِ والتجلّي ... وغيرِ ذلك مِنَ المصطلح الذي دُوِّنَ في الدفاترِ، ومُكِّنَ في السَّرائرِ، فمَن أرادَ يطلُبه مِن مصنّفاتِ هذا الشأن.

(*–*١) الرسالة: فكان صاحب الوقت مبتدئًا، وصاحب الأنفاس منتهيًا، وصاحب الأحوال بينهما، فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية الترقّي.

(*–*٢) الرسالة: فالأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، و الأنفاس لأهل السرائر.

(*–*٣) الرسالة: وقالوا.

(*–*٤) الرسالة: العارف لا يسلم له النفَس؛ لأنه لا مسامحة تجري معه، والمحبّ لا بدّ له من نفس؛ إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى؛ لعدم طاقته.

(*–*٥) ع، س: تصطلمه عن.

وطلبُ الِاختصارِ أوجَبَ لنا الِاقتصارَ عن إطلاقِ عنانِ البيانِ، إنما ذَكَرْنا أنمُوذجًا منه، ليقفَ عليه مَن هو مغرورٌ جهلُه باللسانِ. وبهذا تمّ الكلامُ في الفصلِ الثاني.

الفصل الثالث

في عِلم الأحوال والمقامات، وما نجني بثمرته الرياضات من السعادات

رياضةُ البَدنِ والنفسِ أعظمُ أصلٍ في الطريقِ لإزالةِ اللَّبْس. فأولُ ذلك مُفارَقةُ العوائدِ الذميمةِ، ومرافقةُ المقاصدِ الحميدةِ.

ومبدأ ذلك: الإنابةُ، ثمّ التوبةُ، ثمّ مجاهدةُ النفسِ، ثمّ العُزلةُ والخَلْوةُ، ثمّ الذِّكرُ لله باللفظِ والقلبِ، وعند | الأمرِ والنهي. ٧٦ظ

ولا بدّ له مِن معرفة أربعةِ أمورٍ: معرفةِ الربّ، والنفسِ، والموتِ، وما بعدَ الموتِ من الوَعْدِ والوَعِيد.

فالعارفُ باللهِ يقومُ بحقِّه، والعارفُ بنفسِه يقوم على تأديبِها بمُخالَفتِها، والعارفُ بالموتِ يُكثِر الِاستعدادَ لقُدومِه. والعارفُ بالوعدِ يُبادرُ لِلامتثال، والعارفُ بالوعيدِ يَحْذَرُ المُخالفةَ ليأمَنَ[1] عنِ الخِزي والنَّكال، وقاعدةُ ذلك المراعاةُ لحقِّ الله.

والمُراعاةُ تقعُ في ثلاثةِ وُجوهٍ: الوفاءِ والأدبِ والمُروءة. فأمّا الوفاءُ: فإقبالُ القلبِ على الربِّ بعمارةِ الفِكْرِ بالقُربِ والحُبِّ.

وأمّا الأدبُ: فمُلاحظةُ الخَطَراتِ، ومحافظةُ الأوقاتِ، ومُجانَبةُ الفَتَراتِ، ومعالجةُ الحسراتِ ومُعاجَلَةُ الثمراتِ.

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

وأمّا المُروءة: فارتكابُ المكارمِ، واجتنابُ المَحارمِ، واعتبارُ الذِّكر المُلازم، واقتيادُ الفِكَرِ لإفادة المكارم[١].

وللسلوكِ مبدأٌ ومُنتهى:

فعلى المبتدئ أنْ يَلزمَ عَشْرَ خِصالٍ: خمسٌ يتركُها وخمسٌ يفعلُها. أولُها: تركُ الحَلفِ بالله بارًّا وحانِثًا. وثانيها: تركُ الكذب جادًّا وهازلًا. | ٧٧و وثالثُها: تركُ اللعنِ لأحدٍ من الخَلق. ورابعُها: تركُ الدعاءِ وإنْ ظُلِم. وخامسُها: ترك السُّؤال للخَلْقِ. وسادسُها: غضُّ البصرِ عن النظَر. و[سابعُها][٢]: حِفظُ القلبِ عن الفِكَرِ، و[ثامنُها][٣]: الإياسُ عمّا في أيدِي الناس. و[تاسعُها][٤]: اعتقادُ أنّ كلَّ أحدٍ خيرٌ منه. و[عاشرُها][٥]: التوقُّف عنِ الحُكمِ بالكُفرِ والنفاقِ والشِّرك على أحدٍ مِنَ الخَلْق. فإذا راضَ نفسَه على هذه الأخلاقِ ترقّى عنها إلى ما يَرِدُ عليه من مَواهبِ الأخلاق.

ولِلمُنتهَى طُرقٌ إليه مُوصِّلةٌ، ووجوهٌ للمقصود منه مُحصِّلةٌ، ومَقاصدُ القولِ في ذلك مختلفةٌ على قَدْر ما يقوم به عند النطقِ مِنَ الصفةِ.

رُوِيَ عن بعضِهم أنّه قال: التصوُّف له ظاهرٌ وباطنٌ [وسِرٌّ][٦]. فظاهرُه: قَطعُ العلائقِ. وباطنُه: هَجْرُ الخلائقِ. وسِرُّه: تجرُّدٌ متعلِّقٌ بالخالقِ، فعلامةُ قطعِ العلائقِ: أنْ يَجذِبَ كُلَّ شيءٍ إلى اللهِ، ولا يَجذِبَهُ شيءٌ عنِ اللهِ.

---

(١) ع، س: المراحم.
(٢) زيادة اقتضاها السياق.
(٣) زيادة اقتضاها السياق.
(٤) زيادة اقتضاها السياق.
(٥) زيادة اقتضاها السياق.
(٦) زيادة اقتضاها السياق.

وعلامةُ هَجْرِ الخلائقِ: تجريدُ الجَسدِ عن أنْ يكون عليه (*أثرٌ لمخلوقٍ*[١]) بالسكون إليه والاِشتغالِ به.

ورُوِيَ أنه سُئل الجُنيدُ عنِ التصوُّف، فقال: اسمٌ جامعٌ[٢] لعشَرةِ مَعانٍ: الأوّلُ: التقليلُ[٣] مِن كلِّ شيءٍ مِنَ الدنيا عنِ (*التكثُّرِ منها*[٤]). الثاني: | ٧٧ظ اعتمادُ القلبِ على اللهِ مِنَ السُّكونِ إلى الأسبابِ. الثالثُ: الرغبةُ في الطاعةِ[٥] مِنَ التطوُّعِ والفضائلِ عند وجودِ العافيةِ[٦]. الرابع: الصبرُ عند فَقْدِ الدنيا عَنِ الخروجِ إلى المسألةِ والشكوى. الخامسُ: التمييزُ في الأخذِ عِند وجودِ الشيءِ. السادسُ: الشُّغلُ باللهِ عن سائرِ الأشغالِ. السابعُ: الذِّكرُ الخفيُّ (*مِن سائرِ*[٧]) الأذكارِ. الثامنُ: تحقيقُ الإخلاصِ مِن[٨] دخولِ الوَسوسةِ. التاسعُ: اليقينُ مِن دخولِ الشكِّ. العاشرُ: السُّكونُ إلى الله تعالى مِنَ الاِضطرابِ والوَحشةِ[٩].

وقال أبو الحسين محمّدُ بنُ أحمدَ الفارسيّ: أركانُ التصوُّفِ عشَرةٌ: أوّلُها: تجريدُ التوحيدِ، ثمّ فهمُ السماعِ، ثمّ حُسنُ العِشْرةِ، وإيثارُ الإيثارِ، وتركُ الاِختيارِ، وسُرعةُ الوَجْدِ، والكشفُ عنِ الخواطرِ، وكثرةُ الأسفارِ، وتركُ الاِكتسابِ، وتحريمُ الاِدّخارِ[١٠].

قلتُ: فتجريدُ التوحيدِ: هو قطعُ النظَرِ عن التشكيك والترديدِ فيما يجبُ ويجوزُ ويستحيلُ مِنَ التعطيلِ والتشبيهِ، بما أُعطيَ مِن نورِ التأييدِ | ٧٨و والتسديدِ.

(*–*١) س: أثرُ المخلوق.

(٢) زيادة من الحِلْيَة.

(٣) في الأصل: القليل، والمثبت من الحلية.

(*–*٤) الحلية: التكاثر فيها

(٥) الحلية: الطاعات.

(٦) الحلية: العوافي.

(*–*٧) الحلية: عن جميع.

(٨) الحلية: في.

(٩) انظر: حلية الأولياء، ١:٢١.

(١٠) انظر: التعرُّف لمذهب أهل التصوّف، ٨٩.

وفَهمُ السماعِ: أنْ يستمعَ بالحالِ، ولا يتوقّفَ على القيلِ والقالِ، وأنْ يُفرّقَ بين سماعِ النفسِ والرُّوحِ والقلبِ، فيعمل في كلِّ شيء بحسبه.

وحسنُ العشرة: مع نفسِه بتأديبِها، ومع الخَلقِ بتعظيمِهم، ومع اللهِ بلُزوم الأدبِ بين يديه.

وإيثارُ الإيثارِ: أنْ يُؤْثِرَ غَيْرَه على نفسِه بما فيه إيثارٌ، لِيَحصُلَ ثوابُ الإيثار لغيره.

وتركُ الِاختيارِ: أنْ يسترسلَ في مُراداتِ اللهِ مِن غيرِ اعتراضٍ[1] على شيءٍ منها.

وسرعةُ الوَجْدِ: أنْ يتوسّطَ الأمرُ عِنده بين الِامتلاءِ والفراغِ ممّا يُثير الوَجْدَ ويمنعُه[2]، فلا يمتلئُ سِرُّه بحيثُ لا يَنتفعُ بزاجرٍ، ولا يَفزعُ بحيث لا يتأثّرُ لقاهرٍ.

وكشفُ الخواطرِ: هو أنْ يجتهدَ في البحثِ عن[3] خاطِره، فيتبع ما نشأ عنِ الحقِّ، ويجتنب ما سواه.

وكثرةُ الأسفارِ: ليشهدَ فيها وجودَ الِاعتبارِ في الآثارِ، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، أي سِيروا فيها | بنورِ اليقظةِ والمعرفةِ لا بظلمةِ ٧٨ظ الغفلةِ والفكرة لقطعِ وصولِ الأسبابِ، ووَصْلِ قطعِ الأربابِ.

وتركُ الِاكتسابِ: لحملِ النفسِ على التوكُّلِ، وتركِ الِاضطرابِ.

وتحريمُ الِادِّخارِ؛ لأنّه من أظْهَرِ الشِّعَار على وجودِ الِافتخار بالِافتقارِ. وهذا على حكمِ الحالِ والِاختيارِ، لا على حكمِ العِلمِ والِاختبار، كما أخبر النبيّ ﷺ عنِ الذي مات من أهل الصُّفَّةِ وتَرَكَ دِينارًا أو دينارَينِ، فقال: «كَيّةٌ أو كَيّتانِ من نارٍ»[4].

---

(١) س: إعراض.

(٢) س: أو يمنعه.

(٣) ع، س: على.

(٤) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ١٢٠٢٢، و١٢١٤٧؛ والمعجم الكبير، ٨٠٠٨.

فهو مخصوصٌ لمن(١) تظاهرَ بصفةِ القومِ، وتعاطى ما كانوا عليه مِن تركِ الاِقتناء والاِدِّخارِ لشيءٍ مِنَ المعلوم(٢)، فإنْ خالَف فقد أتى بمعصيةٍ يستحقُّ عليها العقوبةَ، ويَنزِلُ هذا مَنزلةَ النِّفاقِ في تحريمِهِ، وهو إظهارُ خلافِ(٣) ما يُبْطِنُ.

فأمّا مَن تظاهَرَ بالأسبابِ وتعاطاها، ولم يتظاهَرْ بالزَّهَادةِ، فلا يَحرُم عليه الاِدّخارُ لمصلحةٍ يتوقّعُها في غيرِه، وكما كان النبيُّ ﷺ يدّخرُ لعائلتِه | قُوتَ ٧٩و سَنتِهِم، وكان في خاصّةِ نفسِه لا يدّخرُ شيئًا لغدٍ؛ لِتَمكُّنِ مقامِه في توكُّلِه، وعامَلَ عِيالَه المعاملةَ الشرعيّة المُسقِطة لتحمُّل المنّة منهم في إهمال أمرِهم.

قلتُ: وقد وقَع لي في وقتٍ فكرةٌ عَرَضَتْ: أنّ التصوُّفَ يَنبني على أربعةِ أركان: تعلُّق، وتوثُّق، وتخلُّق، وتحقُّق.

فالتعلُّقُ: يكونُ بصحبةِ هذه الطائفة والاِقتداءِ بهم وبشيخٍ معينٍ يَسلكُ الطريقَ(٤) على يدِه حتى يَتّصِلَ به إلى مَقصِدِه.

والتوثُّقُ: بإقامةِ فرضِ الأمرِ والنهي على الظاهرِ والباطنِ.

والتخلُّقُ: رياضةُ النفسِ، تَحمِلُها على المَشاقِّ حتى تُذعِنَ وتُجيبَ، وذلك بنفي الصفاتِ الذميمةِ عنها، وإثباتِ الصفات الحميدةِ لها، وقد تقدّم بيانُ ذلك.

والتحقُّقُ: هو الاِتّصافُ بصفاتِ الكمالِ مِنَ التجلّي بمقاماتِ المُوقِنين، مِنَ التوكُّلِ واليقينِ والزُّهدِ والوَرَعِ والمعرفةِ والمحبّةِ والشوقِ والفَناءِ والبقاءِ والوَحدةِ والتوحيدِ ... وغير ذلك، | فهذا يجمعُ منه ما قد تفرَّقَ، وينفعُ مَن كان اللهُ ٧٩ظ بقبولِه قد وَفّق.

---

(١) ع، س: بمن.

(٢) ع: العلوم.

(٣) في الأصل: أخلاق.

(٤) لا توجد في: ع، س.

فائدةٌ وافدةٌ بالإفادةِ عائدةٌ

مقاصِدُ العلومِ متعدِّدةٌ، ومَواردُ الفهومِ مختلفةٌ متبدِّدةٌ، ولكلِّ عِلمٍ غايةٌ، إذ كان المنظورُ فيه له بدايةٌ ونهاية، كالنظرِ في الأحكامِ الشرعيّة، فإنّ مدارَها على الأحكامِ الظاهرة في المتكلّفينَ[١].

فأمّا عِلمُ التصوُّف فإنّه يلتفتُ على أصلَينِ لا نهايةَ لهما: النظر في التوحيدِ، والاِعتبار في الموجودات.

ومِن ذلك النفسُ والحكمُ عليها وعلى جسدِها ظاهرًا وباطنًا، وعلى ما يقوم به وبها، والعِلمُ بالتمييزِ بين صفاتِها وما هي في ذاتِها. فمِن أجلِ ذلكَ عَظُمَ قَدْرُه، وعُلِم فخرُه، وهو مُستمَدٌّ من نورِ البصيرةِ التي هي مبدأُ السعادة عند أهل الإرادةِ التي أخبر الله عنها بقولِه الحقّ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فمَن قذفَ اللهُ في قلبِه شيئًا مِن نورِ العنايةِ
٨٠و نشر له عَلَمَ الهِدايةِ | وجعَلَه حُجّةً على أهلِ الغَوايةِ، ودليلاً مُرشدًا لضالٍّ في سُبُلِ العَمايةِ.

وعلومُ هذه الطائفةِ مَواجِيدُ تَرِدُ عليهم عن[٢] سوابقِ أعمالٍ حصلت لديهم، وأحوالٌ ورثوها[٣] عن[٤] أعمالٍ صحّحوها، فلا يرثُ الأحوالَ إلّا مَن صحّحَ الأعمالَ[٥]، وأوّلُ ذلك: معرفةُ علوم الشريعةِ المُتعيِّنِ عِلمُها[٦] مِن أصلَي الدينِ والفقهِ وفُروعِه المشتملةِ على عِلم العباداتِ مِنَ الطهارةِ والصلاةِ والصومِ،

(١) ع، س: المكلّفين.
(٢) التأييد: من.
(٣) لا توجد في: س.
(٤) التأييد: من.
(٥) التأييد: الأحوال.
(٦) التأييد: عليها.

والعاداتِ مِنَ البيعِ والنكاحِ، والجناياتِ مِنَ الحدودِ والقصاص، وغير ذلك ممّا لا غِنًى له عنه.

وأحكامُ عِلمِ التوحيد والمعرفةِ على طريق الكتاب والسُّنّة والسلفِ الصالح دون التعمُّق في البحثِ عن دقيق الشُّبَه وغوامضِها، فإنْ وُفِّقَ في مُبتدإِ الأمر إلى ذلك لِرَدِّ شبهةٍ تعترضُ له، فلا بأس، فإذا حصَلَ مِن علمِ الشريعة على ما فيه له كفايةٌ مِنَ العِلمِ بأحكامِ الظاهر، وهو عِلمُ الكسب، استعمَل ما عَلِم، وجَدَّ في الخدمة ما استطاع.

فأوّلُ ما | يلزمُه: البحثُ عن آفاتِ النفسِ وعِلَلِها، ومعرفةُ دَخَلِها وخَلَلِها، ٨٠ظ
وتهذيبُ شَرِسِ أخلاقِها، وتهذيبُ جِماحِها برياضتِها، والتوصُّلُ إلى سَدِّ طُرق أبوابِ فتنةِ الدنيا ومكائدِ العدوِّ الذي هو الشيطانُ عنها، والاِجتهادُ في الاِحترازِ منها، وهذا هو أجلُّ عِلمِ الحكمة، الذي قال اللهُ فيه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فإذا تربّتِ(١) النفسُ على ما أقامها فيه مِن هذه الحالاتِ، ورتّب عليها مِنَ الوظائفِ، ولانَتْ طِباعُها عنِ القساوةِ (*وأخلاقُها عن الفظاظةِ والغباوة، وتَطَهّر ظاهرُها*٢)، وصَفَا باطنُها؛ تمكّن السالكُ حينئذٍ من مراقبةِ خواطرِها(٣)، وتصفيةِ سرائرِها(٤)، وهو المُعبّرُ عنها بعِلمِ المعرفةِ، ولسانُ العبارةِ يُفْصِحُ عنه، ثمّ بَعدَه عِلمُ الخواطرِ والمُكاشَفاتِ والمشاهَداتِ، وهو الموصوفُ بعِلمِ الإشارة. وهذا العِلمُ مِن خصائصِ الصُّوفيّة بعد مشاركتها في العلوم المشهورةِ المذكورة، وإنما قيل له عِلمُ الإشارة؛ لأنّه يَقْصُر عنه(٥) | لسانُ العبارة؛ لأنّه عِلمُ ذوقٍ ومُنازَلةٍ ٨١و

(١) التأييد: تمرنت.
(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٣) التأييد: خواطره.
(٤) التأييد: أسراره.
(٥) التأييد: عن.

ومَواجيدَ متواصلةٍ، فلا ينحصرُ ذلك في عبارةٍ لقائل، (*وإنما يجري على اللسانِ ما هو نفعٌ وتعليمٌ لقابلٍ*١).

فقد رُوِيَ مُرسَلًا من حديثِ سعيدِ بنِ المُسيِّبِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ مِنَ العِلمِ كهيئةِ المكنونِ لا يعرفُه(٢) إلّا (*أهلُ المعرفةِ*٣) باللهِ، فإذا نطقوا به لم يُنكِره إلّا أهلُ الغِرّة باللهِ»(٤). ورُوِيَ مُسنَدًا مِن حديثِ عطاءٍ عن أبي هريرةَ، إلّا أنّه قال: «لا يَعلمُه إلّا العلماءُ باللهِ»(٥).

وأنشدوا لِلشِّبْلِيِّ:

[البسيط]

عِلمُ التصوُّفِ عِلمٌ لا نفادَ له ... عِلمٌ سَنيٌّ سماويٌّ رُبُوبيّ
فيه الفوائدُ للألبابِ(٦) تعرفُها ... أهلُ الجزالةِ والصُّنْعِ(٧) الخصوصيّ

فلكلِّ مقامٍ ابتداءٌ وانتهاءٌ، وبينهما في الأحوالِ تفاوتٌ، ولكلِّ مقامٍ عِلْمٌ، ولكلِّ حالٍ إشارةٌ.

ومِن ذلكَ اختلفتِ العباراتُ وتفاوتتِ الإشاراتُ، ثمّ إنّا نقولُ (*لمن صَرَفَ*٨) هِمّتَه إلى النظرِ في هذا العِلمِ إنّ له مُبتدأً ومُنتهًى، وهو يشتملُ على مقاماتٍ مبنيّةٍ | وأحوالٍ سِرِّيَّة. ٨١ظ

(*–*١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) ع: يعلمه.
(*–*٣) في الأربعون: العلماء.
(٤) انظر: الأربعون في التصوّف، ٣٢.
(٥) تأييد الحقيقة، ١٢٢–١٢٣.
(٦) س: للأبواب.
(٧) ع، س: الصقع.
(*–*٨) ع، س: ليعلم من صرف شيئًا من.

فأوّلُه سَبْقُ العنايةِ بإلقاءِ إلهامِ اليقظةِ مِنَ الغفلةِ في القلبِ، وذلك هو التوفيقُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨].

فيحدثُ عنه الإنابةُ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، فإذا قويتِ الإنابةُ وأسلمَ نفسَه - لمن قصدَ تسليمَ نفسِه - لمن يَسُوسُها ويُربّيها ويُصلحُ فسادَها ممّن ظهرَ نُصْحُهُ واشتُهر عِلْمُه بهذا الشأنِ، فألقى بها بين يديه ليُداويَ أمراضَها ويُبْرِئَ أسقامَها، وذلك هو الشيخ المشارُ إليه على لسانِ هذه الطائفةِ. وليَدخُل إليه بلا شيءٍ، لكي يعُودَ منه بكلِّ شيء. قال أبو يزيد رحمه الله: كُنْ بلا شيءٍ حتى يكُونَ لك كلُّ شيء.

(*ومَدارُ هذا*¹) العِلمِ - في المبتدإ - على المُراقَبةِ بتمييزِ الأوقاتِ والنظرِ فيها، واعتمادِ الأهمّ فالأهمِّ، مِن عمارةِ الوقت بالأَوْلى فالأولى. كما حُكِيَ عنِ الجُنيد - رحمه الله - أنّه قال: لن يصلَ إلى قلبك رُوحُ التوحيد، وله عليك حقٌّ لم تُؤدِّه.

وكما سُئل عمّن لم يَبقَ عليه مِنَ الدنيا إلّا مقدارُ مَصِّ نَواةٍ، فقال: | المُكاتَبُ ٨٢و
عبدٌ ما بَقِيَ عليه دِرهمٌ(٢).

ومدارُه في المنتهى على ثلاثِ مراتب: عِلْم العبوديّة، وعلم المعرفة، وعلم الرُّبوبيّة. فالعبوديةُ: التعبُّدُ بالِافتقار وأخذِ قَدْرِ الحاجةِ عند الِاضطرار. والمعرفةُ: قبضُ لسانِ الاعتذارِ، وبسطُ لسانِ الفضلِ والِاقتدار. والرُّبوبيّةُ: نظرٌ في تصريفِ الأقدارِ بتعريفِ المِقدارِ، وثمرٌ يُجنَى مِن أشجارِ الِاصطِبارِ على الوفاء بتركِ عهدِ(٣) الِاختيار. وشرحُ ذلك يطُولُ عِند مَنْ له فَهْمٌ لفَهْمِ الأصولِ(٤) وصولٌ.

فإذا عُلِمَ ذلك، فنقول: اِعلَمْ أنّ التصوُّف ثلاثةُ(٥) مقاماتٍ: آدابٌ، وأخلاقٌ، وأحوالٌ.

(*-*١) س: ومدارها.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٢.

(٣) لا توجد في: ع.

(٤) على الهامش الأيسر إشارة إلى أنه في نسخة أخرى: الوصول.

(٥) في الأصل، س: ثلاث.

فالآدابُ: واقعةٌ عنِ الِاكتسابِ، والأخلاقُ: عنِ الِاقتداءِ والِانتسابِ، والأحوالُ: عنِ المواهبِ والِاقترابِ.

فأعظمُ الأدبِ إقامةُ النفسِ في موقفِ الذُّلِّ والتعبِ، وإدامةُ اطِّراحِ المرادِ لها في الأمنِ والعطَبِ والِاعتدالِ (*في الرّضا*١) والغضبِ.

وأتمُّ الأخلاقِ لها سلامةُ الفِكرِ عنِ الطلبِ للغَلَبِ، وملامةُ[٢] السرِّ عند ٨٢ظ الطربِ | بشيءٍ مِنَ الأَرَبِ. وأسلمُ الأحوالِ لها ما أحالَها عن دَنِيِّ الرُّتبِ، وسنَّى لها سَنِيَّ القُربِ. وهذا المقدارُ[٣] إنما يفهمُه مَن له إشرافٌ على الرُّتبِ. وسيأتي الكلام إنْ شاء الله بعد ذلك مُفصَّلًا[٤].

وقد تكلّم أهلُ الطريقِ في هذا الشانِ، وصنّفوا مصنّفاتٍ واضحةَ البيان، واختلفتْ مقاصدُهم في التصنيفِ بحسَبِ ما وقع لهم مِنَ الإلهامِ والتعريفِ على قَدْرِ ما وقف فيه أحدُهم مِنَ المقامِ، وصُرِف إليه مِن انتظامِ المَرام.

وهذا على ما يمنح اللهُ الأفهامَ (*مِن فضْلِ الإفْهَام*٥)، ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُولِّيها، وشِرعةٌ يصطفيها ويقتفيها، ولم يتّفقُوا[٦] على مَقصِدٍ واحدٍ فيما بين ذلك القوابل، افترقوا فيما فيه صنّفوا. فمنهم مَنِ اختصرَ فيما ذَكَرَ، ومنهم مَن طوّل فيما أملى فَأَمَلَّ، ومنهم مَن أجملَ، ومنهم من فصّل، ومنهم مَن جَمَعَ الحكاياتِ ولم يُلَخِّصْ ما فيها مِنَ النُّكتِ والإشاراتِ، ولم يُميّز بين المقاماتِ، ولم يُجيز[٧] القولَ إلى تحريرِ العباراتِ.

٨٣و وقد تقدّم الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلميّ، وقبلَه | الحكيمُ التِّرمذيّ، وبعدَه الأستاذ أبو القاسم القشيري، وقَبْلَهُ أبو نصرٍ السرّاج وغيرُهم. وأبو محمّدٍ إسماعيلُ

(*–*١) لا يوجد في الأصل، س، والمثبت من: ع.

(٢) س: وملازمة.

(٣) ع، س: القدر.

(٤) انظر فيما سيأتي ص١٥٨–١٩٨.

(*–*٥) س: يقتفوا.

(٦) ع: العنايات.

(٧) الصحيح: يُجِز

بنُ (*أحمدَ بن الفرات السَّرْخَسيّ الشافعيّ*١) له كتاب: «درجات التائبينَ ومقامات الصدّيقين»(٢)، وأبو إسماعيل عبد الله بن محمّد الهرويّ، له: «مقامات الراغبين إلى منازلِ السائرين»، وحَذَا كلُّ واحدٍ منهما حَذْوًا حسنًا. إلّا أنّ «مقامات الراغبين» أحسنُ ترتيبًا وأكثرُ تهذيبًا.

ونحن نختصر ما يَنتفِعُ به مَن يَرغبُ إلى الِاقتداءِ بالِاهتداءِ، ويَرهَبُ مِنَ الِاعتداءِ في الِابتداءِ والِانتهاءِ.

ونقول: المُتوجِّهون ضربان: مُريدٌ، ومُرادٌ. وهما السالكُ، والمجذوبُ.

فالمريدُ: هو الشخصُ السالكُ بترتيبٍ وتدريجٍ على قَدَمِ المراقَبةِ والمحاسبةِ، فهو عاملٌ بين الرجاءِ والخوفِ، طالبٌ للترقّي في المقاماتِ والأحوالِ، إلى أنْ يتّصلَ بمنازلِ الرجالِ.

والمرادُ: هو المأخوذُ عن بساطِ الغفلةِ إلى صراطِ يقظتِه المُعتنَى به عنِ استلابه مِن عَناءِ فُرقتِه إلى راحةِ جمعِه عن تبدُّدِه وتشتُّتِه | . ٨٣ظ

ومَن عداهُما، فمِن أصحابِ الخُدعِ والدعاوي الداعية إلى الإلقاء في المَهاوي.

ويجمع المقاماتِ ثلاثُ حالاتٍ: ابتداءٌ، وتوسُّطٌ، وانتهاءٌ.

الحالةُ الأولى: الِابتداءُ: وهو الشُّروع في مسلوكِ(٣) الطريقِ، وبه يحصُل الخروجُ إلى السَّعة مِنَ المضيقِ.

الثانية: التوسُّطُ: وهو الِانتقالُ عن مألوفِ العوائد إلى معروف(٤) الفوائد، وبه يحصُل التبديل، ويتصل عن عالم الشهادة التحويل. قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، تبدُّلُ أرضِ الأنفُسِ

(*-*١) في الأصل، ع، س: إبراهيم بن محمّد بن عبد الرحمن الهرويّ الفقيه المقرئ. وهذا خطأ؛ لأن هذا العنوان منسوب إلى من أثبتناه في المتن. ومن المحتمل وقوع النساخ في انتقال نظرٍ بينه وبين الاسم التالي عليه.

(٢) في الأصل، ع، س: القاصدين. والمثبت من كشف الظنون.

(٣) ع، س: سلوك.

(٤) في الأصل: معرفة، والمثبت من: ع، س.

الجَذْبة عن عبثِ الفكرةِ الصالحةِ المُنبِتةِ لثمرةِ الحكمةِ بأرضِ القلوبِ الطيّبةِ والأرواحِ الزكيّةِ التي أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ، تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بإذن ربِّها.

(*وتبدُّلُ السّمواتِ بالتطلُّعاتِ*[١]) إلى طلبِ الزيادات بكثرةِ المعاناةِ للرياضاتِ، بسموات الموافقات باطِّراحِ الإراداتِ، وذلك أشرفُ الغاياتِ[٢].

الثالثة: الِانتهاء: وهي دوامُ المعاملةِ في قيامِ المشاهَدة، ونظامُ المواصَلةِ في
٨٤و تمامِ المساعَدة، وهي الحالاتُ | الثلاثُ. هي متنزِّلةٌ على الحالات[٣] الواردة في حديث جبريلَ عليه السلام، وهي الِانقيادُ بالسلوكِ بالأعمالِ، والإيمانُ وهو التصديق، وهو انتقالٌ عنِ التكذيب، وهو العادةُ المألوفة، لكنّه تصديقٌ يختصُّ بعالَم الغيبِ. والإسلامُ يختصُّ بعالمِ الشهادةِ، فإنّه عملٌ، والإيمانُ اعتقادٌ.

وقد قال تعالى واصفًا لهم، مادحًا لفعلِهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣].

والإحسان: وهو أنْ تعبُدَ اللهَ كأنّك تراهُ، فالإحسانُ له[٤] مراتبُ، فغايتُه الحضورُ مع الله بالفناءِ عن رؤيةِ الفناءِ فيه، وعند ذلك تُعدمُ الإراداتُ العاديةُ، وتبقى المراداتُ الإلهيّة، وتُمحى الصفاتُ البشريّةُ بإثباتِ المعاني الرُّوحانيّة.

فالحالةُ الأولى (*تُنَالُ بثلاثةِ*[٥]) أسبابٍ: أحدُها: الشيخُ الموفّق. وثانيها: الذِّكرُ بشروطِه المعلومة عند أهلِه. وثالثُها: تحكيمُ الأدبِ على النفسِ بمراعاةِ الحركاتِ والسكَناتِ ظاهرًا وباطنًا. صحّ في الذِّكرِ مِن حديثِ أبي هريرة
٨٤ظ | عنِ النبيّ ﷺ [أنه كان يسيرُ في طريقِ مكّةَ، فمرَّ على جبلٍ يقال له:

(*-*١) س: وتدرك سموات التطلعات.
(٢) ع: المعاناة.
(٣) س: الحالة.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(*-*٥) في الأصل: إلى ثلاثة، والمثبت من: ع، س.

«جُمْدَانُ»، فقال:][١] سِيرُوا [هذا جُمْدَانُ][٢] «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ». قالوا: وما الْمُفَرِّدُونَ يا رسولَ الله؟، قال: «الذّاكِرُونَ اللهَ كثيرًا والذاكراتُ»، أخرجه مسلم[٣].

قلتُ: فالذِّكرُ أعظمُ الأسبابِ الْمُوصّلةِ للسعادةِ، الْمُحصِّلةِ لإفادةِ الزيادة، لكنْ بسلامةٍ[٤] مِنَ العِللِ والنّواقصِ[٥]، (*وطهارتِه من الدّخلِ والنّواقضِ*٦).

والحالةُ الثانية: تُنالُ بإثباتِ المحمود مِنَ الصفاتِ، ونفيِ المذمومِ منها على جميعِ الحالاتِ. وقد تقدّمَ بيانُ المحمودِ والمذمومِ، وما به يقعُ التخلُّق، وما يُقطَعُ مِنَ العقباتِ حتى يوجدَ التمكُّن في التعلُّقِ بما فيه كفايةٌ.

وقد رَوَيْنا من حديث عليٍّ بنِ أبي طالبٍ - كرّم اللهُ وجهَه - عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «طلبُ الحقِّ غُربةٌ»[٧].

قلتُ: يحتملُ أنْ يُرِيد بقولِه: «طلبُ الحقِّ»: اللهَ سبحانه وتعالى، فإنّه هو الحقُّ المطلقُ، ويُطلقُ على غيرِه بلواحقَ وقيودٍ، وبالغُربةِ: البُعدَ عن حظوظِ النفوسِ وشهواتِها. ويحتملُ أنْ يريد بالحقّ[٨] ما هو ثابتٌ، وطلبُه مشروعٌ مِنَ الأعمالِ المقرّبةِ.

وبالغربة: القِلّةَ وعزّةَ | الوجودِ؛ لعدمِ المُساعدِ على حصولِ المقصودِ، كما ٨٥و
قال فيما رُويَ مِنَ الحديثِ: «إنّ هذا الدِّينَ بدأ غريبًا وسيعودُ كما بدأ، فطُوبَى للغُرباءِ»[٩].

(١) زيادة من صحيح مسلم.
(٢) زيادة من صحيح مسلم.
(٣) انظر: صحيح مسلم، ٢٦٧٦.
(٤) ع، س: شرط سلامته.
(٥) ع، س: العوارض.
(*-*٦) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٧) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ٣٩٢٠.
(٨) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع.
(٩) انظر: صحيح مسلم، ١٤٥؛ وسنن الترمذي، ٢٦٢٩؛ وسنن الدارمي، ٢٧٥٥.

والحالةُ الثالثةُ: تُنالُ بتصفيةِ القلبِ وحفظِه عن الخطراتِ ودَوْب العملِ في الفِكرِ والمراقبةِ، حتّى يخرُجَ مِن ضِيقِ ازدحامِ الفِكَرِ إلى سَعَةِ انتظامِ الأثَرِ، ويَلِجَ في فضاءِ رُوح المشاهدةِ بما وَجَدَ[1] في نفسِه لحظوظِه مِنَ المُباعدةِ، وينقطعَ عنِ الاِتّصال بمراداتِه، ويبقى ثابتًا مع اللهِ بما يُجريه في موجوداتِه مِن إراداتِه وإيراداتِه، وهذا هو العارفُ الملحوظُ، والمراد المحفوظُ، المُبرَّأُ مِنَ اللُّحُوظِ لشيءٍ مِنَ الحُظوظِ.

وقد حصرَ الشيخ أبو إسماعيل الهَرويّ المقاماتِ في مِئةِ مقامٍ، قسّمَها على عشَرةِ أقسامٍ: بداياتٌ، ثمّ أبواب، ثمّ معاملات، ثمّ أخلاق، ثمّ أُصول، ثمّ أودية، ثمّ أحوال، ثمّ ولايات، ثمّ حقائقُ، ثمّ نهايات. وجعل في كلِّ قسمٍ منها عشَرةَ مقاماتٍ، وضَمّ كلَّ مقامٍ منها إلى ما يليقُ به، وأحسنَ فيما بيّنَ، وأتقنَ | ما له قد[2] عيّنَ. ٨٥ظ

وقسّم غيرُه المقاماتِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مَبَادٍ، وهي المعاملات، ووسائطُ، وهي الحالات، ونهاياتٌ، وهي الكمالات. وإلى هذا الترتيبِ مِلْنَا، وعن غيرِه حُلْنا؛ لِما فيه مِنَ الاِختصارِ بالتقريبِ والترتيبِ والاِشتمالِ على التهذيبِ.

---

(١) لا توجد في: س.

(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: س.

القسم الأول

المبادئ

وهي عشَرةٌ: الاِنتباهُ، والتوبةُ، والإنابةُ، والمُجاهَدةُ، والوَرَعُ، والزُّهدُ، والإرادةُ، والمُراقبةُ، والفُتوّةُ[1]، والصدقُ.

الأوّل

الاِنتباه

ويندرجُ فيه الزَّجْرُ واليقظةُ والفكرةُ والتذكرة والمحاسبة. قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقيامُ لله يقعُ بالزجرِ واليقظةِ والاِنتباهِ، وبما ذكرناه، ولأجل ذلك قال: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ﴾، فعقّب القيامَ بالفكرةِ، فمَن انتبه مِن نومِ غفلتِه ظَفِرَ بالمَسرّة عند يقظتِه، وصَدَرَ بالمَبرّة عند مُحاسبتِه في فكرتِه، وإنما يَجِدُ ذلك عند انقشاعِ ظُلمتِه وارتفاعِ فترتِه باجتماعِ حسرتِه. قال أبو يزيد: | علامةُ الاِنتباه خمسٌ: إذا ذَكَرَ نفسَه افتقرَ، وإذا ٨٦و ذكَر ذنبَه استغفرَ، وإذا ذكَر الدنيا اعتبرَ، وإذا ذكر الآخرةَ استبشرَ، وإذا ذكرَ المولى افتخرَ.

الثاني

التوبة

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ بَنِي آدمَ خَطّاءٌ، وخيرُ الخَطّائينَ

(١) في الأصل: القوة.

التوّابُون»[١]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فأصلُ التوبةِ الرُّجوعُ، يُقال: تابَ إذا رجعَ. وفي الحقيقةِ: الندامةُ على ما سلَف مِنَ الذَّنْبِ، والإدامةُ للخشيةِ مِنَ الربِّ في القلبِ[٢].

وقال سهلُ بنُ عبدِ الله: أُسُّ العلماءِ والحكماء في زمانِنا هذا على ثلاثةٍ: ملازمةُ التوبةِ، ومتابعةُ السُّنّةِ، وتركُ أذى الخَلْقِ. وشروطُها ثلاثةٌ: الندمُ على الذنْبِ السالفِ، والعَزْمُ على تركِ العَوْدِ في الزمنِ الآنفِ، والإقلاعُ عنِ الحالةِ التي تجعل عملَه في حُكمِ التالِفِ[٣].

وقال ابنُ عطاءٍ: التوبةُ توبتانِ: توبةُ الإنابةِ: أنْ يتوبَ العبدُ خوفًا مِن عُقوبتِه، ٨٦ظ | وتوبةُ الِاستجابةِ: أنْ (*يتبدّل العبدُ*[٤]) حياءً مِن كَرَمِه[٥].

وقال شَاه الكِرْمانيُّ: أُترُكِ الدنيا[٦] وقد تُبْتَ، وخالِفْ هواكَ وقد وَصَلْتَ[٧]. وقد مضى الكلام فيها، ويندرج فيها الحياءُ.

---

(١) انظر: مسند ابن أبي شيبة، ٣٤٢١٦؛ والترغيب والترهيب، ٤٧٥٠.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٥٣.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٥٤.

(*-*٤) ع، س، الرسالة: يتوب العبد.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٦١.

(٦) لا توجد في: س.

(٧) انظر: الكشف والبيان، ٨: ٣١٦.

الثالث

الإنابة

قال الله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥]، أي رَجَعَ، فحَلّ بتوبتِه ما كان (*قد عقده*١) مِن حَوْبتِه. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

وأصلُ الإنابةِ: الرُّجوعُ. يقالُ: أنابَ إذا رجعَ، فهي فِرارٌ مِنَ الخَلْقِ إلى الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]، أو هَرَبٌ مِنَ الرَّهبِ عن الرَّغَبِ، وطلب الأَرَبِ مِنَ القُربِ، فهي استكانةٌ ورجوعٌ. واستبانةٌ لمكان خطإٍ سابق، ونُزوعٌ وإقلاعٌ عنِ العَوْدِ إلى الذّنبِ في وُقوع.

قال سهلٌ: الإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ والتضرُّعِ والمسألة. وقال الجُنَيدُ: هي الرُّجوعُ عنِ الكلِّ إلى مَن له الكُلُّ.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، أي مُقبلٍ على الله. وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: إذا صَدَقَ العبدُ في توبتِه صار مُنِيبًا[٢].

| الرابع ٨٧و

المجاهدة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال فَضالةُ بنُ عُبيد[٣]: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المُجاهدُ مَن جاهدَ نفسَه في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤].

(*-*١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٢) انظر: تفسير روح البيان، ٧:٢٣، و٢٠٧.

(٣) في الأصل: قال.

(٤) انظر: سنن الترمذي، ١٦٢١؛ ومسند أحمد، ٢٣٩٩٧؛ وصحيح ابن حبّان، ٤٦٢٤؛ والمعجم الكبير، ٧٩٧.

والعملُ على مجاهدةِ النّفسِ مِن[1] أتمّ المُقاربةِ للقُدسِ، وأعظم المُباعَدةِ عنِ الرِّجسِ. وحقيقتُها: مقاومةُ النفسِ بالتزامِ الصدقِ، والاِفتقارُ والاِنقطاعُ عمّا سِوى الحقِّ مِنَ الأغيارِ. مَن اجتهدَ باطنًا رُزِقَ حُسْنَ معاملةٍ ظاهرًا، ومَن أُعطيَ ذلكَ مُنِحَ الهدايةَ لأحسنِ المَسالكِ، فذلك معنى الآيةِ السابقة.

رَوَيْنا عن عبدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ العاص أنّه سُئل: كيف تقولُ في الجهاد والغَزْو؟ قال: «اِبْدَأْ بنفسِك فجاهِدْها – أوِ ابْدَأْ بنفسِك فاغْزُها – فإنّك إنْ قُتلتَ فارًّا[2] بَعَثَك اللهُ فارًّا[3]، وإنْ قُتِلْتَ مُرَائيًا بعثَك اللهُ مُرَائيًا، وإنْ قُتِلتَ صابرًا بعثَك اللهُ صابرًا مُحتسِبًا»[4].

٨٧ظ ورَوَيْنا عن عليٍّ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «الجهادُ أربعٌ: أمرٌ بالمعروفِ | ونَهْيٌ عنِ المُنكَرِ، والصدقُ في مَواطنِ الصبرِ، وشَنَآنُ الفاسقِ. فمَن أَمَرَ بالمعروفِ شَدَّ عَضُدَ المؤمنِ، ومَن نَهَى عنِ المُنكَرِ أَرْغَمَ أنفَ الفاسقِ، ومَن صَدَق للصبر قضى ما عليه»[5].

وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: لن ينالَ الرجُلُ درجةَ الصالحِينَ حتّى يَجُوزَ سِتَّ عَقَباتٍ: أولُها: يُغلِقَ بابَ النِّعمةِ، ويَفتحَ بابَ الشِّدّة. والثاني: يُغلِقَ بابَ العِزِّ ويَفتحَ بابَ الذُّلِّ. والثالثُ: يُغلِقَ بابَ الراحةِ[6] ويَفتحَ بابَ الجُهدِ. والرابعُ: يُغلِقَ بابَ النومِ ويَفتحَ بابَ السهَر. والخامسُ: يُغلقَ بابَ الغِنَى ويَفتحَ بابَ الفقر. والسادسُ: يُغلِقَ بابَ الأملِ ويَفتحَ بابَ الاِستعدادِ لِلموت[7].

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) في الأصل، ع، س: بارًّا.
(٣) في الأصل، ع، س: بارًّا.
(٤) انظر: محاسبة النفس، ٦٢.
(٥) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ٢٦٤٠.
(٦) في الأصل: الرجاء. والمثبت من: س: الرسالة.
(٧) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٦٦.

وقال أبو عليٍّ الدقّاقُ: مَنْ زَيّنَ ظاهرَه بالمُجاهَدةِ زَيَّنَ[١] اللهُ سَرائرَه بالمُشاهَدةِ. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩][٢].

الخامس

الورع

رَوَيْنا مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَريبُك»[٣]. ورَوَيْنا مِن حديثِ أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كُنْ وَرِعًا تكُنْ | عابدًا، واجتنِبِ المَحارمَ تكُنْ زاهدًا، وأَحسِنْ جِوارَ مَن جَاوَرَكَ ٨٨و تكُنْ مُسلِمًا، وأَحِبْ للناسِ ما تُحِبُّ لنفسِك تكُنْ مُؤمِنًا»[٤].

أصلُ الوَرَعِ في اللغةِ: (*اجتنابُ المآثِمِ*٥)، والصرفُ عن ارتكابِ المَحارمِ. وفي الحقيقة: التوقُّفُ عن مُداناةِ الشُّبُهاتِ خَشْيَةَ مُوافَاةِ المُحرَّمات. وهو من مبادئ الزهد.

قال أبو سليمانَ الدّارانيُّ: «الوَرَعُ أولُ الزُّهدِ، كما أنّ القناعةَ طَرَفٌ مِنَ الرِّضَى[٦].

وقال سَهْلٌ: أصولُنا خمسةُ أشياءَ: التمسُّكُ بكتابِ اللهِ، والاِقتداءُ بسُنَّةِ رسولِ الله، وأكلُ الحلالِ، واجتنابُ الآثامِ، وأداءُ الحقوقِ.

(١) الرسالة: حسّن.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٦٤.

(٣) انظر: سنن الترمذي، ٢٥١٨؛ وسنن الدارمي، ٢٥٣٢؛ وصحيح ابن حبّان، ٧٢٢؛ والمستدرك على الصحيحين، ٢١٦٩.

(٤) انظر: سنن ابن ماجه، ٤٢١٧؛ ومسند أبي يعلى، ٥٨٦٥؛ وشعب الإيمان، ٥٧٥٠؛ والترغيب والترهيب، ٢٦٩٣.

(*-*٥) ع: الكف عن اجتناب المآثم، س: الكفُّ عن اجتلاب المآثم.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٨٥.

وقال المُحاسِبيُّ: أصلُ الطاعةِ الوَرَعُ، وأصلُ الوَرَعِ التُّقَى، وأصلُ التُّقى محاسبةُ النفسِ، وأصلُ محاسبةِ النفسِ الخوفُ والرجاءُ(١).

وقال بِشْرُ بنُ الحارثِ: أشدُّ الأعمالِ ثلاثةٌ: الجُودُ في القِلّة، والوَرَعُ في الخَلْوة، وكلمةُ الحقِّ عِند مَنْ يُخَافُ [منه](٢) ويُرجَى(٣). وقال أبو عثمانَ المَغرِبيّ: مَنْ أسّسَ بُنيانَه على التقوى والعِلم جاءتْ أذكارُه وأفعالُه صافيةً، ودخل عليه الوَرَعُ مِن حيثُ لا يَشعرُ(٤).

وسُئل | الجُنَيدُ: ما الذي يُفسدُ القلبَ؟ قال: الطمعُ. فقيل له: فما الذي يُصلِحُ القلبَ؟ قال: الوَرَعُ(٥). ٨٨ظ

السادس

الزُّهد

قال الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦]، يعني ما أبقاه لكم حلالًا، ولم يُحرّمه عليكم.

أصلُ الزُّهدِ لغةً: القِلّةُ. يقال: متاعٌ زهيدٌ، أي قليل. والقليلُ مرغوبٌ عنه. فلأجلِ ذلك قيل: (*الزُّهْدُ تركُ الرّغبةِ. وقال بعضهم: *٦) الزُّهدُ تركُ الفضولِ والإقبالُ على الله المأمولِ.

(١) انظر: حلية الأولياء، ١٠:٧٦.

(٢) زيادة من الرسالة.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٨٦.

(٤) انظر: الزهد الكبير، ٩١٥.

(٥) انظر: الزهد الكبير، ١٠٧.

(*-*٦) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

وقيل: تركُ ما سِوى الله. وقيل: أنْ يخلُوَ القلبُ ممّا تخلُو منه اليدُ. والأحوالُ فيه مختلفةٌ: وهو قُربةٌ للعامّة[١] وضرورةٌ للمُريدِ، وخِسّةٌ للخاصّةِ.

رَوَيْنا عن سَهلِ بنِ رَبيعةَ[٢] قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ، فقال: دُلَّني على عمَلٍ يُحِبُّني اللهُ عليه، ويُحبُّني الناسُ. قال: «اِزْهَدْ في الدنيا يُحِبَّكَ اللهُ، وازهَدْ فيما في أيدِي الناسِ يُحبَّكَ الناسُ»[٣].

وَرَوَيْنا عنِ أبي الدَّرداء عنِ النبيّ ﷺ أنّه قال: «ألَا إنّ الزُّهدَ في الدنيا ليس بتحريمِ الحلالِ، ولا إضاعةِ المالِ، ولكنّ الزُّهدَ في الدنيا أنْ لا تكُونَ بما في يدِكَ أوثقَ منك | بما في يدِ الله»[٤]. ٨٩و

وقال النُّوريُّ: الزُّهدُ في الدنيا: قِصَرُ الأملِ، ليس بأكلِ الغليظِ، ولا بلُبسِ العَباءِ[٥]. وقال أبو عثمان: الزُّهدُ أنْ تترُكَ الدنيا، ثمّ لا تُبالي مَن أخذَها[٦]. وقال الدارَاني: إذا بلَغ الرجلُ مِنَ الزُّهدِ غايتَه أخرجَه ذلك إلى التوكُّلِ.

السابع
الإرادة

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٢) س: سعد.

(٣) انظر: سنن ابن ماجه، ٤١٠٢؛ والمعجم الكبير، ٥٩٧٢؛ ومسند الشهاب، ٦٤٣؛ وشعب الإيمان، ١٠٥٥٢؛ والترغيب والترهيب، ٤٨٥٥.

(٤) انظر: سنن الترمذي، ٢٣٤٠؛ وسنن ابن ماجه، ٤١٠٠؛ والمعجم الأوسط، ٧٩٥٤؛ وشعب الإيمان، ١٠٠٧٠؛ والترغيب والترهيب، ٥١٤٦.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٩٣.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٩٤.

وروَى حميدٌ الساعديُّ عن أنَسٍ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا استعمَلَه». فقيل له: كيف يستعمِلُه يا رسولَ الله؟ قال: «يُوفّقُه لِعملٍ صالحٍ قبل الموت»[١].

وأصلُ الإرادة – لغةً – القصدُ، وهي في لسانِ القوم: قصدٌ خاصٌّ لمقصودٍ خاصٍّ، وهو اللهُ سبحانه، فهي قصدُ العبدِ التوجُّهَ بقلبِه لخدمةِ ربِّه، مُنسلِخًا عن إرادةِ حظِّه منه. فالمريدُ مَن له إرادةٌ على مُقتضَى الاِشتقاقِ، كما أنّ المُنِيبَ والعليم مَن له إنابةٌ أو عِلمٌ.

وفي الطريقةِ: المُريدُ مَن لا إرادةَ له، فمَا لم يَنسلِخْ عن إرادتِه لا يكون مُريدًا.
٨٩ظ وقد اختلفتْ عِباداتُهم على قَدْر ما فُوتِحُوا به. | وأكثرُهم يقول فيها ما قاله الشِّبْلِيُّ: جُملةُ الإرادةِ تركُ ما عليه العادةُ[٢]. فالخروجُ عنِ العوائدِ مبدأُ تحصيلِ الفوائدِ. وحقيقتُها: نهضةُ[٣] القلبِ في طلبِ رِضى الربِّ، ولأجْلِ ذلك يُقال فيها: الإرادةُ لَوْعَةٌ تُهَوِّنُ كُلَّ رَوعةٍ[٤].

قال أبو عليٍّ الرُّوذباريّ: المُريدُ الذي لا يُريدُ لنفسِه إلّا ما أرادَ اللهُ تعالى له. وقال أبو بكر الكتّانيُّ: مِن حُكْمِ المُريدِ أنْ تكُونَ فيه ثلاثةُ أشياءَ: نومُه غَلَبَةٌ، وأكلُه فاقةٌ، وكلامُه ضرورةٌ[٥].

---

(١) انظر: سنن الترمذي، ٢١٤٢؛ ومسند أحمد، ١٢٠٥٥؛ وصحيح ابن حبّان، ٣٤١؛ والمعجم الأوسط، ١٩٤١.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٣٤.

(٣) على هامش س: النهضة: استقامة القلب.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٣٤.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٣٦.

(*وقال شاه الكِرماني: المُريدونَ على عشَرةِ مقاماتٍ*[١]): التحبُّبُ (*إلى اللهِ*[٢]) بالنوافلِ، (*والتزيُّنُ عِندَه بمُلازَمة الأمر*[٣])، والأُنسُ بكلامه[٤]، والصبرُ على أحكامِه[٥]، والاِنقيادُ[٦] لأمرِه، والحياءُ مِن نَظَرِه، وبذلُ المجهود في محبّتِه[٧]، والتعرُّضُ (*إلى كلّ*[٨]) سببٍ يُوصِّلُ (*إلى قُربه*[٩])، (*والرِّضَى بالذِّلّة، والقناعةُ بالخُمول*[١٠]). ونُقل مثلُ[١١] هذا الكلام عن مُحمّدِ بنِ المُبارك الصُّوريّ[١٢].

وقال أبو بكرٍ الوَرّاقُ[١٣]: آفةُ المُريدِ ثلاثةُ أشياءَ: الترويحُ، وكتابةُ[١٤] الحديث[١٥]، والأسفارُ.

وقال يحيى بنُ معاذ: | أشدُّ شيءٍ على المُريد[١٦] مُعاشَرةُ الأضدادِ[١٧]. ٩٠و

ولو تَتَبَّعْنَا ما نُقل مِنَ الحكايات أَطَلْنا؛ فَلْنَقتصِرْ على ما أورَدْنا.

(*-*١) الرسالة: وقيل: من صفات المريدين.

(*-*٢) الرسالة: إليه.

(*-*٣) الرسالة: والخلوص في نصيحة الأمة.

(٤) الرسالة: بالخَلْوة.

(٥) الرسالة: مقاساة الأحكام.

(٦) الرسالة: والإيثارُ.

(٧) الرسالة: محبوبه.

(*-*٨) الرسالة: لكل.

(*-*٩) الرسالة: إليه.

(*-*١٠) الرسالة: والقناعة بالخمول وعدم الإقرار بالقلب إلى أن يصل إلى الربّ. ولا يوجد في: ع

(١١) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(١٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٣٥-٤٣٦. وراجع ترجمته في «تاريخ الإسلام»، ٥: ٤٥٠.

(١٣) في الأصل: الزقاق. والمثبت من الرسالة. وانظر ترجمته في «تاريخ الإسلام»، ٦: ٢٧٩.

(١٤) الرسالة: وكتبة.

(١٥) تعليقٌ على الهامش بخط الناسخ: كتابة الحديث من آفات المريد، وانظر وجه ذلك، وهل المراد بالحديث كلام النبي ﷺ. وفي متن «ألفيّة العراقي» الخلاف في كتابة الحديث وعلّة ذلك، وبعضهم أوجب كتابة الحديث لخشية النسيان، وحملُ الحديث هنا على مطلق الأخبار - مثل التواريخ - غير ظاهر، والله أعلم.

(١٦) الرسالة: المريدين.

(١٧) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٣٧.

الثامن
المراقبة

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، أصلُ الرقيبِ – لُغةً – الناظرُ. يقال: على فلانٍ رقيبٌ يَمنَعُه. فالمُراقَبةُ مُفاعَلةٌ مِنَ العِلْمِ بنظرِ اللهِ إلى العبدِ، ونَظَرِ العبدِ إليه، ومَن عَلِم أنّ اللهَ عليه رقيبٌ[١] استحيَى منه، فلا يُقْدِمُ إلّا على أمرٍ مأذونٍ في الإقدام عليه. ويندرجُ في المُراقبة: الرِّعايةُ والحياءُ والحُرمةُ. والمراقبةُ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: إلى مراقبةِ النفسِ، ومراقبةِ القلبِ، ومراقبةِ الحقِّ. فالنفس بالمحاسبةِ، والقلب بَجْمع الهَمِّ، والحقّ بالمشاهدةِ.

قال بعض العارفين: اِسْتَحْيِ مِنَ اللهِ على قَدْر قُرْبه منكَ، وعِلْمِه بكَ، وخَفْهُ[٢] على قَدْرِ قُدْرته عليكَ، واسْتَعِدَّ للدُّنيا بقَدْرِ مَقامِك فيها، واستَعِدَّ لِلآخرةِ بقَدْرِ مُكْثِكَ فيها، وأَطِعِ اللهَ بقَدْرِ حاجتِك إليهِ.

ورَوى حذيفةُ بنُ قَتادةَ المرعشيّ قال: كتَبَ إليَّ يُوسُفُ بنُ أسباطٍ: أمّا بعدُ،
٩٠ظ فإنّي أُوْصِيكَ بتقوى | الله، والعملِ بما علّمكَ اللهُ، والمُراقبةِ حيثُ لا يراك أحدٌ إلّا اللهُ، والاِستعدادِ لِما ليس لأحدٍ فيه[٣] حِيلةٌ، ولا يُنتفعُ بالندمِ عند نُزولِه.

التاسع
الفُتُوَّةُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: ١٣]، أصلُ الفُتوّة – لغةً – القُوّةُ، باستكمالِ سِنٍّ هو متوسِّطٌ بين سِنِّ[٤] الصِّبا وسِنِّ الكُهُولةِ، وهو صِفةُ مَدْحٍ من نوعِ الكَرَمِ والجُودِ والسخاءِ، إلّا أنّها تتميّزُ عن ذلك بالسعي في

(١) في الأصل: رقيبًا.
(٢) في الأصل: وحقه.
(٣) لا توجد في: س.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

مصالحِ الغَيْرِ، كما قال ﷺ: «لا يزالُ اللهُ في حاجةِ العبدِ ما دام العبدُ في حاجةِ أخيه المُسلِم»[١].

وعنِ الِاعتبارِ لا يَكْمُل هذا المقامُ إلّا لرسولِ الله ﷺ، فإنّ كلَّ أحدٍ في الموقفِ يقول: نفسِي نفسي، والرسولُ ﷺ يقولُ: «أُمّتي أُمّتي»[٢].

قال أبو بكرٍ الوَرّاقُ: الفتى مَن لا خصْمَ له[٣]. وقيل: الفتى مَن لا يَرى لنفسِه فضلًا على غَيرِه.

وقال الجُنيد: الفُتوّةُ بالشامِ، واللِّسانُ بالعراقِ، والصِّدقُ بخُراسانَ[٤]. ولهم في الفتوّة كلامٌ كثيرٌ لا يمكن استيعابُه.

العاشر
الصّدق

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، | وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ٩١و

وَرَوَيْنا من حديث أبي الحوراء قال: قلتُ للحَسَنِ بنِ عَليٍّ: سمعتَ مِن رسولِ الله ﷺ شيئًا؟ قال: نعم. سمعتُه يقول: «دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك، فإنّ الصدقَ طمأنينةٌ، وإنّ الكَذِبَ رِيبةٌ»[٥].

فالصدقُ: الوفاءُ بالعهدِ والصفاءُ في القصدِ، وهو في ثلاثةِ أوجُهٍ: في النيّة، وفي القول، وفي العمل.

---

(١) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٥٠٠٥؛ والمعجم الكبير، ٤٨٠١؛ والترغيب والترهيب، ٣٩٧٤؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٧٥٦٠؛ والرسالة القشيرية، ٤٧٢.

(٢) انظر: المعجم الأوسط، ٢٩٣٧؛ والمعجم الكبير، ١٠٧٧١؛ وصحيح ابن حبّان، ٦٤٨٠.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٧٣.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٧٢–٤٧٣.

(٥) انظر: السنن الكبرى، ١١١٣٤؛ والمعجم الصغير، ٣٢؛ والمعجم الكبير، ٢٧٠٨؛ وسنن الترمذي، ٢٥١٨؛ وسنن الدارمي، ٢٥٣٢.

فالصدقُ في النيّةِ تخليصُها مِنَ الشوائبِ، وإرادةُ اللهِ بعزمِه ذلك. والصدقُ
في القولِ: أنْ يَحترزَ في نُطقِه حتّى يَظهرَ له شاهدٌ مِن جانبِ الحقِّ. والصدقُ في
٣ العملِ: الجِدُّ والإخلاصُ فيه والحِرصُ عليه ما لم يَقطَعْهُ عنه قاطِعٌ، كما قال الله
تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾. وبهذا تمّ قِسمُ المبادئ، وهي
المُعاملاتُ.

القسم الثاني

الوسائط

وهي الحالات وما فيها على الاِتّصال بالله من الدَّلالات

وهي عشَرةٌ: الخُشوعُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكُّلُ، والاِستقامةُ، والخُلُقُ، والذِّكرُ | والسَّمَاعُ، والأُنسُ، والعِلمُ. ٩١ظ

الأول

الخشوع

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، أصلُ الخشوعِ لُغةً: الانخفاضُ والسُّكونُ عنِ الحركةِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وترَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصّلت: ٣٩].

وفي لسانِ القومِ: طمأنينةُ القلبِ بِجَمعِ الهَمِّ بين يَدَيِ الربِّ. وقيل: الاِنقيادُ إلى الحَقِّ[1]. وقيل: قَيْدُ الجَوَارحِ عنِ الشُّبُهاتِ، (*وسجنُ النّفسِ عنِ الشّهواتِ*[2]) [3]، وهو معهدُ[4] النجاةِ والفلاحِ، ومَوردُ السعادةِ والنجاحِ.

رُويَ عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ قال: بَيْنَ إسلامِنا وبين أنْ عاتَبَنا اللهُ أربعةَ أشهُرٍ حتّى نزلَتِ الآيةُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٣٩.

(*-*٢) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٣٩.

(٤) ع، س: معتمد.

فالخشوعُ: سُكُونٌ في القلبِ وحُضورٌ معَ الربِّ يَظهَرُ أثرُه في خارجِ الجَوارحِ. قال اللهُ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وقال النبيُّ ﷺ في المُصلِّي الذي كان يُكْثِرُ حركةَ يَدِه: «لَوْ خَشَعَ قلبُه لَخَشَعَتْ جَوارِحُه». وقال حُذيفةُ: أوّلُ ما تفقِدُون مِن دِينِكُمُ الخُشوعُ[1].

ويندرجُ في الخُشوعِ: التواضُعُ والإخباتُ | والإخلاصُ والتعظيمُ والسَّكِينةُ ٩٢و
والطُّمأنينةُ والخَشْيَةُ ... وغيرُ ذلك. واللهُ المُوَفِّقُ.

الثاني
الخوف

قال اللهُ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]، فالخائفون أربعةٌ:

الأنبياءُ. قال اللهُ تعالى فِيهِم: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والرَّهَبُ: شدّةُ الخوفِ.

ثمّ المَلائكةُ. وقال فيهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠].

ثمّ الصِّدِّيقُونَ، وقالَ فيهم: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

ثمّ الخَلْقُ كافّةً، وقال فِيهِم: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

رَوَيْنا عنِ ابنِ مَسعودٍ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ قال: «رأسُ الحِكمةِ مَخافةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[2]. وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «قال ربُّكم: لا أَجْمَعُ على

(١) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٤٨٠٨؛ وحلية الأولياء، ١: ٢٨١، والرسالة القشيرية، ٣٣٩.
(٢) انظر: شعب الإيمان، ٧٤٣؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٣٢٥٨.

عَبدِي[١] خَوْفَيْن، ولا أَجْمَعُ له[٢] أَمْنَيْنِ، إنْ خافَنِي في الدُّنيا (*لم يَخَفْ في الآخِرةَ*[٣])، وإنْ أَمِنَنِي في الدنيا لم يَأْمَنْ في الآخرة»[٤].

وحقيقةُ الخوف: تطلُّعُ القلبِ لِوَقع سَطْوَةِ الربِّ، فيحدثُ في الضِمير شِدّة القلقِ مِن قُوّة الفَرَقِ. فالوَجَلُ بِدايتُه، والخوفُ | نِهايتُه. وتخلفُ[٥] الأعضاءُ عِندَه، فإذا خلفتْ[٦] كان رَهْبةً، فإذا قَوِيَ صارَ خَشيةً. ٩٢ظ

ويقال: الخوفُ للمُذنِبِينَ، والرهبةُ للعابِدينَ، والخَشيةُ للعامِلينَ، والوَصْلُ للمُحِبِّينَ، والهَيبةُ للعارفينَ.

فالمؤمنُ يَعملُ على الخوفِ والرجاء. وكذلك قِيل: لو وُزِنَ خَوفُ المُؤمِنِ ورَجاؤُه لَاعْتَدَلَا، إلّا أنّه في حالِ الصحّةِ الخوفُ به أَوْلى، وفي حالِ المَرَضِ الرجاءُ له أَوْلَى. قال ﷺ: «لا يَموتُ أحدُكم إلّا وهو حَسَنُ الظَّنِّ بالله عزّ وجلّ»[٧].

وشَتّانَ بين خَوفِ خَلْقِ اللهِ وبين خوفِ الله، فإنّه مَن خافَ اللهَ هَرَبَ إليه، كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ومَن خافَ مِن شيءٍ هرَبَ منه.

وقال أبو عثمانَ: الخوفُ مِنَ اللهِ يُوصِلُك إليه، والعُجْبُ يَقطعُك عنِ الله.

وقال أبو الحُسين النُّوري: الخائفُ يَهرُبُ مِن ربِّهِ إلى ربِّهِ[٨].

وقال يحيى بنُ معاذ: على قَدْرِ خوفِكَ مِنَ اللهِ يَهابُكَ الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ حُبِّكَ له يُحبُّك الخَلْقُ، وعلى قَدْر شُغْلِكَ باللهِ يَشتغلُ الخَلقُ بأمورِكَ.

---

(١) في الأصل: عبيدي.

(٢) في الأصل: لهم.

(*-*٣) في الحديث: أمنته يوم القيامة.

(٤) انظر: صحيح ابن حبّان، ٦٤٠؛ والزهد، لابن المبارك، ١٥٧؛ وشعب الإيمان، ٧٧٧؛ والترغيب والترهيب، ٥١١٠.

(٥) ع، س: وتخفُّ.

(٦) ع، س: خفّت.

(٧) انظر: سنن أبي داود، ٣١١٣.

(٨) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٠٩.

وقال عَمْرُو بنُ عُثمانَ المَكّيُّ: العَبدُ يحتاج إلى ثلاثةِ أشياءَ: الخوفِ والخَشيةِ | والرجاءِ. فالخوفُ في الدنيا يُوْرِثُ في الآخِرةِ الأَمْنَ، والخَشيةُ تُورِثُ العطاءَ، ٩٣و والرجاءُ أَثنَى، فلا يَصْلُحُ على الرجاءِ إلّا الخائفُ، ولا يَصلُحُ على الخَوفِ إلّا الراجي.

وله مَراتبُ: خوفُ التَّبِعَاتِ، وخوفُ قَبولِ الحسناتِ، وخوفُ العَواقبِ في الحركاتِ والسَّكَناتِ.

فالأوّلُ: مِن رُؤيةِ التقصيرِ، والثاني: لِطَلَبِ الأَجرِ على العملِ وقصدِ التوفيرِ، والثالثُ: لقصدِ التعظيمِ لله والتوقيرِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥].

فالخوفُ مِن [شَرطِ][1] الإيمان. قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والخَشيةُ مِن [شرطِ][2] العِلمِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

والهيبةُ مِن [شرطِ][3] المعرفةِ. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨][4].

وقال سهلٌ: لِلخائفِ ثلاثُ عَلَاماتٍ: يتجزّأُ باليَسِيرِ مِنَ الأكلِ، ويتجزّأُ باليسيرِ مِنَ النومِ، ويَقِلُّ نظرُه إلى الدنيا. واللهُ المُوفِّقُ.

---

(١) زيادة من الرسالة.

(٢) زيادة من الرسالة.

(٣) زيادة من الرسالة.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٠٧.

الثالث
الرجاء

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

رَوَيْنا عن ثَوبانَ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ما يَسُرُّني | بهذه ٩٣ظ
الآيةِ الدنيا وما فيها: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾[1]».

رَوَيْنا عن عليٍّ – كرّم اللهُ وجهَه – قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «قال اللهُ تعالى: مَن رَجَا غيري لم يَعرِفْني، ومَن لم يَعرِفْني لم يَعبُدني، ومَن لَم يَعبُدْني فقد أوجبَ سَخَطي، ومَن خافَ غيري حَلَّتْ به نقمتي»[2].

(*فالرّجاءُ: تعلُّق الأملِ بقَبولِ العملِ وغُفرانِ الزَّلَلِ، أو مَسرّةُ القلبِ بمبرّةٍ مِنَ الربِّ. فتارةً يَنشَأُ عنِ الخوفِ، وأخرى يَنشَأُ الخوفُ عنه، فهُما مصطَحِبانِ[3] لا يَفترقانِ كجَناحَيْ طائرٍ إنِ استوَيَا تَمَكَّنَ مِنَ الطيَرانِ*[4]).

رَوَيْنا عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال له: «كيف تَجِدُكَ؟»، فقال: أرجُو اللهَ يا رسولَ اللهِ وأخافُ ذُنوبي. قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَجتمعانِ في قلبِ عَبدٍ مُؤمنٍ في مِثل هذا المَوطِنِ إلّا أعطاهُ اللهُ الذي يَرجُو منه، وأمّنَهُ ممّا يَخافُ»[5].

---

(١) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب، ٦٢٩٩.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) س: متصاحبان.

(*-*٤) الرسالة: الخوف والرجاء هما كجناحَي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار في حدِّ الموت.

(٥) انظر: سنن الترمذي، ٩٨٣؛ وسنن ابن ماجه، ٤٢٦١؛ ومسند عبد بن حميد، ١٣٧٠؛ وشعب الإيمان، ١٠٠١؛ والترغيب والترهيب، ٥١٢٥.

والرجاءُ والخوفُ إنما يتعلّقانِ بمُستقبلٍ يُتوقَّعُ مِنْ مَحبُوبٍ أو مَكروهٍ، فعَيْشُ ٩٤و القلوبِ ونشاطُها | وراحتُهَا مِن تَعَبِها، وانبساطُها مِن قَبضَتِها إنّما هو بِقُوّةِ صِدقِها في رَجائِها.

ويشتبه الرجاءُ بالتمنّي. والفَرْقُ بَينهُما أنّ المُتمنّيَ نفسُه عازفةٌ عنِ الجِدِّ في العَمَلِ، عاكِفةٌ على البِطالةِ والكَسَلِ، والراجِيَ مُجتهِدٌ في عَمَلِه، مُعتمِدٌ على إقبالِه في وَجَلِه، كما قال اللهُ تعالى في حقِّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يَتقرَّبُونَ بالطاعاتِ، ويَخشَوْنَ مِنْ رَدِّ تِلكَ البِضاعاتِ.

قال أبو عُثمانَ المَغربيُّ: الرّجاءُ(١) يتولّدُ مِن هِجرَانِ السُّوءِ ومجاهدةِ النفسِ ودَوَامِ الخَوفِ. قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وللرجاءِ جِهاتٌ ثلاثة: رجاءُ ثوابِ الأعمالِ، ورَجاءُ قُرْبَةِ الإجلالِ، ورجاءُ الحَقِّ المُنعِمِ بالنَّوَالِ.

فراجِي الثوابِ يعملُ على تصديقِ الوَعْدِ، وراجي القُربةِ يَعملُ على تسهيلِ العباداتِ بالجِدِّ، وراجي الحَقِّ يَعملُ على ما ألحق أهله مِنَ المجدِ.

واختَلف مِن أهلِ الطريقِ فيه العباراتُ، وكلٌّ منها عَبَّرَ عن(٢) ما قامَ به مِنَ الحالاتِ.

(١) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(٢) في الأصل: على، والمثبت من: ع، س.

قال | شاه الكِرمانيّ: علامةُ الرجاءِ حُسنُ الطاعةِ[١]. وقيل: الرجاءُ رُؤيةُ ٩٤ظ
الجَلالِ بِعَينِ الكمالِ[٢]. وقيل: سُرورُ الفُؤادِ بِحُسنِ المَعادِ[٣]. وقال عبدُ اللهِ ابنُ خفيف: الرجاءُ استبشارٌ بوُجودِ فضلِه[٤].

وقال محمّدُ بنُ المُبارَكِ الصُّوريّ: مقامُ الراجِينَ عَشَرَةٌ: الحجُّ، والرِّباطُ، والجهادُ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عنِ المُنكَرِ، والمُعاوَنةُ على البرِّ بالنفسِ والمالِ، ونُصرةُ المَظلومِ، وإجابةُ الصارخِ، وتفريجُ الكُربةِ، وإغاثةُ[٥] الملهوفِ.

وكلامُهم في ذلكَ على قَدْرِ أحوالِهِم، ومَراتبُهم مُتفاوِتةٌ على قَدْرِ تفاوُتِهم في أعمالِهم.

الرابع
التوكّل

قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، مكانُ التوكُّلِ عظيمٌ بديعٌ، وقَدْرُ صاحِبِه عِند اللهِ رفيعٌ.

وقد أمَرَ اللهُ به رسولَه بقولِه الحَقِّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨١]، وأمَرَ بِه المُؤمنِينَ بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [المائدة: ٢٣]، وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وأَخبَرَ أنّه مَقامُ النبيّينَ، كما | أخبَرَ عن هُودٍ عليه السلام بقولِه تعالى: ٩٥و
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦].

فهو مقامٌ مَكِينٌ، وتمامٌ مُبِينٌ، وأصلُه – لُغةً – الِاعتمادُ. يُقالُ: وَكَلْتُ الأمرَ إلى فُلانٍ، أيْ: أَلقَيْتُه إليه مُعتمِدًا عليه.

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٣١٨.
(٢) الرسالة: الجمال.
(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٣١٨.
(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٣١٩.
(٥) في الأصل، ع: وإعانة. والمثبت من: س.

وفي لسانِ القومِ: تَمَكُّنُ (*اليأسِ عنِ*[١]) التعلُّقِ بأحدٍ مِنَ الناسِ، أو: تَركُ الاِعتمادِ على الخَلْقِ بالاِستنادِ إلى الحَقِّ. وقيلَ: هو الثقةُ بالوَعْدِ وتركُ التدبيرِ لِغَدٍ.

ويتعيّنُ على المُتوكِّلِ ثلاثةُ أمورٍ: الرِّضَى عنِ اللهِ بتقديرِه، وحُسنُ الظَّنِّ بالنظرِ إلى تدبيرِه، وطرحُ الاِتِّهامِ له فيما يبديه مِن تأثيرِه. ومبدأُ التوكُّلِ اليقينُ، فإذا انتهى سُمّيَ توكُّلًا.

رَوَيْنا عن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لو تَوَكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِه لَرَزَقَكُم كما يرزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطَانًا»[٢].

وَرَوَيْنا عن أنسِ بنِ مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «التوكُّلُ نِصفُ العِبادةِ، والدُّعاءُ نِصفُ العِبادةِ»[٣].

قلتُ: قد شَهِدَ الكتابُ العزيزُ بصحّةِ ذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ | عَلَيۡهِۚ﴾[هود: ١٢٣]. ٩٥ظ

وَرَوَيْنا عن جابرٍ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «يا أيُّها الناسُ إنّ أحدَكُم لن يَمُوتَ حتّى يَستكمِلَ رِزقَهُ، فلا تَستبطِئُوا الرزقَ، اتّقُوا اللهَ أيُّها الناسُ، وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، خُذُوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حَرُمَ»[٤].

رُوِيَ أنّ لُقمانَ قال لِابنِه: يا بُنَيَّ إنّ الدُّنيا بَحْرٌ عَمِيقٌ، قد غَرِقَ فيها نَاسٌ كثيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينتُكَ فيها تقوى اللهِ عزّ وجلّ، وحَشْوُها إيمانٌ باللهِ، وشِرَاعُها التوكُّلُ على اللهِ، لعلَّك ناجٍ[٥] وما أَرَاكَ ناجيًا[٦].

(*-*١) في الأصل: البأس على، والمثبت من: ع، س.

(٢) انظر: سنن الترمذي، ٢٣٤٤؛ وسنن ابن ماجه، ٤١٦٤؛ ومسند أحمد، ٢٠٥؛ والمستدرك على الصحيحين، ٧٨٩٤.

(٣) نصُّ الحديث في الفردوس رقم ٤٠٩٦: «عملُ البرِّ كُلّه نِصفُ العِبادة، والدعاءُ نِصفٌ، فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا امتحن قلبَه للدعاء».

(٤) انظر: سنن ابن ماجه، ٢١٤٤؛ والمعجم الأوسط، ٣١٠٩؛ وسنن البيهقي الكبرى، ١٠١٨٤؛ والمستدرك على الصحيحين، ٧٩٢٤؛ والمعجم الأوسط، ٣١٠٩.

(٥) في الأصل بالنصب «ناجيًا».

(٦) انظر: الدعاء، للطبراني، ١٧٣٧؛ والزهد الكبير، للبيهقي، ٢٧٩؛ وذمّ الدنيا، ٩١.

وقال سهلُ بنُ عبدِ الله: علامةُ المُتوكِّلِ ثلاثةٌ: لا يَسألُ، ولا يَرُدُّ، ولا يَحبِسُ[١]. وقال حَمْدُون القصّار: التوكُّلُ هو الاِعتصامُ باللهِ[٢].

وقال سهلٌ[٣]: أوّلُ مَقامٍ في التوكُّلِ أنْ يكونَ العبدُ بينَ يَدَيِ اللهِ كالمَيْتِ بينَ يدي[٤] الغاسِلِ؛ يُقلِّبُه كيف أرادَ[٥]، لا يَكُونُ له حركةٌ ولا تدبيرٌ[٦].

ويندرجُ في التوكُّلِ: القناعةُ، والرِّضَى، واليقينُ، والتفويضُ، والتسليمُ، والثقةُ، والصبرُ، والشكرُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والتبتُّلُ ... وغيرُ ذلك مِنَ المَقاماتِ المَعهودةِ والكراماتِ | المَعدُودةِ. ٩٦و

الخامس

الاِستقامة

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصّلت: ٣٠]، فالاِستقامةُ عظيمٌ قَدْرُها، كَريمٌ فخرُها، مُقِيمٌ ذُخرُها.

وهي لُغةً: المَشْيُ على جادّةِ الطريقِ مِن غيرِ مَيْلٍ عنه. وفي لسانِ القومِ: القيامُ بين يَدَيِ اللهِ بلُزومِ الأدبِ وتركِ الطَّلَبِ منه لِشيءٍ مِنَ الأَرَبِ. فهو على سُلوكِه في استقامةٍ، وعلى تعظيمِه في حُرمةِ اللهِ في استدامةٍ.

رَوَيْنا عن سُفيانَ بنِ عبدِ الله الثقفيّ أنّه قال: يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أَسألُ عنه أحدًا بَعدَك. قال: «قُلْ: آمنْتُ بالله، ثُمّ استقِمْ»[٧].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٦٨.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٦٨.

(٣) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٥) الرسالة: شاء.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٣٨٦.

(٧) انظر: صحيح ابن حبّان، ٩٣٢؛ والآحاد والمثاني، ١٥٨٤؛ والسنن الكبرى، ١١٤٨٩؛ والمعجم الكبير، ٦٣٩٨؛ وشعب الإيمان، ٤٩٢٤؛ والأربعون في التصوّف، ١٨.

وَرَوَيْنا عن ثَوْبانَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اِستقِيمُوا ولنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنّ خيرَ أعمالِكُم الصلاةُ، ولنْ يُحافِظَ على الوُضوءِ إلّا مُؤمِنٌ»[١].

فالِاستقامةُ عَمُودُ الدِّينِ ونِظامُه، وبَهاؤُه[٢] وُجودُ اليقينِ وتمامُه، ومَن لم يَستقِمْ في سَيْرِه لم يَستدِمْ له ما يَرجُو ثوابَه مِن خَيرِه.

٩٦ظ وَرَوَيْنا عن أَنَسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي | بيدِه لا يَستقيمُ إيمانُ الرجُلِ حتّى يَستقِيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتّى يَستقيمَ لِسانُه، ولا يستقيمُ لِسانُه حتّى يَستقيمَ عملُه»[٣].

وقال أبو عليٍّ الدقّاقُ: الِاستقامةُ ثلاثةُ مَدارجَ: أوّلُها: التقويمُ، ثمّ الإقامةُ، ثمّ الِاستقامة. فالتقويمُ: مِن حيثُ تأديبُ النفوسِ، والإقامةُ: مِن حيثُ تهذيبُ القلوبِ، والِاستقامةُ: مِن حيثُ تقريبُ الأسرارِ[٤].

واعْلَمْ أنّ وُجودَ الِاستقامةِ يتوجَّهُ على الظاهرِ والباطن. فأمّا الظاهر فحِفظُ الجَوارحِ عنِ الِامتدادِ إلى القَبائحِ. وأمّا الباطنُ فمُراعاةُ القلبِ عنِ الخَطَراتِ المُلقِيةِ في العَتبِ.

وقد نبّه الله تعالى على[٥] ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويُقالُ: الِاستقامةُ في الأقوالِ بِتَرْكِ الغِيبة، وفي الأفعالِ بِنَفْيِ البِدعَة، وفي الأعمالِ بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجّة[٦].

---

(١) انظر: سنن ابن ماجه، ٢٧٧؛ وموطأ مالك، ٦٦؛ وسنن البيهقي الكبرى، ٣٨٩؛ والمستدرك على الصحيحين، ٤٤٧.

(٢) ع، س: وبهاء.

(٣) انظر: شعب الإيمان، ٨؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٧٧٩٣؛ ومسند الشهاب، ٨٨٧؛ والترغيب والترهيب، ٣٨٦٠.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٤١.

(٥) في الأصل، ع: عن، والمثبت من: س.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٤٢.

قال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: لا بُدّ لِلمؤمنِ مِن خمسِ خِصالٍ: أكْلِ الحَلالِ، وحِفظِ الجَوارحِ، وأداءِ حُقوقِ اللهِ، والاِستقامةِ، والعِصمة. وقال الشِّبْلِيُّ: الاِستقامةُ أنْ يَشهدَ الوقتُ قِيامَه[1].

قلتُ: | وَقَعَ لي في وقتٍ أنْ قلتُ لبعضِ مَن تكلّمتُ معه في شيءٍ مِن ذِكْرِ ٩٧و
ظهورِ الكراماتِ لأهلِ الولاياتِ: تمامُ الكرامةِ دوامُ الاِستقامةِ، فمَن أنعمَ اللهُ عليه بها فقد فازَ في الحالِ والمآلِ، وحازَ ما تَفرّقَ من حَميدِ الخِلالِ، ومَن لم يكُنْ منها له شِرْبٌ فعملُه غيرُ مَعدُودٍ، وأملُه غيرُ مُنجِحٍ في أمرٍ هو له مقصودٌ. فالاِستقامةُ هي سُلَّمُ السلامةِ مِنَ المَلامة، ومُنتهَى الكرامةِ في دارِ المُقامة. واللهُ أعلمُ.

السادس
الخُلُق

قال اللهُ تعالى لرسولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قيل: تفسيرُ «خُلقِه العظيم» قولُه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقد تقدّم الكلامُ فيما مضى فيه[2]، وأنّ هذه الآيةَ، مع قولِه في الحديثِ: «صِلْ مَن قَطَعَكَ»، كافيةٌ لِمَن عَمِلَ على ذلك.

عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنّ العَبدَ لَيبلُغُ بِحُسنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ»، قال: وأظنُّه قال: «والمُجاهدِ في سبيلِ اللهِ»[3].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ عنِ النبيِّ ﷺ عن جِبريلَ عنِ اللهِ أنّه قال: «إنّ هذا
دِينٌ | ارتضَيْتُه لِنفسي لنْ يصلحَهُ إلّا السخاءُ وحُسنُ الخُلقِ، فأَكْرِمُوه مهما ٩٧ظ
صَحِبتُمُوه»[4].

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٤٢.
(٢) انظر: فيما سبق ٢٢٢، و٢٣٧.
(٣) انظر: المعجم الأوسط، ٦٢٨٣؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٧٤٣.
(٤) انظر: المعجم الأوسط، ٨٩٢٠؛ وشعب الإيمان، ١٠٨٦٦؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٤٤٨١؛ ومسند الشهاب، ١٤١٦؛ والترغيب والترهيب، ٤٠١٨.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خَصلتانِ لا تَجتمعانِ في مؤمنٍ: البُخلُ وسُوءُ الخُلُق»(١).

حُسنُ الخُلُقِ مَدْعَاةٌ إلى وجودِ الزيادةِ مِن أسبابِ السعادةِ، مَنْمَاةٌ لمقصودِ الإفادةِ مِن ثمراتِ الأعمالِ عنِ الولادةِ(٢). رَوَيْنا عن أنسٍ قال: قِيل: يا رَسُولَ اللهِ، أيُّ المُؤمنينَ أفضلُ إيمانًا؟ قال: «أحسنُهم خُلُقًا»(٣).

وسُئل الحَسَنُ عن حُسْنِ الخُلُقِ، قال: الكَرَمُ والبَذْلُ والاِحتمالُ. وقِيل في تفسيره: كفُّ الأذَى واحتمالُ المُؤن(٤). وقيل: اِجْعَلْ باطنَكَ للهِ وظاهرَك لِلخَلق، وأَعِزَّ أَمْرَ اللهِ يُعِزَّكَ اللهُ.

وقال الحارثُ بنُ أسدٍ المُحاسِبيُّ: ثلاثة أشياءَ عَزيزة أو مَعدومة: حُسْنُ الوجهِ مَعَ الصِّيانةِ، (*وحُسن الخُلُق معَ الدِّيانةِ*٥)، وحُسن الإخاءِ معَ الأمانة(٦).

وقال (*أبو بكرٍ*٧) الكتّانيّ: التصوُّفُ خُلُقٌ، فمَن زادَ عليك (*في الخُلق*٨) زاد عليكَ في التصوُّف(٩).

قلتُ: يجمعُ الخُلُقُ الحَسَنُ هذه الكلماتِ: حَمْلَ العِدَى، وبَذْلَ النَّدَى، وكَفَّ الأذَى(١٠)، ووَصْفَ الهُدى. فمَن لم يَحتمِلْ ما آذَى | مِنَ المقالِ لم يَصِلْ(١١) إلى ٩٨و

---

(١) انظر: سنن الترمذي، ١٩٦٢؛ ومسند الطيالسي، ٢٢٠٨؛ ومسند أبي يعلى، ١٣٢٨؛ ومسند عبد بن حميد، ٩٩٦؛ وشعب الإيمان، ١٠٨٣٠؛ ومسند الشهاب، ٣١٩.

(٢) س: الوفادة.

(٣) انظر: سنن ابن ماجه، ٤٢٥٩؛ والمعجم الأوسط، ٤٦٧١؛ وشعب الإيمان، ٧٩٩٣؛ والترغيب والترهيب، ٥٠٥٣.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٩٦.

(*-*٥) الرسالة: حسن القول مع الأمانة. اللمع: حسن الصوت مع الديانة.

(٦) الرسالة واللمع: الوفاء.

(*-*٧) زيادة من آداب المريدين.

(*-*٨) الرسالة: بالخلق.

(٩) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٩٥؛ وآداب المريدين، ١١٢.

(١٠) الرّدى.

(١١) س: يتصل.

ما يَرتجِيهِ مِنَ الوِصالِ. ومَنْ لم يَبذُلِ المالَ لم تَصلُحْ عُقباهُ في الحالِ والمآل. ومَن لم يمتنِعْ عن إرسالِ سَهمِ العِنادِ لم يَرتفِعْ قَدْرُه إلى الظَّفَرِ بشيءٍ مِنَ المُراد. ومَن لم يَعتمِدْ في مَقالِه على نُصحِ العِبادِ لم يَستنِدْ في مجالِه إلى رُكنِ السَّدَادِ إلى الرَّشَادِ.

وحاصلُ الأمرِ في تحسينِ الخُلُقِ أنّه مُخالَفةٌ لِلمُراداتِ، ومُواظَبةٌ[1] للطاعاتِ، ومُواصَلةٌ للصلاةِ والمسرّات، فمَن عانَى هذه الحالاتِ دَانَى سَنِيَّ الكمالاتِ.

وفي الحديث: «أوّلُ ما يُوضَعُ في المِيزانِ حُسنُ الخُلُقِ»[2]. وحاصلُ القول أنّ كمالَ الإنسانيّةِ إنّما هو[3] بالخُلُقِ الحسن، فمَنْ حَمَلَهُ[4] اللهُ عليه فقد أنعَمَ اللهُ عليه بأتمِّ المِنَنِ. وقد قال النبيُّ ﷺ لِأشجِّ عبدِ القيس: «إنّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ[5]»[6].

قال شقيقُ البَلْخِيُّ: أفضلُ أخلاقِ المَرءِ أربعةُ أشياءَ: أوّلُها الحِلْمُ عِندَ الغضبِ، والثانيةُ السخاءُ عند القِلّة، والثالثةُ الوَرَعُ في الخَلْوةِ، والرابعُ صِدْقُ القولِ عِند مَن يُخَافُ ويُرْجَى.

السابع
الذِّكر

قال الله تعالى | : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ٩٨ظ
[الأحزاب: ٤١]. قال ابنُ عبّاسٍ: ليس شيءٌ مِنَ الفرائضِ إلّا وله حَدٌّ ينتهي له إلّا ذِكْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) ع، س: ومخالفة.
(٢) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٢٥٨٤٦؛ ومسند عبد بن حميد، ١٥٦٥؛ والمعجم الكبير، ١٧٨.
(٣) في الأصل، ع: هي.
(٤) س: جبله.
(٥) الأناة: التأنّي والتثبُّت وترك العَجَلة، حتى يستبين الصواب. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، ٦٠.
(٦) انظر: سنن ابن ماجه، ٤١٧٨؛ والمعجم الأوسط، ٥٧٢٧؛ والأدب المفرد، ٥٨٥؛ وشعب الإيمان، ٨٤١٠؛ والترغيب والترهيب، ٤٠٦٣.

وقال مُجاهِدٌ: الذِّكْرُ بالقلبِ، وهو أنْ لا ينساهُ بحالٍ. وقال السُّدِّيُّ: باللّسان. وقال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. قيل: الذِّكرُ الكثيرُ هو ذِكْرُ اللهِ على كلِّ حالٍ. قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وهو مِن جملةِ الواجباتِ التي لا زمانَ ولا مكانَ ولا طهارةَ تُشترطُ فيها[1].

وسُئل ابنُ عباسٍ: أيُّ الأعمال أفضلُ؟ قال: «ذِكْرُ اللهِ أفضلُ الأعمالِ».

الذِّكرُ رفيقُ السالكينَ، وطريقُ المتوجِّهينَ، ويقظةُ الغَافلينَ، وأُنسُ المُسْتَوحِشينَ، (*وعُدّةُ المتعدّينَ*[2])، وصِلةُ المنقطعينَ، وحُجّةُ المُوحِّدينَ، ورحمةٌ على العالمينَ، ومَنجاةٌ للهالكينَ، ومرقاةٌ للعاملينَ. فمَن لازَمَه بشروطِه عند أهلِه أدركَ مِنَ اللهِ غايةَ فضلِه.

قال الله تعالى مُؤدِّبًا لرسولِه ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، (*يعني به لسان الإشارةِ إذا نسيت*[3])، أي تركتَ ملاحظةَ غير مولاكَ في نفسِك | ٩٩و وشهودَك[4] في ذِكْرِكَ في سرِّكَ ونجواكَ، ثمّ نسيتَ ذِكْرَكَ في ذِكْرِه، ثمّ نسيتَ كُلَّ ذِكْرٍ في ذِكرِ الحقِّ إيّاكَ. قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والأحاديثُ الواردةُ في فضلِ الذِّكرِ كثيرةٌ. رَوَيْنا عن أنَسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المجالسُ ثلاثةٌ: سالمٌ وشاحبٌ وغانمٌ. فأمّا الغانمُ فالذاكرُ اللهَ، وأمّا السالمُ فالساكتُ، وأمّا الشاحبُ فالمُتخوِّضُ فيما لا يَعنِيه»[5]، أو كما قال.

---

(١) ع: فيه.

(*-*٢) ع، س: وعمدة المعتدين.

(*-*٣) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س

(٤) ع، س: وسواك.

(٥) انظر: صحيح ابن حبّان، ٥٨٥؛ ومسند أحمد، ١١٧٣٦؛ ومسند أبي يعلى، ١٠٦٢؛ وشعب الإيمان، ١٠٨١٥؛ والزهد، لهناد، ١٢٣١؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٦٦٤٩.

وَرَوَيْنا عن سعيدِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خيرُ الرزقِ ما يكفي، وخيرُ الذِّكر الخَفِيُّ»(١).

وَرَوَيْنا عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا مَعَ عبدي إذا هو ذَكَرَني وتحرّكتْ بي شَفَتَاهُ»(٢).

وَرَوَيْنا عنِ ابنِ عُمَرَ أنّ النبيَّ ﷺ قال في قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ولذلك أنّه قال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]: «فذِكْرُ الله إيّاكم أكبرُ مِن ذِكرِكُم لهُ».

وَرَوَيْنا عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله | ﷺ: «إذا مَرَرْتُم بِرياضِ الجَنّةِ ٩٩ظ فارْتَعُوا». قِيل: يا رسولَ الله، وما رِياضُ الجَنّة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكرِ»(٣).

وَرَوَيْنا عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألَا أُنبّئُكم بخيرِ أعمالِكم وأزكاها عند مَلِيكِكُم وأرفَعِها في دَرَجاتِكم، وخَيرٍ مِن إعطاءِ الذهَبِ والوَرِقِ، وأنْ تَلْقَوا عدُوَّكم فتَضْرِبُوا أعناقَهم ويَضرِبُوا أعناقَكم؟». قالوا: وما ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «ذِكْرُ اللهِ تعالى»(٤).

وَرَوَيْنا عن جابرِ بنِ عبدِ الله قال: خرَج علينا رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا أيُّها الناسُ ارْتَعُوا في رياضِ الجنّة». قلنا: يا رسولَ الله، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «مَجالسُ الذِّكر». قال: «اُغْدُوا ورُوحُوا واذكُروا، مَن كان يُحِبُّ أنْ يَعلَمَ مَنزلتَه عند الله فَلْيَنظُرْ كيف(٥) مَنزلةُ اللهِ عِندَه، فإنّ اللهَ تعالى يُنْزِلُ العبدَ حيثُ أنزلَه مِن نفسِه»(٦).

(١) انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٤٣٧٧؛ ومسند أبي يعلى، ٧٣١؛ وشعب الإيمان، ٥٥٤؛ والفردوس بمأثور الخطاب، ٢٩٠٦.

(٢) انظر: مسند أحمد، ١٠٩٨١.

(٣) انظر: سنن الترمذي، ٣٥١٠؛ ومسند أحمد، ١٢٥٤٥؛ ومسند أبي يعلى، ٣٤٣٢؛ وشعب الإيمان، ٥٢٩.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٤.

(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٦ – ٤٦٧.

وَرَوَيْنا مِن حديثِ نُبَيْطِ بنِ شَرِيطٍ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الذِّكرُ نِعمةٌ مِنَ اللهِ فأدُّوا شُكرَها»(١).

١٠٠و | وَرَوَيْنا (*عن أنسٍ*٢) قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَأَنْ أَجلِسَ معَ قَومٍ يَذكُرونَ اللهَ مِن غدوةٍ إلى طُلوعِ الشمسِ أحبُّ إليَّ ممّا طلعتْ عليه الشمسُ»(٣).

وَرَوَيْنا عن معاذٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ على كلِّ حالٍ، فإنّه ليس عَمَلٌ أحبَّ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ولا أنجَى للعبدِ مِن ذِكر الله في الدنيا والآخرة»(٤).

ورُوِيَ عن رسولِ الله عليه السلام أنّه قال: «مَن عَجزَ [منكم](٥) عنِ الليلِ أنْ يُكابدَه، وجَبُنَ عنِ العدُوِّ أنْ يُجاهدَه، وبَخِلَ بالمالِ أنْ يُنفِقَه فَلْيُكثِرْ مِن ذِكر اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٦).

ورُوِيَ أنّ موسى عليه السلام قال: «يا ربِّ، ما علامةُ رِضاكَ؟ قال: ذِكْرُكَ إيّايَ يا ابنَ عِمرانَ»(٧).

وقال عُمَرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه: «عَلَيكُم بذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنّه شِفاءٌ، وإيّاكُم وذِكْرَ الناسِ، فإنّه داءٌ»(٨). وقال الحَسَنُ: أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أكثرُهم له ذِكْرًا، وأتقاهُم قلبًا(٩).

---

(١) انظر: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ١٧٤٩.

(*-*٢) مطموسة في الأصل نتيجة تفشّي الأحبار. والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: السنن الكبرى، ١٦٣٨٠؛ ومسند أبي يعلى، ٤١٢٥؛ ومسند الطيالسي، ٢٢١٨.

(٤) انظر: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ١٨٣٦؛ وشعب الإيمان، ٥١٧.

(٥) زيادة من المصادر.

(٦) انظر: المعجم الكبير، ٧٧٩٥؛ وكنز العمّال، ١٨٥٣، و١٨٥٤؛ ومسند البزّار، ٤٩٠٤؛ ومسند عبد بن حميد، ٦٤١؛ وشعب الإيمان، ٥٠٥.

(٧) انظر: شعب الإيمان، ٧٣٩٢؛ وكنز العمّال، ٣٠٨٠٣.

(٨) انظر: كنز العمّال، ٣٩٢٢؛ والزهد، لهناد، ١١١٠.

(٩) انظر: جامع العلوم والحكم، ٤٤٥.

فالذِّكرُ مبدأُ الغايةِ[1]، ومُنتهَى الرعايةِ، يُحْبِطُ الأَوزارَ، ويُهبِطُ الأنوارَ، | ويُحسّنُ الآثارَ، ويُمكّنُ الأوطارَ. ١٠٠ظ

وله أربعُ رُتبٍ: ذِكْرٌ عِندَ الأمرِ والنهيِ، وذِكْرٌ باللسانِ، وذِكرٌ بالقلبِ، وذِكرٌ بالرُّوحِ.

فإنْ حَصَلَ المجموعُ قامتْ أركانُ الذِّكرِ، واستقرّ البناءُ على الأساسِ، واستمرّ البقاءُ على الأمنِ مِن مُخالفةِ الوَسْوَاسِ.

قال الجُنَيدُ: سألتُ السَّريَّ يومًا عن سُؤالٍ، فقال: كُنْ مِنَ الناس الذين ذَكَرُوا اللهَ بالقلوبِ، واعلَمْ أنّ للهِ عِبادًا عَقَلُوا، فلمّا عَقَلُوا عَلِمُوا، فلمّا عَلِموا عَمِلُوا، فلمّا عَمِلوا أَخْلَصوا؛ فاستدعاهُمُ الإخلاصُ إلى أبوابِ البِرِّ أجمَعَ[2].

وقال أبو سعيدٍ الخَرّازُ: الذِّكرُ على ثلاثةِ أوجُهٍ: باللسانِ والقلبُ غافلٌ، فذلك ذِكْرُ العادةِ، وذِكْرٌ باللسانِ والقلبُ حاضرٌ، فذلك ذِكْرُ طلبِ الثوابِ، وذِكْرٌ بمِلْءِ القلبِ وبكلِّ اللسانِ، فلا يَعلَمُ قَدْرَه إلّا اللهُ عزّ وجلّ.

وحقيقةُ الذِّكر عند أهلِ اللسانِ: نِسيانُ ما سِواه ممّا يتشَكّلُ في الأذهانِ.

قال أبو عليٍّ الرُّوذبَاريّ: الأذكارُ على ثلاثة | أوجُهٍ: ذِكْرٌ باللسانِ ثوابُه عشَرةٌ، ١٠١و وذِكرٌ بالقلبِ ثوابُه سبعُ مِئةٍ، وذِكرٌ بالرُّوحِ ثوابُه ما لا يقعُ عليه الكيفيّةُ.

وقال جعفرٌ: مَن ذَكَرَ اللهَ فَلْيَذكُرْ بنسيانِ كلِّ شيءٍ سِواهُ، فإنّ حقيقةَ الذِّكرِ أنْ تَنسى ما سِواهُ.

وقال أبو عليٍّ الدقّاقُ: الذِّكرُ منشورُ الوِلايةِ، فمَن وُفِّقَ للذِّكرِ فقد أُعطِيَ المنشورَ، ومَن سُلِبَ الذِّكْرَ فقد عُزِلَ[3].

---

(١) س: العناية.

(٢) انظر: حلية الأولياء، ١٦٢٥؛ وشعب الإيمان، ٩: ٣٧٤.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٥.

وقال بعضُهم: ذِكرُ اللهِ بالقلبِ سيفُ المُريدينَ، به يُقاتِلُون أعداءَهم، ويَدفعُونَ(١) الآفَاتِ والفِتنَ(٢).

وقال ذو النُّونِ المِصريُّ: مَن ذَكَرَ اللهَ ذِكرًا على الحقيقةِ نَسِيَ في جَنْبِ ذِكرِه كلَّ شيءٍ، وحَفِظَ اللهُ تعالى عليه كُلَّ شيءٍ، وكان له عِوَضًا عن كُلِّ شيءٍ(٣).

والنظرُ في الذِّكرِ يقعُ في لفظِه، ومكانِه، وزمانِه، وجَهرِه، وإسرارِه، وهل هو أفضلُ أو تلاوةُ القرآنِ؟

الأوّل: اللفظُ الذي اشتُهرَ واستُقِرَّ عليه بين هذه الطائفةِ قولُ: «لا إلهَ إلّا اللهُ»، فإنّها جامعةٌ بين النفيِ والإثباتِ، نفيِ النقصِ وإثباتِ الكمالِ.

١٠١ظ ولا فرقَ بين | المُبتدِئ والمُنتهِي في هذا اللفظِ عِند طائفةٍ منهم. وأمّا طائفةٌ أخرى فإنّها فَرّقتْ بين المبتدئ والمنتهي. فالمبتدئُ يَعتمدُ على ما تَقدَّم. وأمّا المُنتهي فذِكرُه: «اللهُ اللهُ»؛ لأنّه قد تَحقّقَ وتَخَلَّقَ، وانتفتْ عنه النقائصُ، فلم يَبْقَ له إلّا التعلُّقُ باسمِ المَذكورِ، وهو: «اللهُ». ولِأجْلِ ذلك قال اللهُ تعالى لرسولِه عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

رَوَيْنا من حديث أَنَسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتّى لا يُقالَ في الأرضِ: اللهُ اللهُ»(٤).

قلتُ: هذا الِاسمُ اسمٌ شريفٌ، جامعٌ لِما يُرادُ مِن مَعنَى التوحيدِ. (*فالدالُّ به*٥) مُستمَدٌّ مِن مَعدِنِ المزيدِ.

وقدِ اعتُرِضَ على هذا الذِّكْرِ بأنّه غيرُ وافٍ بالمقصودِ، فإنّ قولَه: «الله» اسمٌ، والِاسمُ لا بُدّ له مِن خَبرٍ عنه بنفيٍ أو إثباتٍ، ولم يُوجَد، فلا يُعَدُّ قائلُه ذاكرًا.

(١) ع، س، الرسالة: وبه يدفعون.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٥ – ٤٦٦.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٦.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٦٥.

(*–*٥) ع، س: فالذاكر له.

والجوابُ: أنّ المذكورَ مَعلومٌ في الذهنِ، مُستقِرٌّ حُضورُه عند الذاكر، فكأنّه قال: المذكورُ: اللهُ، فيكون خبرَ مُبتدَإٍ (*محذوفٍ، أو «الله» المذكورُ مبتدأ*[1]) أو الخبرُ مَحذوفٌ؛ لِلعِلمِ به، أو يكون مفعولًا منصوبًا | بفعلٍ مُضمَرٍ، [و] التقديرُ: «أُعظِّمُ اللهَ»، أو «أَذْكُرُ اللهَ». فثَبَتَ صِحّةُ الذِّكرِ واستقامتُه وعَظَمةُ المَذكورِ في الصُدورِ وجَلالتُه. ١٠٢و

الثاني: في مَكانِه، فينبغي أنْ يكونَ المكانُ مُنزَّهًا عنِ القَاذوراتِ الحِسّيّة: كالمَجزَرة، والمَزْبَلة والكُنُف[2]، والمَعنويّةِ: كالبِيَعِ والكنائسِ وبيتِ النارِ، فإنّه مِن جُملةِ التعظيمِ لهذا الأمرِ الكريم. وأمّا ما سِوى ذلك مِنَ الأمكنةِ فإنّ الحالَ يختلفُ في قصدِها[3] بحسَبِ ما يُقصَدُ منها. فالمساجدُ أفضلُ الأمكنةِ، ويَلِيها الرُّبطُ والمَدارسُ، فإنها بُنِيَتْ لأمرٍ فيه قُرْبَةٌ، فتَخَصّصَتْ.

وأمّا الأمكنةُ المباحُ التردُّدُ فيها، كالأسواقِ والدُّورِ المَملُوكةِ، فالحالُ[4] يَختلفُ فيها باختلافِ المقاصدِ. على أنّ المَساجدَ أشرفُ منها؛ فقد وَرَدَ عنِ النبيِّ ﷺ: «خيرُ البِقاعِ المَساجدُ، وشرُّها الأسواقُ»[5].

وورد: «مَن دخلَ سُوقًا وقال: لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شَريك له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلّ شيءٍ قديرٌ، كُتِب له ألفُ حَسَنةٍ، ومُحِيَ عنه ألفُ سيئةٍ».

وأمّا | الذي اختاره أهلُ هذه الطريقِ فهو أنْ يُعَيِّنَ لنفسِه مَكانًا يَختلِي فيه ١٠٢ظ
في بَيتِه أو رِباطِه أو مَسجدِه، ويشتغلَ بالذِّكرِ الذي يَطلبُه[6]؛ لِما فيه مِن جَمعِ لخاطرِه، وتوفيرِ فكرِه عنِ التبدُّدِ.

(*-*1) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) س: الكنيف.
(٣) س: فضلها.
(٤) في الأصل: والحال، والمثبت من: ع، س.
(٥) انظر: صحيح ابن حبّان، ١٥٩٩؛ والمعجم الأوسط، ٧١٤٠؛ وكنز العمّال، ٢٠٧٢٠.
(٦) س: يقصده.

الثالثُ: في زمانِه: ليس للذِّكْرِ زمنٌ معيّن، وهذا مِن خصائصِه (*المُتميّزةِ عن*١) غيرِه مِنَ العاداتِ(٢)، فليس مِن وقتٍ إلّا والعبدُ مأمورٌ فيه بذِكرِ الله، إمّا وُجوبًا(٣) وإمّا نَدْبًا، (*والصلاةُ – مع شرفِها – تُكْرَه في بعضِ الأوقاتِ*٤).

رَوَيْنا عن عبدِ اللهِ بنِ بِشرٍ أنّ رجُلًا قال: يا رسولَ الله، إنّ شرائعَ الإسلامِ قد كثُرتْ علَيَّ، فأخبِرْني عن شيءٍ أَتَشَبَّثُ به. قال :«لا يزالُ لِسانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ اللهِ»(٥).

وجاء في روايةٍ أخرى عن عبدِ الله بنِ بشرٍ المازنيِّ صاحِبِ رسولِ الله ﷺ قال: أتى أعرابيّانِ إلى النبيّ ﷺ، فقال أحدُهما: أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قال: «طُوبَى لِمَن طال عُمُرُه وحَسُنَ عَمَلُه». وقال الآخَرُ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «أنْ تُفارقَ الدنيا ولسانُك رَطْبٌ مِن ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٦).

وأمّا الذِّكرُ الذي في القلبِ، فمُستدَامٌ في جميع | الأوقاتِ. قال اللهُ تعالى: ١٠٣و
﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. قال الإمام أبو بكر بنُ فُورَك: قِيامًا بحقِّ الذِّكر، وقُعُودًا عنِ الدعوى فيه(٧).

ورَوَيْنا عن بلالِ بنِ سَعدٍ قال: الذِّكرُ ذِكرانِ، فذِكْرُ اللهِ باللِّسانِ، (*فذاك ذِكرٌ*٨) حسنٌ، وذِكرٌ عند الطاعةِ والمَعصيةِ، فذاك أفضلُ(٩).

(*–*١) س: التمييز بها على.
(٢) ع: العبادات.
(٣) الرسالة: فرضًا.
(*–*٤) الرسالة: والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات.
(٥) انظر: سنن الترمذي، ٣٣٧٥؛ والسنن الكبرى، ٦٧٦٤؛ وسنن ابن ماجه، ٣٧٩٣.
(٦) انظر: الآحاد والمثاني، ١٣٥٦؛ ومسند ابن الجعد، ٣٤٣١.
(٧) انظر: الأحكام، لابن العربي، ١:٣٩٨.
(*–*٨) الشعب: كلّ ذِكر.
(٩) انظر: شعب الإيمان، ٦٧٥.

وقال عليُّ بنُ سهلِ بنِ الأزهرِ الأصبهانيّ: الغافلونَ يَعيشونَ في حِلْمِ اللهِ، والذاكرونَ [يعيشونَ][١] في رحمةِ اللهِ، والعارفونَ [يعيشونَ في لُطفِ اللهِ، والصادقونَ يعيشونَ][٢] في قُربِ اللهِ، والمُحِبُّونَ [يعيشونَ][٣] في الأُنْسِ باللهِ والشوقِ إليهِ[٤].

قلتُ: إنّ اللهَ سبحانه قد عَيَّنَ (*وقتين لذِكْرِهِ*٥) في كتابِه، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

وورد عنه ﷺ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «يقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا ابنَ آدمَ، اذْكُرْني مِن أوّلِ النهارِ ساعةً، ومِن آخرِ النهارِ ساعةً، أَغْفِرْ لك ما بين ذلك إلّا الكبائرَ، أو تَتُوبَ منها»[٦].

فاختارَ أهلُ الطريقِ بَعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ الذِّكرَ، ابتغاءً[٧] لما | وردَ مِنَ ١٠٣ظ
الكتابِ والسُّنّةِ في ذلك. واللهُ المُوفِّقُ.

الرابع: الجهرُ والسّرُّ في الذِّكرِ: الجَهرُ في الأذكارِ مانعٌ مِن استيلاءِ الافتكارِ[٨]، قاطعٌ عنِ استعلاءِ الأعذارِ، فلِأجْلِ ذلك اعتمده الشيوخُ في ابتداءِ الأمرِ للسالِكينَ، فهُم يُحافِظُونَ عليه ويُواظِبونَ على الدعاءِ إليه. وأيُّهما أفضل؟.

رَوَيْنا عن عُروةَ عن عائشةَ عنِ النبيِّ ﷺ: «يُفَضَّلُ - أو يُضاعَفُ - الذِّكرُ الخفيُّ الذي لا تَسمعُه الحَفَظَةُ على الذي تَسمعُه سَبعِينَ ضِعفًا»[٩].

---

(١) زيادة من الشعب.

(٢) زيادة من الشعب.

(٣) زيادة من الشعب.

(٤) انظر: شعب الإيمان، ٤٥٤.

(*-*٥) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٦) انظر: مشيخة ابن شاذان الصغرى، ١٥.

(٧) س: اتباعًا.

(٨) س: الأفكار.

(٩) كنز العمّال، ١٩٢٩.

ورَوَيْنا عن حَمّادٍ المَكِّيّ أنّه قال: الذِّكرُ الخَفِيُّ الذي تُحصِيهِ المَلائكةُ يُضاعَفُ سبعينَ ضِعفًا على ذِكْر العَلَانِيَةِ، وهو ذِكْرُ العبدِ في قلبِه[1].

ورَوَيْنا عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أنا عِندَ ظَنِّ عبدي بي، وأنا مَعَهُ حِين يَذكُرني، إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذَكَرْتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلإٍ ذَكَرْتُه في مَلإٍ خَيرٍ مِنهم، وإنْ تَقَرَّبَ مِنّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذِراعًا، وإنْ تَقرَّبَ
١٠٤و إليَّ ذِراعًا تقرّبتُ | منه باعًا، وإنْ أتانِي يَمشِي أتيتُه هَرْوَلَةً»[2]. متّفقٌ على صِحّته. وذِكرُ اللهِ العبدَ في نفسِه أعظمُ مِن ذِكرِه بين مَلائكتِه.

قلتُ: ومعناهُ المقابلةُ لفعلِ العبدِ بالإخفاءِ والإظهارِ، والثوابُ المُرتَّبُ عليهما على قَدْر فضلِ أحدِهما على الآخَرِ. وقد تقدّم في الحديث: «خيرُ الذِّكرِ الخَفِيُّ»[3]. فالذي يَقتضِيهِ ظاهرُ الدليلِ، ويرتضيه أهلُ التحصيلِ: أنّ الذِّكرَ إنْ كان المقصودُ به الِاقتداءَ وطَرْدَ الوَسْوَاسِ، فالجَهْرُ أفضلُ، وإنْ كان الذاكرُ قدِ استغنى عن ذلك فالسِّرُّ أفضلُ.

الخامس: هلِ الذِّكْرُ أفضلُ أو التِّلاوةُ؟

قال قوم: الذِّكرُ أفضلُ؛ لأنّه إفرادُ المذكورِ بصفةِ التوحيدِ، بخلافِ التلاوةِ؛ فإنّها مُشتمِلةٌ على التوحيدِ والقَصَصِ والأحكامِ.

وقال آخَرُونَ: التلاوةُ أفضلُ؛ لأنّها كلامُ اللهِ، وكلامُ اللهِ قديمٌ، والقديمُ أشرفُ مِنَ المُحْدَثِ.

وقال آخرون: إنْ كانتِ التلاوةُ في صلاةٍ فهي أفضلُ مِنَ الذِّكرِ؛
١٠٤ظ | لاشتمالِ الصلاةِ على أنواعٍ مِنَ العبادةِ القوليّةِ والفِعليّةِ، وإنْ كانت خارجَ

(١) في البيهقي عن عائشة عن حمّاد المكّي أنه قال: ذِكْرُ القلبِ يُضاعَف بسبعين ضِعفًا على ذِكْر اللسان. وقال: عدد الذِّكر الذي لا تسمعه الحَفَظَة يزيد على الذِّكر الذي تسمعه بسبعين ضعفًا.

(٢) انظر: سنن الترمذي، ٣٦٠٣؛ وسنن ابن ماجه، ٣٨٢١؛ ومسند أبي يعلى، ٣١٨١؛ ومسند البزّار، ٧١٢٩؛ وصحيح ابن حبّان، ٣٧٦؛ والمعجم الأوسط، ١٧١٤؛ والمعجم الكبير، ٦١٤١.

(٣) انظر فيما تقدم.

الصلاةِ فالذِّكرُ أفضلُ؛ لِما فيه مِن إفرادِ المَذكورِ وجَمْعِ الهَمِّ والخاطرِ فيه، وبهِ (*الذِّكْرُ أفضل*[١]).

قلتُ: والذي يَظهَرُ لي أنّ في حالِ ابتداءِ السلوكِ الذِّكرُ أفضلُ، وفي حالِ الإنتهاءِ التلاوةُ بالتدبُّرِ أفضلُ؛ لأنّ في حالِ الإبتداءِ الفكرُ مُتوزِّعٌ[٢]، فبالذِّكرِ يجتمعُ، وفي حالِ الإنتهاءِ الفِكرُ مجتمعٌ، فبالتلاوة[٣] يَنتفعُ.

واختلَفُوا في الفِكْرِ والذِّكْرِ: أيُّهُمَا أتمُّ؟. فقال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلميّ: الذِّكر أتمُّ؛ لأنّ الحقَّ سبحانه يُوصَفُ به[٤]، [ولا يُوصَف بالفِكر][٥]، وما يُوصَفُ[٦] به الحقُّ أتمُّ ممّا يَختَصُّ[٧] به الخَلْقُ، (*فوَافَقَهُ على ذلك الشيخُ أبو عليٍّ الدقّاقُ*[٨]).

واعلَمْ أنّ جماعةً ممّنِ انْتَمَوا[٩] إلى الفُقراءِ جَعَلُوا الذِّكْرَ لهم مَأكَلَةً يتمعّشون به على الجنائز، ويُحصّلون به[١٠] ما تسنّى مِنَ الجوائزِ، وذلك مِنَ الفعلِ المُبعِد عن تحصيلِ المفازِ وقطعِ المَفاوز، كما جُعِلَ القُرآنُ مَأكَلةَ مَن يَتلُوه جَهْرًا في | الطُّرُقِ والمساجدِ والأسواق، وذلك مِن أقبحِ الأخلاقِ في ذوي الإملاق، ١٠٥و
وهو مَشُوبٌ بالرياء والنفاق، فَلْيَبعُدْ عنه مَن له رَغبةٌ في الوِفاقِ، ورَهبةٌ مِنَ الشِّقاقِ.

(*-*١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: س.

(٢) ع: متنوع.

(٣) في الأصل، ع: فالتلاوة، والمثبت من: س.

(٤) الرسالة: بالذِّكر.

(٥) زيادة من الرسالة.

(٦) الرسالة: وصف.

(٧) الرسالة: اختص.

(*-*٨) الرسالة: فاستحسنه الأستاذ أبو علي رحمه الله.

(٩) في الأصل، ع، س: انتمى. والمثبت من المحقّق.

(١٠) ع، س: بسببه.

الثامن
السَّمَاع

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمَر: ١٧-١٨].

فتعريفُ القولِ إمّا لِلعَهدِ، أي القول المَسموع مِنَ الرسولِ، وهو الكتابُ والسُّنّةُ، أو لِلاستغراقِ، وهو القولُ المَشْرُوعُ سَماعُه، وهو أَوْلَى؛ لأنّه أكبرُ فائدةً. وقولُه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾: إنْ كان القرآنَ فيكونُ المعنى: فيتّبعونَ الأشَقَّ على النفسِ مِن أحكامِه. وقيلَ: المُرادُ بالأحسنِ: الحَسَنُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وإنْ كان كُلَّ قولٍ، فيستمعُ ما هو الأَولَى بالِاستماعِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: هو الرجلُ يَسمعُ الحَسَنَ والقبيحَ[١]، فيتحدّث بالحَسَنِ ويكُفُّ عنِ القبيحِ[٢] فلا يتحدّثُ به. وهذا يقتضي حَمْلَ الآيةِ على العُمومِ لِكلِّ قولٍ[٣]، وهو الأَظهَرُ.

١٠٥ظ | السماعُ واردٌ يَرِدُ على القلبِ يُزعِجُه ويُخرجُه عن طَوْرِ العادةِ إلى سَلْبِ الإرادةِ، ويبقى الحُكمُ للواردِ مِن قَبْضٍ، أو بَسْطٍ، أو حُزنٍ أو سُرورٍ.

فتارةً يَرِدُ بسببٍ مِن خارجٍ، كالصوتِ الحسنِ؛ لِما فيه مِنَ الجمعِ، وتارةً يَرِدُ بغيرِ سببٍ.

وإنكارُ[٤] وُجودِه في النفسِ مُمتنعٌ في الحِسِّ، وإنّما اختلفَ أهلُ العِلمِ في جوازِ استعمالِ الآلاتِ المُعَدّةِ له، كالطارِ المُجَلْجِلِ والشبَّابةِ والأوتارِ ... وغير ذلك.

---

(١) س: القبح.
(٢) س: القبح.
(٣) في الأصل: آية، والمثبت من: ع، س.
(٤) س: وإن كان.

فمَنَعَه منهم طائفةٌ، وأباحَه آخَرُون، فأكثرُ عُلماءِ المَدينةِ المُتقدّمِينَ على إباحتِه بالآلاتِ وغيرِها. وفرّق آخَرُونَ بين الأوتارِ والقَصَبِ، فمَنَعُوا الأوتارَ وأباحوا القصبَ.

وأكثرُ علماءِ الشريعةِ على مَنعِه إذا كان على الوضعِ المألوفِ مِنِ اجتماعِ الشبابِ والعَوَامِّ، ووجودِ الغَفلةِ في المُستمِعِينَ، وإحضارِ الشبّابةِ والطارِ المجلجِل.

وقد ثَبَتَ أنّ النبيَّ ﷺ استمعَ غِناءَ الجاريَتَيْنِ مِنَ الأنصارِ في بيتِ عائشةَ ولم يُنكِرْ عليهما. وصَحّ أنّه قال لأنجشةَ: «يا أنجشةُ، رُوَيْدَك، | رِفْقًا بالقَوارير»[1]. ١٠٦و
وأُنشِدَتِ الأشعارُ بين يديهِ، وفيها الغَزَلُ، فدلّ ذلك على مَشرُوعيّة استماعِ الشِّعرِ بالألحانِ.

والذي عليه أهلُ الطريقِ – وهو الصحيحُ – أنّ الحالَ يختلفُ في السامعينَ، فيُكرَهُ لِقومٍ، وهُمْ مَنِ استمعَ بنفسِه وشَهَواتِه، ويُستَحَبُّ لِآخَرِينَ، وهُمْ مَنِ استمعَ بقلبِه ورُوحِه، ولو تَتَبَّعْنا ما قِيلَ في السَّمَاعِ أَطَلْنا.

قال سهلُ بنُ عبدِ الله: السماعُ عِلمٌ استأثرَ اللهُ به، لا يَعلَمُه إلّا هو[2]. وقال الجُنَيدُ: (*إذا رأيتَ المُريدَ يُحِبُّ السَّماعَ*[3]) فاعلَمْ أنّ فيه بقيّةً مِنَ البطالةِ[4].

قلتُ: أمّا السماعُ مِن حيثُ إنّه[5] خُشُوعٌ واستبشارٌ، وذلٌّ وانكسارٌ، وقَبْضٌ وانبساطٌ، وأُنْسٌ وهيبةٌ، وجلالٌ وجَمالٌ، وتَجَلٍّ واستِتارٌ، يَرِدُ على القلبِ الحاضرِ معَ الله، فلا يُنكِرُه إلّا جاهِلٌ بنفسِه وبالله.

---

(١) انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، ١٢: ١٤٧.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٤٩.

(*–*٣) آداب المريدين: كلّ مريد رأيته يميلُ إلى السَّماع.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٤٩، وآداب المريدين، ١٥٦.

(٥) ع، س: هو.

وأمّا السماعُ مِن حيثُ هو(١) مُكالمةٌ ومُحادَثة ومُشاهَدة، فمَخصوصٌ بخَوَاصِّ المُشتغلِينَ بالله. وأمّا السماعُ بالطبعِ والمَيْل إلى الألحانِ، فلِلعَوامّ المغمورينَ بطلبِ الحُظوظِ، الشاغِلِ لهم عنِ الله.

١٠٦ظ فمِن أجْلِ ذلك اختلفتِ المَراتبُ فيه | إلى: سَماع بالنفسِ، وسماع بالقلبِ، وسماع بالرُّوح.

فالأوّلُ لأربابِ القلوبِ، والثاني لأربابِ الأرواحِ، والثالث لأربابِ النفوسِ. وهو ينقسم إلى ثلاثةِ أنواعٍ: سماعٌ بالعِلمِ، وهو إعطاءُ الزيادةِ في الفهمِ، وسماعٌ بالحالِ، وهو مُوافقةُ القولِ لحالِ المُستمِع، وسَماعٌ بالحقّ، وهو تثبيتُ المَعرفةِ وتحقيقُها. ومَن لم يُدرِكِ التمييزَ(٢) بين المَراتبِ وَقَعَ في المَتاعبِ(٣) والمَعاطِبِ، والغَلَطُ في العِلمِ بالتفرقةِ واقعٌ، والخطأ في ذلك غالبٌ، ولا سِيّما مِمّن بِجَهلِه عنِ الطريق ضائعٌ.

وسُئل ذو النُّونِ المِصريُّ عنِ السماعِ، قال: وَارِدُ حَقٍّ يُزعِجُ القلوبَ إلى الحَقِّ، فمَن أصغَى(٤) إليه بحقٍّ تَحَقَّقَ، ومَن أصغَى إليه بنَفْسٍ(٥) تَزَنْدَقَ(٦).

وحُكِيَ عنِ الجُنيدِ أنّه قال: [مَن سَمِعَ](٦) السماعَ يحتاجُ إلى ثلاثةِ أشياءَ، [وإلّا فلا يَسْمَعْ. قيل له: وما تِلك الثلاثةُ؟ قال](٧): المكانُ والزمانُ والإخوانُ(٩).

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) في الأصل: التميُّز، والمثبت من: ع، س.
(٣) س: المعاتب.
(٤) آداب المريدين: أضحى.
(٥) آداب المريدين: بنفسه.
(٦) انظر: اللمع في التصوّف، ٢٧١؛ والرسالة القشيرية، ٦٤٤.
(٦) زيادة من اللمع.
(٧) زيادة من اللمع.
(٩) انظر: اللمع في التصوّف، ٢٧٢؛ والرسالة القشيرية، ٦٤٥.

وسُئل رُوَيمٌ عن وجود[1] الصُّوفيّة عند السماعِ، فقال: يَشهَدُونَ[2] المَعانيَ التي تَعزُب عن غَيرِهم، فتشيرُ إليهم: (*إلَيَّ ... إلَيَّ*[3])، فيتنعَّمُونَ بذلك مع[4] الفَرَحِ، ثمّ يقعُ الحِجابُ | ، فيعودُ ذلك الفَرَحُ بُكاءً، فمِنهم مَن يُحرقُ[5] ثِيابَه، ومنهم مَن يَصِيحُ، ومِنهم مَن يَبكي[6]. ١٠٧و

قلتُ: الكلامُ في السماعِ يكثُر ويَطُولُ، فالأَوْلَى بِنا أنْ نقتصرَ فيما نقولُ. وبه تمّ الكلامُ في السماعِ.

التاسع
الأنس

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]. أثنى اللهُ على إبراهيمَ عليه السلام بالرسالة، وحكَى قولَه لِيَقَعَ التأسّي به والتأدُّبُ بأدبه، فالأُنسُ بالله ثمرةُ الصِّدقِ في المُعامَلةِ، والتثبُّتِ عند المُنازَلةِ، وهو متولِّدٌ عن تمكُّنِ السُّرورِ، وتيقُّنِ البُشْرى بالقُربِ والحضور، فمَن حصلَ في مقامِ الأنسِ استوحشَ مِن كلِّ شيءٍ، حتى مِنَ الجِنِّ والإنسِ، ودعاه ذلك إلى الخَلْوة والعُزلةِ والِاستيحاشِ مِنَ الخَلْقِ، وقد تقدّم الحديثُ: «مَن تَقرّبَ منّي شِبرًا تقرّبتُ منه ذراعًا»[7].

ورَوَيْنا من حديثِ ابن عبّاسٍ أنّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا غُلَامُ، ألَا أُعلّمُكَ كلماتٍ ينفعُكَ اللهُ بهنّ؟». قلتُ: بلى يا رسولَ الله، قال: «اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامَكَ. | تَعَرَّفْ إليه في الرخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدّة، وإذا ١٠٧ظ

---

(١) أي عمّا يجدونه. انظر: الرسالة القشيرية، هامش ١، ٦٤٦.
(٢) عوارف المعارف: يتنبهون.
(*-*٣) لا يوجد في العوارف.
(٤) في الأصل: من، والمثبت من: ع، س.
(٥) الرسالة: يخرق. عوارف المعارف: يمزق.
(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٤٦؛ وعوارف المعارف، ١:١٩٦.
(٧) انظر فيما تقدم.

سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللهِ، جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنّ أهلَ[١] السّماواتِ والأرضِ جهدوا على أنْ يَنفَعُوكَ بشيءٍ لم يَكتُبْه اللهُ لكَ؛ لم يَقدرُوا عليه، ولو أنّهم جَهدُوا أن يَضُرُّوك بشيءٍ لم يَكتُبْهُ اللهُ عليك؛ لم يقدرُوا عليه، فاعمَلْ للهِ باليقينِ، واعلَمْ أنّ النصرَ معَ الصبرِ، وأنّ الفرَجَ معَ الكَرْبِ، وأنّ معَ العُسْرِ يُسرًا»[٢].

فقولُه: «اِحفظِ اللهَ يَحفَظْكَ» معناه: حافِظْ على امتثالِ أمرِه ونَهيِه وخشيتِك منه يُقابِلْ ذلك الحِفظَ بحِفظِه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فمَن وَصَلَ إلى القُربِ حَصَّلَ الأُنسَ والحُبَّ.

رَوَيْنا عنِ الأصمعيِّ أنّه قال: مَرَرتُ بأعرابيّةٍ في كُوخٍ، فقلتُ لها[٣]: يا أعرابيّةُ[٤]، مَن يُؤنِسُكِ ههُنا؟ قالت: يُؤنِسُني الذي يُؤنِسُ المَوتى في قُبورِهم. قلتُ: فمِن أين تأكُلِينَ؟ قالت: يُطعِمُني الذي يُطْعِمُ الدُّودةَ[٥] وهي أصغرُ منّي.

وقيل لمحمّدِ بنِ النَّضِرِ: ما تَستوحِشُ؟ قال: كيف أستوحِشُ وهو يقول: «أنا جليسُ مَن ذكَرَني؟!»[٦].

١٠٨و وقيل | لبعضِهم: متى يذوقُ العبدُ حلاوةَ الأُنْسِ؟، فقال: إذا قَطَعَ العَلائقَ، ورَفَضَ الخَلائقَ، وغاصَ في الحَقائقِ، مُطّلِعًا على الدقائقِ.

قال ذو النُّونِ: الأُنْسُ باللهِ مِن صفاءِ القلبِ مع اللهِ، والتّفرُّدِ باللهِ مِنَ الِانقطاعِ مِن كلِّ شيءٍ سِوى اللهِ[٧].

---

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) انظر: المعجم الكبير، ١١٢٤٣؛ وشعب الإيمان، ١٠٠٠٠؛ ومسند الشهاب، ٧٤٥.
(٣) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(٤) في الأصل: عرابية.
(٥) ع، س: الذرة.
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء، ٨:١٧٥.
(٧) انظر: حلية الأولياء، ٩:٣٩٤.

وقال شاه الكِرمانيُّ: عَلَامةُ الأُنْسِ الِاستيحاشُ مِنَ الغافلينَ، والسُّكونُ إلى الوَحدةِ، ومُوافقةُ الأحِبّة[١].

قال الحُسين بنُ أحمدَ الثقفيُّ: كنتُ يومًا عند الشِّبليّ، وكان يَذُمُّ الدنيا وأهلَها، فقال: يا[٢] مَن باعَ كلَّ شيءٍ بلا شيءٍ، واشترى لا شيءَ بكلّ شيءٍ[٣].

وقال: مَن عَرَفَ اللهَ لا يَطلُب مِنَ اللهِ غيرَ الله، ومَن استغاثَ إلى اللهِ بغير اللهِ لم يَنْجُ مِنَ اللهِ، ومَنِ استأنسَ معَ اللهِ استوحشَ مِن خَلْقِ اللهِ، ومَنِ استوحشَ مِن خَلْقِ الله صَار فريدًا بين يدَي الله ﷻ.

وقال أبو عثمان: إذا صحَّ للإنسانِ مقامُ السُّرورِ بالله يتولّدُ مِن ذلك المقامِ الأنسُ به. فإذا صحَّ أُنْسُه به استوحشَ مِن كُلِّ شيءٍ سِواه.

العاشر

العلم

قال الله تعالى لرسولِه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقد تقدّم الكلامُ | في العِلم بما فيه كِفايةٌ[٤]. ١٠٨ظ

وحاصلُه يَرجِعُ إلى ثلاثةِ أنواعٍ: نقليٌّ وعقليٌّ[٥] ولَدُنِّيٌّ، فاللدنُّي[٦] هو العِلم الحاصلُ مِنَ اللهِ بغيرِ واسطة تعليمٍ مِن خارجٍ، وذلك هو علومُ الرُّسلِ والأنبياءِ والأصفياءِ مِنَ الأولياءِ.

وعلومُ الأنبياءِ والأولياءِ تشترِكُ في ثلاثةِ أشياءَ، أحدُها: في العِلمِ اللَّدُنّي، فلا يفتقرُ إلى الكَسْبِيّ.

---

(١) انظر: شعب الإيمان، ٤٤٦.

(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: صفة الصفوة، ٢:٤٥٧؛ وسير أعلام النبلاء، ١٥:٢٨٢؛ وطبقات الصوفية، ١:١٠٢.

(٤) انظر: فيما سبق.

(٥) في الأصل: وعلميٌّ، والمثبت من: ع، س.

(٦) في الأصل: فالذي، والمثبت من: ع، س.

وثانيها: في الفعلِ بالهمّةِ فيما لا يُعانيه غيرُهم إلّا بالجسمِ، أو يعجزُ عنه الجسمُ.

وثالثُها: تصوُّرُ عالَمِ الخيالِ في عالَم الحِسِّ بالمُشاهَدةِ، ومَدارُ هذا العِلمِ على الفَهْمِ عنِ اللهِ، وهو نُورٌ يَقذِفُه اللهُ في قلبِ مَن أحبّه واصطفاه، وهو الذي قال فيه عليٌّ رضي الله عنه لمّا سُئلَ: هل خصَّكُم رسولُ الله ﷺ بشيءٍ[1]؟ قال: «لا، إلّا أنْ يُؤتِيَ اللهُ عبدًا فهمًا في كتابِه».

ودرجاتُ الفتحِ في فَهْمِ العلومِ متفاوتةٌ بحسَبِ ما يَمُدُّ اللهُ العقولَ به مِنَ القوى القابلةِ لِما يُلقَى إليها مِن قَذفِ نُورِ العِلْمِ على ظَلامِ الجهلِ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]،

١٠٩و | ومَن لم تُشْرِقْ في قلبِه – مِن ربِّه – شُموسُ الهدايةِ مِن سابقِ العِنايةِ لم يَحصُل على شيءٍ مِن لاحقِ الرِّعاية.

والعِلمُ على ثلاثةِ أوجُهٍ: عِلمُ برهانٍ بالأدلّةِ، وعِلمُ عيانٍ بالبَصرِ، وعلمُ وِجدانٍ بالبصيرةِ.

وهو أيضًا: عِلمُ اليقينِ بالسَّماعِ، وعينُ اليقينِ بالمُشاهَدةِ، وحقُّ اليقينِ بالذَّوْقِ.

قلتُ: عِلمُ الشريعةِ على نوعَينِ: عِلمُ دِراسةٍ، وهو بالكسبِ، وعِلمُ وِراثةٍ، وهو بالمَوهِبة.

فالأوّلُ يُؤخَذُ مِن أهلِ الصدق. والثاني يُؤخَذُ عنِ الفَتْقِ[2] لِلرَّتْقِ[3] مِنَ الناطِقِ بالحقِّ، بنورٍ يَقذِفُه اللهُ بقلبِ[4] مَن ارتضاهُ مِنَ الخَلْقِ، ولا غِنًى بأحدِهما عنِ الآخَرِ، وهما كاللَّبَنِ والزُّبدِ لأهلِ الوِراثةِ، فلا يُؤخَذُ زُبدٌ بِدُون لَبَنٍ، ولا وِراثةَ لِمَن لَم يَعلَمِ الدراسةَ، فعِلمُ الدراسةِ للأبرارِ، وعِلمُ الوراثةِ لِلمُقرَّبينَ، وكلٌّ إلى الخيرِ مِنَ الواصلينَ.

وهما كالإسلامِ والإيمانِ، لا غِنًى بأحدِهما عنِ الآخرِ، وقال الله تعالى:

١٠٩ظ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي | قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤]، فالسكِينةُ لِلمُقرَّبينَ، والإيمانُ للأبرارِ، قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم.

---

(١) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٢) الفتق: الفصل بين متّصلين، وهو ضدّ الرَّتْق. انظر: التعريفات، ١: ٥٤٩.

(٣) الرتق: الضمُّ والالتحام. نفسه، ١: ٣٥٥.

(٤) ع، س: في قلب.

القسم الثالث
النهايات

وهي الكمالاتُ، وهي عشَرةٌ: القُربُ، والمعرفةُ، والمُكاشفةُ، والمحبّةُ، والغَيرةُ، والمُشاهدةُ، والقَبْضُ مع البَسطِ، والفَناءُ مع البقاءِ، والتوحيدُ، والجَمعُ مع التفرقةِ.

الأوّل
القرب

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

اِعلَمْ أنّ قُرْبَ اللهِ مِن عبادِه أمرٌ معنويٌّ لا صُوريٌّ[1]. والمُرادُ: اطّلاعُه وإحاطةُ عِلمِه بأمورِ خَلقِه على الجُملةِ والتفصيلِ، ومُلاطفَتُه لأهلِ ولايتِه (*بإنابة كلاءتِه*٢) فمَن تَقرّبَ إليه بطاعتِه أقبَلَ عليه بحياطتِه وإعانتِه[3]، ومَن دعاه أجابَهُ ورَعَاه، فقُربُ العبدِ إلى اللهِ انقطاعُه إليه بطاعتِه وعِبادتِه، وقُرْبُ اللهِ مِنَ العبدِ توفيقُه لحُسْنِ مُعامَلتِه. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وفي الحديثِ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ»[4]. وقيل: القُرْبُ | دُنُوُّ ١١٠و
المحبوبِ مِنَ القلوبِ.

(١) ع: ضروري.
(*-*٢) مطموس في الأصل، وغير مقروء في ع، والمثبت من: س.
(٣) ع: واعتنائه.
(٤) سنن أبي داود، ٨٧٥؛ ومسند أحمد، ٩٤٦١؛ وصحيح ابن حبّان، ١٩٢٨؛ ومسند أبي يعلى، ٦٦٥٨؛ ومسند أبي عوانة، ١٨٥٦.

وعلاماتُ القُرْبِ مِن علّامِ الغُيوبِ: رَفْعُ الحُجُبِ عنِ القلوبِ بتطهيرِها عنِ العيوبِ، وقد تقدّم الحديثُ في الذِّكر، وفيه[1]: «وإنْ تَقرَّبَ منّي شِبرًا تقرّبتُ إليه ذِراعًا»[2].

رَوَيْنا عن أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنّ أقربَ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ، فأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعاء»[3].

ورَوَيْنا عنِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النبيّ ﷺ قال: قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «ما تَقرَّبَ إليَّ عبدٌ بشيءٍ أحَبَّ إليَّ مِمّا افترَضْتُ عليه، وما زالَ يَتقرّبُ إليَّ بالنَّوَافلِ حتّى أُحِبَّه، فإذا كان ذلك كذلك كُنتُ سَمْعَهُ الذي يَسمَعُ به، وقلبَهُ الذي يَعقِلُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، إنْ سألَني أعطَيْتُه، وإنْ دَعاني أجبتُه، وإنِ استغفَرَني غَفَرْتُ له»[4].

وبه تمّ القولُ في القُرْب.

الثاني

المعرفة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]. الفِقْهُ والعِلْمُ والمعرفةُ

١١٠ظ يتقاربون في المعنى، | وإنْ تفاوتَتْ مِنهُمُ المَراتبُ.

إلّا أنّ المعرفةَ في الاصطلاحِ بين أهلِ هذا الشأنِ: إحاطةٌ بالشيءِ مِن جميعِ وُجوهِه المُحصِّلةِ لِلعِلمِ به على ما هو عليه.

وهي على ثلاثةِ أوجُهٍ: معرفةُ الذاتِ، ومعرفةُ الصِّفاتِ، (*واستغراقٌ بسلبِ*[5]) الإراداتِ. وهذا لا يُتوصَّلُ إلى فَهمِه بالدَّلالاتِ.

---

(١) لا توجد في: س.

(٢) انظر فيما تقدّم ص ١٩٠.

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) انظر: المعجم الكبير، **٧٨٣٣**؛ والمعجم الأوسط، **٩٣٥٢**.

(*-*٥) س: واستغراقُ سلبِ.

ويقال: المعرفةُ على ضَرْبَينِ: حقٌّ، وحقيقةٌ. فالحقُّ وَحدانيّتُه بما أبدَى مِن مصنوعاتِه مِن علم أسمائِه وصفاتِه، وتخلّقَ بها مَنِ ارتضاهُ مِن خَلْقِه لمناجاتِه، والحقيقةُ يَكَلُّ اللسانُ فيها عن عباراتِه، ولا سبيلَ للعقولِ في ذلك إلى الوصولِ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقيل في التفسيرِ: ما عرَفوه حقَّ معرفتِه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

فإنْ قيل: قد قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [محمد: ١٩]، قلنا: الإحاطةُ به على ما هو عليه مُمتنِعةٌ؛ لِعجزِ المُحْدَثِ عن إدراكِ القديمِ[١]، والعِلمُ بوحدتِه مُمكنٌ. إنّه راجعٌ إلى الحقِّ، وذاك يَرجِعُ إلى الحقيقةِ.

قال بعضُهم: مَن عَرَفَ اللهَ في الدنيا عَرَفَهُ بقَدْرِ | تعريفِه إليه، ويتجلّى له في ١١١و
الآخرةِ بقدرِ معرفتِه إيّاه في الدنيا، فيراه في الدنيا رُؤيةَ الأسرارِ، ويراه في الآخرةِ رُؤيةَ الأبصارِ، فمَن لا يراهُ في الدنيا بِسِرِّه لا يراه في الآخرة بِعَينِه.

وسُئل أبو تُرابٍ عن صِفة[٢] العارفِ، فقال: الذي لا يُكدِّره شيءٌ، ويصفُو به كلُّ شيءٍ[٣].

وقال محمدُ بنُ الفضلِ: مَن عَرَفَ اللهَ اكتفى به؛ لأنّ اللهَ تعالى يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٦][٤].

وقال آخَرُ: العارفُ يَستريحُ معَ اللهِ ولا يستريحُ مِنَ اللهِ، ويخافُ مِنَ اللهِ ولا يخافُ معَ اللهِ، ويرجُو مِنَ اللهِ ولا يرجُو معَ اللهِ.

وقال ذو النُّونِ: للعارفِ ثلاثُ لحظاتٍ: لحظةٌ إلى ربِّه فيَفتخِرُ، ولحظةٌ إلى نفسِه فيَحتقِرُ، ولحظةٌ إلى ذَنْبِه فيَعتذِرُ.

---

(١) ع: التقديم.

(٢) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س، الرسالة.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٨.

(٤) انظر: طبقات الصوفية، ١٧٤.

وقال يحيى بنُ معاذ: علامةُ العارفِ ثلاثةُ أشياءَ: أحبُّ الأعمالِ إليه ذِكْرُ اللهِ، وأحبُّ الفوائدِ إليه ما دَلَّ على اللهِ، وأحبُّ الخَلْقِ إليه مَن يدعُوه إلى الله ﷻ.

وقال ابنُ عطاءٍ: المعرفةُ موضوعةٌ على ثلاثةِ أركانٍ: الهيبةِ، والحَيَاءِ،
١١١ظ والأُنْسِ[1]. فالهيبةُ مِن مُشاهدةِ العظَمةِ، | والحياءُ مِن مشاهدةِ القُدرةِ، والأُنسُ مِن مشاهدةِ الكرامة، وكلُّ مُلتحِقٍ بربِّه مُنقطعٌ عمّا سواه.

وقال ذو النُّون: علامةُ العارفِ ثلاثةٌ: لا يُطفئ نورُ معرفتِه نُورَ وَرَعِه، ولا يعتقدُ باطنًا مِنَ العِلمِ يَنقُضُ عليه ظاهرًا مِنَ الحِكمةِ[2]، ولا تَحمِلُه[3] كثرةُ نِعَمِ اللهِ عليه على هَتْكِ أستارِ مَحارِمِ اللهِ[4]. وقال بعضُهم: حقٌّ لِمن أعزّه اللهُ بمعرفتِه أنْ لا يُذِلَّ نفسَه بمعصيتِه.

رَوَيْنَا عن عائشةَ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ دِعامةَ البيتِ أساسُه، ودعامةَ الدِّينِ المعرفةُ باللهِ، واليقينُ والعقلُ القامعُ». قلتُ: بأبي وأمّي، ما العقلُ القامِعُ؟ قال: «الكفُّ عن مَعاصي اللهِ، والحِرصُ على طاعةِ اللهِ»[5].

ورَوَيْنا عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ – كرّم اللهُ وجهَه – قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عنِ الإيمانِ ما هو؟ قال: «معرفةٌ بالقلبِ، وإقرارٌ باللسانِ، وعملٌ بالأركان»[6].

١١٢و ورُوِيَ عن عُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ | :«لكلِّ شيءٍ مَعدِنٌ، ومَعدِنُ التّقوى قلوبُ العارفينَ»[7].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٦.
(٢) الرسالة: الحكم.
(٣) في الأصل: تحكمه. والمثبت من: ع، س الرسالة.
(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٩.
(٥) انظر: كنز العمّال، ٧٠٤٧.
(٦) انظر: المعجم الأوسط، ٦٢٥٤؛ وسنن ابن ماجه، ٦٥؛ وشعب الإيمان، ١٦.
(٧) المعجم الكبير، ١٣١٨٥؛ وشعب الإيمان، ٤٣٣٠؛ ومسند الشهاب، ١٠٣٣.

وقال رسولُ الله ﷺ: «واللهِ إنّي لَأَعْرَفُكم بالله، وأشدُّكم خوفًا منه»(١).

وقال أحمدُ بنُ عاصم الأنطاكيُّ: مَن كان باللهِ أعرَفَ كان منه أخْوَفَ(٢).

وقال النصراباذِي: علومُ الحقائقِ ثلاثةٌ: عِلمُ المعرفةِ، وعلمُ التوحيدِ، وعلمُ المحبّةِ. فتصحيحُ عِلمِ المعرفةِ يُورِثُ عِلمَ التوحيدِ، وكمالُ علمِ التوحيدِ يُوجِبُ المحبّة. ومَرجِعُ هذه العلومِ كُلِّها إلى التوقيفاتِ والاِتّباعِ لا لِلبراهين، وليس للعقلِ فيه مجالٌ؛ لأنّ العقلَ عاجزٌ، فلا يدلُّ إلّا على عاجزٍ مِثلِه.

وقال أبو بكرٍ محمّدُ بنُ الحُسينِ الحمّامي: أصولُ المعرفةِ أربعةُ أشياءَ: إحداهنّ: المحبّةُ، فإذا لم تكنِ المحبّةُ فيكون البُغضُ، والبغضُ كُفرٌ. والثاني: الخوفُ، فإذا لم يكُنِ الخوفُ فيكونُ الأمنُ، والأمنُ كُفرٌ. والثالثُ: الرجاءُ، فإذا لم يكنِ الرجاءُ فيكونُ القُنُوطُ، والقنوطُ كُفرٌ. | والرابعُ: اليقينُ، فإذا لم يكُنِ اليقينُ ١١٢ظ
فيكون الشكُّ، والشكُّ كُفرٌ.

قال الشِّبليُّ: أهلُ المعرفةِ هُمْ وحشُ الله في أرضِه، لا يَستأنِسُونَ بأحدٍ. وقال أبو يَزيد: العارفُ طَيّارٌ، والزاهدُ سَيّارٌ(٣).

وقال الجُنيدُ: العارفُ مَن نطقَ الحقُّ عن سِرِّه وهو ساكتٌ(٤). وقال سهلُ بنُ عبدِ الله التُّسْتَرِيّ: ما آتى اللهُ عبدًا مِن معرفتِه وقُرْبِه نصيبًا إلّا أخرجَه(٥) مِنَ الدنيا بقَدْرِ ما آتاهُ منها، ولا آتاهُ مِنَ الدنيا نصيبًا إلّا حَرَمَهُ مِن معرفتِه بقُرْبِه بقَدْرِ ما آتاه مِنَ الدنيا.

وقال فارسٌ: العارفُ مَن كان عِلمُه له(٦)، وكانت حَرَكاتُه عليه. وسُئِلَ ذو النُّونِ عن نهاية العارفِ، فقال: إذا كان حيثُ كان كما كان قبلَ أنْ يكون(٧).

---

(١) مسند عبد بن حميد، ١٥٠٢؛ ومسند أحمد، ٢٤٩١٢؛ ومسند أبي عوانة، ٢٨٨٠.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٢: ٤٧٩.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٥. والمقولة منسوبة إلى يحيى بن معاذ في: اللمع في التصوّف، ٣٨٥.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٧.

(٥) ع، س: حرّمه.

(٦) ع، س: حاله.

(٧) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١: ١٣٧.

قلتُ: يعني أنْ يَشهَدَ اللهَ وأفعالَه، ويَنعزلَ عن شهادةِ تصرُّفِه في نفسِه وفي
١١٣و موجوداتِه، فهو كالجَنِينِ في بطنِ أُمِّه، وكالمَيْتِ بين يَدَيْ مَن | يُقلِّبُه ويحملُه.

وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: أوّلُ مقامٍ مِنَ المعرفةِ أنْ يُعطَى العبدُ يقينًا في سِرِّه، فتسكنُ به جَوارحُه، وتوكُّلًا في حوائجِه يَسلَمُ به في دُنياهُ، وحياءً[1] في قلبِه يَفوزُ به[2] في عُقباهُ.

وسُئل الجُنيدُ عنِ العارفِ، فقال: لونُ الماءِ لونُ الإناءِ[3]. قلتُ: [*]يعني: بحسَبِ ما يُودَعُ فيه[*4] ويُقامُ به في[5] الصفاءِ في معاملاتِه، فهو مُتَلوِّنٌ في أوقاتِه، [*]يعملُ في كلّ أوقاتِه[*6] بما هو أَولَى به. ومِن أجلِ ذلك قال أهلُ الطريق فيه: هو ابنُ وقتِه.

وقال الشِّبليُّ: لا يكونُ لغيرِه لاحِظًا، ولا بكلامِ غيرِه لافِظًا، ولا يَرى لنفسِه غيرَ اللهِ حافظًا[7].

قلتُ: العارفُ مَنِ اقتفى سِيرةَ أهلِ الصفاءِ، واكتفى باللهِ في المُؤانَسةِ مِنَ الخَلْقِ والجفاءِ، وانتفى عن مُراداتِه للأشياءِ ببذلِ المجهودِ في الخدمةِ مِنَ الوفاء.

قال سَهلٌ: أهلُ المعرفةِ باللهِ أصحابُ الأعرافِ، يَعرِفُون كُلًّا بِسِيْمَاهُم، أقامَهُم مَقامًا أشرَفَ بهم على الدارَيْنِ، وعرّفَهُمُ المَلَكَيْنِ.

١١٣ظ قال الشِّبليُّ: أهلُ | المعرفةِ ثلاثةٌ: قومٌ قالوا: «أنا»، وقومٌ قالوا: «هو»، وقومٌ
أُخْرِسُوا، فلم يُمكِنْهُم أنْ يَنطِقُوا.

---

(١) ع، س: حياة.
(٢) س: بها.
(٣) الرسالة: إنائه.
(*-*٤) الرسالة: يعني أنه بحكم وقته.
(٥) س: من.
(*-*٦) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: س.
(٧) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٦.

وقال بعضُهم: المعرفةُ إذا وَردتْ على السِرِّ ضاقَ السرُّ عن حَملِها، كالشمسِ يَمنَعُ شُعاعُها عن إدراكِ نهايتِها وجوهرِها.

قيلَ لذي النُّونِ: ما أوّلُ درجةٍ يَرْقَى بها العارفُ؟ فقال: التحيُّرُ، ثُمّ الِافتقارُ، ثمّ الِاتِّصالُ، ثمّ التحيُّرُ.

قلتُ: الحَيرةُ الأُولى تمييزُ الأفعالِ، والنظرُ في نِعَمِ اللهِ المُتواترةِ عليه، ويرى أنّ الشُّكرَ مُتوجِّهٌ إليه، وأنّه عاجزٌ عن شُكرٍ يُقابِلُ اليَسيرَ منها، فكيفَ بالكثيرِ؛ لاحتقارِه ما يصدُر منه مِنَ الأفعالِ. وإنْ رأى أنّها واجبةٌ عليه لا يجوزُ له التخلُّفُ عنها.

والحَيرةُ الأخيرةُ: دَهَشَاتٌ تتردّدُ في وطنَاتِ التوحيدِ، ثمّ تضلُ الفكرةُ في فَيافِي مُتَنَاهاتِه[1]، فيَعْجَزُ فَهْمُ العارفِ ويتوقّف ذِهنُه، ويَكِلُّ حَدُّ عقلِه في اعتبارِ عَظَمةِ قُدْرَةِ اللهِ وعِزّة جلالِه، ورِفعةِ جمالِه، ونُفوذِ مشيئتِه، وما بينهم | وسائطُ، فإنّ بالِافتقارِ إليه يَقعُ الِاتّصالُ به، ومَن رَكَنَ إلى مخلوقٍ فإنّه لم ١١٤و يَصدُقْ في افتقارِه إلى اللهِ.

وقال بعضُهم: دُونَ التوحيدِ مَتاهاتٌ تَضِلُّ فيها الأفكارُ، وعِندَ الِانتهاءِ يحصُلُ العَجْزُ عن الثناءِ، كما قال ﷺ: «لا أُحْصِي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك». وكما حُكيَ عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنه قال: «سُبحانَ مَن لم يَجعلِ السبيلَ إلى مَعرفتِه إلّا بالعجزِ عن معرفتِه»[2].

وقال بعضُ المُحقّقينَ: أعْرَفُ الخَلْقِ باللهِ أشَدُّهم تَحَيُّرًا فيه[3]. وسُئلَ ذو النُّونِ عنِ العارفِ، فقال: كان ههُنا فذَهَبَ[4].

قلتُ: يعني أنّ ما هو فيه مِن تصرُّفاتِه ليست عن إراداتِه، بل هو مُتصرِّفٌ فيما يُقامُ فيه مِن حالاتِه[5]. وفي مَعناهُ أَنشَدَ ابنُ عطاءٍ:

---

(١) في الأصل، ع: متاهاته. والمثبت من: س.

(٢) انظر: اللمع في التصوّف، ١٧٢.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٦٠٥.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٣.

(٥) لا توجد في: ع.

[الطويل]

ولو نَطَقَتْ فِيَّ ألسُنُ الدهرِ خَبَّرتْ ... بأنّي في ثوبِ الصبابةِ أَرْفُلُ
ومَا إنْ لها عِلْمٌ بقَدْرِي ومَوضِعِي ... وما ذاكَ مَوهومٌ لأنّي أنقلُ

١١٤ظ | وقال الجُنيدُ: المعرفةُ: التّجريدُ ثمّ[١] التّفريد، فأوّلُه التجريدُ عمّا دُوْنَ الحَقِّ، ثمّ التّفريدُ بالحقِّ، فإذا تَجرّدْتَ عمّا دُونَه، فقد تفرّدْتَ به ووحّدت[٢] الفَرْدَ الواحد، قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]. ونُقِلَ مِثلُ هذا الكلامِ عنِ أبي العبّاسِ بنِ عطاءٍ.

قال جعفر الصّادقُ رضي الله عنه: عشَرةُ أشياءَ يحتاجُ إليها العبدُ حتى يكُونَ عارفًا بالله: الأول: سُرورُ[٣] المعرفةِ، والثاني: أُنْسُ الوحدانيّة، والثالثُ: إخلاصُ العبادةِ، والرابعُ: حُسنُ المعاملة، والخامسُ: خوفُ المُفارَقة، والسادسُ: رؤيةُ المِنّة، والسابعُ: صبرٌ على الشِّدَّة، والثامنُ: شُكرٌ على النِّعمة، والتاسعُ: رِضى بالقِسمة، والعاشرُ: صِدقُ المَحبّة.

قلتُ: والكمالُ في المعرفةِ باللهِ أربعةُ فُصولٍ، هي لِلمعرفةِ أُصولٌ، وإلى اللهِ وُصُولٌ:

أحدُها: معرفةُ وجودِ الإلهِ وقِدَمِه وأسمائِه وصفاتِه الذاتيّة والفعليّة، وما يجبُ ويَجُوزُ ويستحيلُ[٤] عليه.

١١٥و وثانيها: معرفةُ أحكامِه في خَلقِه في الدارَين: أمّا في الدنيا | فأحكامُ المُكلَّفِينَ فيها مِنَ الحلالِ والحرامِ في الظواهرِ، وأحكامِ القلوبِ في البواطنِ، مِنَ العُجْبِ والحَسَدِ والحِرصِ والطمَعِ وكُلِّ وصفٍ مذمومٍ، فما كان (*من الظّاهر فهو*[٥])

(١) في الأصل: عن، والمثبت من: ع، س.
(٢) في الأصل: وتوحّدت، والمثبت من: ع، س.
(٣) لا توجد في: س.
(٤) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(*-*٥) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

مِن فُروضِ الكفايةِ إنْ تركَه الجميعُ عَصَوا بأجمَعِهم، وما كان مِنَ الباطنِ فهو فرضُ عَينٍ على كلِّ مُكلَّفٍ.

وأمّا في الآخِرةِ فالحُكمِ في مآلِ المُكلَّفِينَ مِنَ المُنعَّمينَ والمُعَذَّبينَ، وما في الموقفِ[١]، وما يقعُ في يوم العَرْضِ مِنَ الشفاعةِ والصِّراط والحَوْض ... وغير ذلك.

وثالثُها: معرفةُ الدنيا، وهي تُطلق باعتبارَين:

أحدُهما: ما بينَ السّماءِ والأرضِ، إذْ هُما عُلُوٌّ وسُفلٌ مُتميِّزانِ، ومَنزلانِ ومسكنانِ يُقال لِأحدِهما: العالَمُ العُلْويّ، والآخر: العالَم السُّفْليّ.

وثانيهما: ما على وجهِ الأرضِ مِن زينةِ الدنيا وزَهْوِهَا[٢]، كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الآية ... إلى أنْ قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: [آل عمران: ١٤].

ورابعُها: النفسُ، وما هي مُشتمِلةٌ عليه مِنَ المكرِ والخِداعِ، والمُتابَعةِ لِلهَوَى والنِّزاعِ، ومُعاناةِ | أخلاقِها الحميدةِ والذميمةِ في مَعدِنِ الهَوَانِ، ومَسكنِ ١١٥ظ الشيطانِ، فلا بدّ مِن معرفةِ الساكنِ فيها، وإنّه لَوَاسِعُ الحِيلةِ عظيمُ المَكرِ في نَصْبِ الشِّبَاكِ لِلاصطيادِ، عارفٌ بفتح الأبوابِ المُرْدِيَة.

وأعظمُ ما يُنتفَعُ[٣] به الِالتجاءُ إلى اللهِ في دَفعِه، والمُحافظةُ على الطاعاتِ بالجِدِّ والِاجتهادِ، ومُعْظَمُ أدب المُتوجّهين لأدبِ النفسِ المُخالفة لها.

وقد تقدّم الكلامُ بالتفصيلِ في ذلك كُلِّهِ[٤]، فمَن أحكَمَ جُملةَ هذهِ الفصولِ، فقد حصلَ بالوقوفِ منها على الأصولِ، فإذا أتقنها وخرجَ[٥] عنها وعلّقَ كُلّيتَه

---

(١) ع: المتوقف.

(٢) ع، س: وزهرتها.

(٣) س: يندفع.

(٤) انظر فيما سبق.

(٥) ع، س: تجرّد.

بوحدةِ اللهِ في رؤيةِ الأشياءِ كلِّها سُمّيَ عارفًا باقيًا، (*فإن فني عن رؤية بقائه سُمّيَ عارفًا فانيًا*١).

فهذه جملةٌ مَن حَصَّلَها ظَفِرَ مِنَ المعرفةِ بمُرادِه، وكان ربُّه ناظرًا إليه بعينِ وِدادِه، وتنزّلتْ عليه المَوارِدُ(٢) الرَّحْمانيّةُ، وتَكثّرتْ لَدَيْهِ الفوائدُ الإحسانيّة، وكان مِن عظمةِ اللهِ وتوحيدِه مَلِيًّا، فيبقَى اللهُ في جميعِ حالاتِه وليًّا، فهو ناظرٌ في مِرآة التصرُّفاتِ إلى أوسعِ الدوائرِ في العالَم، وهي دائرةُ العِلْمِ والرحمة، فأقام أعذارَ الخَلْقِ | ١١٦و في تنوُّعِ الحالاتِ، وتبدُّلِ الصفاتِ، قد أجرى أحكامَ التكاليفِ على ما ظهر تأدُّبًا بأدبِ الشريعةِ، فهو راحِمٌ للعبادِ، دائمٌ لتركِ الانتقادِ، ناظرٌ فيما سبقَ مِنَ المُرادِ. قال الله تعالى: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، وقال عليه السلام حكايةً عن ربِّه: «إنّ رَحمتِي سَبَقتْ غضَبي»، وهذا بخلافِ نظرِ الزاهد، فإنّه ناظرٌ إلى مآلِ الأعمالِ مِنَ اللَّواحقِ والخواتيم، كما قال عليه السلام: «إنّما الأعمالُ بالخَوَاتِيم». فمَا عَذَرُوا مَن في الاجتهادِ قَصَّرَ(٣)، ولا شَكَرُوا سَعْيَ مَن كان عن قَرْعِ بابِ مَولاهُ قد تأخّر. وبه تمّ الكلامُ في المعرفةِ.

الثالث
المُكاشَفة

قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، المكاشفةُ مُفاعَلةٌ مِنَ الكَشفِ، وهو الظُّهورُ والتجلّي، ولا تقع المفاعَلةُ إلّا بين اثنَين، كقولِهم: ضارَبَ وقاتَلَ، وقد جاء قولُهم(٤): سافرتُ، وعاقبتُ اللصَّ، وطارَقْتُ النَّعْلَ، وليس مِنِ اثنَينِ، إلّا أنّه أُقِيمَ المُصاحبةُ للفعلِ مَقامَ الفاعلِ الآخرِ، وكاشفَ مِن هذا القَبيلِ؛ فإنّ المُكاشفَ | ١١٦ظ مُصاحبٌ لِمَا أخبَر به وعايَنَهُ.

(*-*١) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٢) س: المواريد.

(٣) في الأصل: قصروا.

(٤) لا توجد في: س.

فالمُكاشَفةُ مُطالَعةُ أنوارِ القلوب، لِمُعايَنةِ أسرارِ الغُيُوبِ، وهي على ثلاثةِ أوجُهٍ: مُكاشَفةٌ بالعِلمِ: وهي التوفيقُ للتحقيقِ (*بإصابةِ الفهمِ، ومُكاشَفةٌ بالحالِ: وهي التحقيقُ*١) في التدقيقِ لرؤيةِ الزِّيادةِ فيه بالعزمِ، ومُكاشَفةٌ بالوَجْدِ: وهي التصديقُ بمشاهدةِ العَينِ مع قيامِ الرسمِ.

فإنّ النفسَ إذا تخلّصت مِن حبائلِ(٢) أهْويتِها وشَرَكِ فِتنتِها تَصَفّتْ مِن كُدُورِها(٣)، وتَلَطّفَتْ مِن كثافتِها، وانقشعَتْ عنها حُجُب ظُلمتِها، ترَوْحَنَتْ(٤) وعَلَتْ، وتَنَعّمَتْ وفَهِمَتْ وما وَهِمَتْ، فتَكتسبُ الفِراسةَ، وهو التوسُّمُ الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، أي المُتفرِّسِينَ، فإنْ صَدَقتْ في مُعاملتِها تَرَقّتْ إلى المُكاشَفةِ. والفَرْقُ بينهما أنّ الفِراسةَ تنشأ عن واردِ حقٍّ في النفسِ يَجِدُهُ المُخبرُ، فيصدق فيه، والمُكاشَفةُ تنشأُ عن رُؤيا عَينٍ أو سماعِ خطابٍ مِن خارجٍ، فيكون كما أخبر به. فغايةُ المُكاشفةِ المُشاهَدةُ، ومَبادِئُها الفِراسةُ، ولِأجْلِ هذا الِالتباسِ قال الكَتّانيُّ: | الفِراسةُ مُكاشَفةُ اليقينِ، ومُعايَنةُ ١١٧و الغيبِ، وهي مِن مقاماتِ الإيمانِ(٥).

وقال بعضُهم: اطّلاعُ اللهِ على القلبِ، فيطالعُ القلب للغيبِ بنورِ الربِّ. رَوَيْنا عن عطيّة عن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتّقُوا فِراسةَ المُؤمنِ، فإنّه يَنظُرُ بنورِ الله»(٦)، ثمّ قرَأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

(*-*١) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٢) في الأصل: حائل، س: حيال، والمثبت من: ع.

(٣) ع، س: كدوراتها.

(٤) س: وتروّحت.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٢: ٣٨٧.

(٦) انظر: الأربعون في التصوّف، ٣٥.

ورَوَيْنا عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لله عِبادًا يَعرفون الناسَ بالتوسُّمِ»[(١)]، وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المؤمنَ ينظرُ بنورِ اللهِ عز وجل»[(٢)].

قلتُ: الفِراسةُ خاطرٌ يقعُ في القلبِ بَغْتَةً، فيَرتفعُ به مُضادُّه[(٣)]. واشتقاقُه مِنَ الفَرْسِ، وهو الاِستيلاءُ على الشيءِ بعُنْفٍ، مأخوذٌ مِن فريسةِ السَّبُعِ، فإنها إذا حصلت بين يديهِ لا يمكنُها مِن انقلابها[(٤)] عنه.

قال أبو جعفر الحدّادُ: الفِراسةُ أوّلُ خاطرٍ بلا مُعارِضٍ؛ فإنْ عارَضَ عارضٌ[(٥)] مِن جنسِه فهو خاطرٌ وحديثُ نفْسٍ[(٦)].

ويُحكى عن شاه الكرمانيّ أنّه كان حَادَّ الفِراسة، وقَلَّ ما كان تُخطِئ فِراستُه. | وكان يقول: مَن غَضَّ بَصَرَهُ عنِ المَحارمِ، وأَمسَكَ نفسَه ١١٧ظ
عنِ الشهواتِ، وعَمَرَ باطنَه بدوامِ المُراقَبةِ، وظاهِرَه باتِّباع السُّنّة[(٧)]، (*وعَوّدَ نفسَه*[٨]) أكْلَ الحَلالِ، (*فذلك الذي له فِراسةٌ*[٩]) [(١٠)].

وقال الحُسين بنُ منصور: المُتفرِّسُ هو المُصيبُ بأوّل مَرماهُ إلى مَقصِدِه[(١١)]، فلا يُعرِّجُ على تأويلٍ [وظنٍّ][(١٢)] وحُسبانٍ.

---

(١) انظر: المعجم الأوسط، ٢٩٣٥؛ ومسند الشهاب، ٦٥١.

(٢) انظر: كنز العمّال، ٨٢٣.

(٣) ع، س: ما ضاده.

(٤) س: انفلاتها.

(٥) س، الرسالة: معارض.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٨٥.

(٧) لا توجد في: س.

(*-*٨) الرسالة: وتعود.

(*-*٩) الرسالة: لم تخطئ فراسته.

(١٠) انظر: الرسالة القشيرية، ٤٨٣.

(١١) في الأصل: مقعده، والمثبت من: ع، س.

(١٢) زيادة من الرسالة.

قلتُ: وقد كانتِ الفراسةُ في جَمْعٍ مِنَ الصحابةِ والتابعين والعلماء، ولو تتبّعنا ما نُقِلَ عنهم في ذلك مِنَ الحكاياتِ أطَلْنا، فمَن أرادَ عِلْمَ ذلك طَلَبَه من مَظانِّه. واللهُ أعلمُ.

الرابع
المحبّة

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

اِعلَمْ أنّ محبّةَ اللهِ ومحبّةَ رسولِه ومحبّةَ طاعاتِه وما يُقرِّبُ مِن ذلك مطلوبٌ مِنَ العبادِ، مَرغوبٌ فيه عِندَ مَن رَزَقَهُ اللهُ في عَقلِه شيئًا[1] مِنَ السَّدادِ، وكلُّ مؤمنٍ باللهِ فمِن صِفتِه المَحبّةُ للهِ.

رَوَيْنا عن أَنَسٍ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مِمّا سِواهُما، | وأنْ يُحِبَّ الرجُلُ أخاه لا ١١٨و يحبُّه إلّا لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَرجِعَ إلى الكُفرِ كما يَكرهُ أنْ يُلقَى في النارِ»[2].

ورَوَيْنا عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أحَبَّ اللهُ العَبدَ قال لِجبريلَ عليه السلام: يا جِبريلُ، إنّي أَحبَبْتُ فُلانًا فَأَحِبَّه؛ فيُحِبُّه جِبريلُ، ثمّ يقولُ جِبريلُ لِلمَلائكةِ عليهم السلامُ: إنّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السماءِ، ثمّ يَضَعُ له القَبُولَ في الأرضِ، وإذا أَبغَضَ اللهُ العَبدَ» قال مالِكٌ – يعني ابن أنس –: لا (*أحسبُه إلّا*[3]) قال في البُغْضِ مِثلَ ذلك.

---

(١) في الأصل: شيء، والمثبت من: ع، س.

(٢) انظر: المعجم الكبير، ٨٠١٩؛ والمعجم الأوسط، ٢٥٤٠؛ وسنن ابن ماجه، ٤٠٣٣.

(*–*٣) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س، الرسالة ٦١١.

ورَوَيْنا عن عائشةَ قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَن آثَرَ مَحبّةَ اللهِ على مَحبّةِ الناس كَفَاهُ اللهُ مؤُونةَ الناسِ»(١).

ورَوَى رافعُ بنُ خَديجٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذا أحَبَّ عبدًا حَمَاهُ مِنَ الدنيا كما يَحمِي أحدُكم سَقِيمَهُ الماءَ»(٢).

عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «علامةُ حُبِّ اللهِ حُبُّ ذِكْرِ اللهِ، وعلامةُ بُغضِ اللهِ بُغْضُ ذِكرِ اللهِ»(٣).

١١٨ظ فالمحبّةُ للهِ مَنزِلةٌ شريفةٌ ومَرتَبةٌ | مُنيفةٌ، وأصلُ المحبّةِ المَيْلُ، ولا يوجدُ الميلُ إلّا عن إرادةٍ، فمحبّةُ اللهِ لعبادِه إرادةُ الإنعامِ والإكرامِ لهم، ومحبّةُ العِبادِ له ميلٌ إليهِ، وتعرُّضٌ لإحسانِه وامتنانِه.

رَوَيْنا عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ كما يَغْذُوكم به مِن نِعَمِه، وأَحِبُّوني كحُبِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي كحُبِّي»(٤).

وأمّا في المُصطَلَح: فحالةٌ تتمكّنُ في القلبِ يجدُها المتوجّهُ، تَدِقُّ عنها العبارةُ، والأحوالُ الحادثةُ عنها متنوّعةٌ، مِن قلقٍ وأَرَقٍ، وأُنسٍ وطَربٍ، وحُزنٍ وفرحٍ، وسُكونٍ واضطرابٍ ... وغير ذلك.

واختُلفَ في اشتقاقِ المحبّة، فقيل: مِنَ الصفاءِ، ومنه سُمِّيَ حَبَبُ الأسنانِ؛ لصفاءِ بياضِها ووجودِ نضارتِها(٥).

وقيل: مِنَ الغَلَيانِ، ومنه سُمِّيَ الحَبَابُ، وهو ما يعلُو الماءَ عند المطرِ الشديد(٦). فالمحبُّ يَعتريه مِنَ الهيجانِ والتعطُّشِ لِلقاءِ ما يَحمِلُ قلبَه على الغلَيانِ.

---

(١) انظر: مسند الشهاب، ٤٤٧.

(٢) انظر: سنن الترمذي، ٢٠٣٦؛ والمعجم الكبير، ٤٢٩٦؛ ومسند الشهاب، ١٣٩٧.

(٣) انظر: شعب الإيمان، ٤٠٦؛ وكنز العمّال، ١٩٢٦.

(٤) انظر: سنن الترمذي، ٣٧٨٩؛ وشعب الإيمان، ٤٠٤.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٣.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٣.

وقيل: من الحَبَاب – بفتح الحاء – وهو (*معظمُ الماءِ*[١])، (*فالمحبُّ مُعْظَمُ ما في قلبِه المَحبّةُ؛ لأنها تَشغَلُه عنِ النظرِ لغيرِ مَحبُوبِه*[٢]).

وقيل: مِنَ اللزومِ والثباتِ، ومنه: | قولُهم[٣]: أَحَبَّ البعِيرُ، (*إذا بَرَكَ، فلم ١١٩و
يقُم. فالمُحبُّ مُلازمٌ مُقِيمٌ على طلَبِ مَحبوبِه*[٤]).

وقيل: مِنَ القَلَقِ لِتَعَلُّقِه[٥] واللزومِ، ومنه سُميَ الحَبُّ للقرط[٦]؛ إمّا للزومِه الأُذُنَ أو لِقَلَقِه فيها[٧].

ولو تتبّعنا ما قِيل في المحبّةِ واشتقاقِها أطَلْنا. وقدِ اختلفت عباراتُ أهلِ الطريق فيها، فقال أبو يَزيد البِسطاميُّ: المحبّةُ استقلالُ الكثيرِ مِن نفسكَ، واستكثارُ القليل من حَبيبِكَ[٨].

وقال سَهلٌ: الحُبُّ مُعانقةُ الطاعةِ ومُبايَنةُ المُخالَفة[٩]، وقيل: المَحبّةُ المَيْلُ الدائمُ بالقلبِ الهائم[١٠]، وقيل: مُواطأةُ القلبِ لِمُراداتِ الربِّ[١١]، وقيل: موافقةُ الحبيبِ في المَشهدِ والمَغيب[١٢].

(*–*١) الرسالة: معظمه.

(*–*٢) الرسالة: لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات.

(٣) الرسالة: يقال.

(*–*٤) الرسالة: وهو أن يبرك فلا يقوم، فكأنّ المحبّ لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه.

(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٦) لا توجد في: ع.

(٧) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٣.

(٨) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

(٩) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٥.

(١٠) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

(١١) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

(١٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

وقيل: إيثارُ المَحبوبِ على جميعِ المصحوب[١]. وقيل: مَحْوُ المُحبِّ بصفاتِه[٢] وإثباتُ المحبوبِ بذاتِه[٣].

فالمحبةُ: مُبتدأُ دُخولِ أوديةِ الفَناء، ومُنتهَى العقبات التي ينحدرُ عنها[٤] مَن
١١٩ظ وَقَعَ في العَناء[٥]، وهي مَشروبُ الخاصّةِ مِن أهلِ الصفاءِ، ومطلوبُ | العامّةِ العاملينَ على الوفاء.

وهي على طِباقٍ ثلاثة:

الأولى: محبّةُ العامّة، وهي مُستنِدةٌ إلى ما أنعَم به على عِباده مِنَ الإحسانِ، وتتمّم عليهم مِنَ العطفِ والحنانِ، فهم مُطالِعون المِنَنَ، مُتابِعون السُّنَنَ، وهي محبّةُ الزاهدينَ.

وثانيها: محبّةُ الخاصّة، وهي مستندةٌ إلى نظرِ القلبِ إلى الجلالِ والجمالِ والعظمةِ والكمال، وهي محبّةُ العارفينَ.

وثالثُها: محبّةُ خاصِّ الخاصّة، وهي النظرُ لِما أهّلهُم له مِن حُبِّه لهم وحُبِّهم لهُ بلا عِلّة، فتولَّهُوا وتاهُوا في مَهامه تلك الفكرةِ، وتنزّهوا في بساتينِ[٦] الأُنْسِ والهَيْبة، فطاشوا مِن شدّة الحَيْرة، وفاضت عليهم مياهُ الأسرارِ الغيبيّة حتى غسَلَتْ منهم دَنَسَ التعلُّقِ بالآثارِ الغَيريّة. لمحت منهم بقايا التطلُّعاتِ النفسيّة، وحمتْ عنهُمُ الِالتفاتَ إلى الجهاتِ العُلويّة والسُّفليّة، وهذه محبّةُ الصِّدّيقينَ[٧].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

(٢) الرسالة: لصفاته.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٤.

(٤) ع: منها.

(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٨.

(٦) س: بستان.

(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٨.

قال الجُنيدُ: المحبّةُ إفراطُ المَيْلِ بلا نَيْلٍ[1]. قلتُ: يعني به ميلَ القلبِ إلى الربِّ، وإلى ما أُمِر به العبدُ مِمّا يدعُو إلى القُرْبِ[2]. وقولُه: «بلا | نَيْلٍ»، أي بلا ١٢٠و أملِ عَطاءٍ وجزاءٍ وثوابٍ على ذلك[3].

وقال الشِّبليُّ: المحبّةُ أنْ تَغارَ على المحبوبِ أنْ يُحِبَّهُ[4] مِثْلُك[5]. وقال أبو يعقوب [السُّوسي][6]: لا تَصِحُّ المحبّةُ إلّا بالخروجِ عن (*كلِّ رؤيةٍ*[7]) إلى رؤية المحبوب بفَناء علمِ المحبّة[8].

واختلفوا في المحبّةِ والمعرفةِ، فكان سمنونُ يُقَدِّمُ المحبّةَ. والمُحقّقُون على خلافِه، فإنّ المحبّةَ وجود محقّ بوجه حقٍّ مع قيامِ لذّةٍ وتمامِ دَهشةٍ. والمعرفةُ إدامةُ حَيرةٍ في شهادةِ حَضرةٍ، وفناءُ فكرةٍ في بقاءِ حَسرةٍ. وبهذا يقعُ الفرقُ عند مَن حَصَلَ له الذوقُ.

قلتُ: المعرفةُ مُنْبِئَةٌ عنِ الحقائقِ، مُغْنِيَةٌ عن دفعِ العوائقِ، والمحبّةُ مُتْبِعَةٌ لمن عاناها، مُعْرِبةٌ عن معناها، صاحبُها بها مشغولٌ، فعقلُه عن فَهْمِ ما يُلقَى إليه بها معقولٌ، فالمحبُّ صاحبُ تلوينٍ، والعارفُ صاحبُ تمكينٍ[9].

وعلامةُ حُبِّ اللهِ للعبدِ حُبُّ العبدِ للهِ، فمَن أحبَّ ما أحبَّ وأبغضَ ما أبغضَ، فيُبادِر إلى الفرائضِ، ثمّ يُتْبِعُها بالنَّوافلِ.

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٧؛ وتأييد الحقيقة، ٩٨.
(٢) في الأصل: الرب، والمثبت من: ع، س.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٨.
(٤) لا توجد في: س.
(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٦١٥.
(٦) زيادة من الرسالة.
(*-*٧) الرسالة: رؤية المحبة.
(٨) انظر: اللمع في التصوّف، ٥٩؛ والرسالة القشيرية، ٦١٩؛ وتأييد الحقيقة، ٩٨.
(٩) انظر: الرسالة القشيرية، ١: ١٨٩.

١٢٠ظ وفي الحديثِ عنِ النبيّ | ﷺ: «ما تَقرّبَ إليَّ عبدِي بمِثلِ أداءِ ما افترَضْتُ عليه، ولا يزالُ العبدُ يتقرّبُ إليَّ بالنوافلِ حتّى أُحِبَّه»[1]. والنوافلُ هي الأفعالُ والأقوالُ والنيّاتُ المُقرِّبةُ مِنَ المَثُوباتِ المُبعِدةُ عنِ العُقوبات. وبه تمّ القولُ في المحبّة.

الخامس

الغَيْرَة

قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى مُخبِرًا عن سُليمانَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

الغَيْرةُ مِنَ المُغايَرةِ، وهي المُجانَبةُ، كراهيةُ المشاركةِ[2].

رَوَيْنا عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنّ اللهَ يَغَارُ، وإنّ المؤمنَ يَغَارُ، وغَيْرةُ اللهِ أنْ يأتيَ المؤمنُ ما حرّم اللهُ عليه»[3].

فالغَيْرةُ في الآدميِّ كراهيةٌ تقومُ في النفسِ لأجْلِ وُرودِ ما يتأثّرُ به مِن خارجٍ، وفي صفةِ اللهِ تعالى عدمُ رِضاهُ للمشاركةِ فيما هو له على عبادِه في حقِّ طاعتِه.

والغَيْرةُ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

غَيْرةٌ في الحقِّ، وهي مِن رؤيةِ ارتكابِ المَناهي والفواحشِ وتضييعِ
١٢١ظ | الأوقاتِ، واستدراكِ ما حصلَ منها مِنَ الفَوَاتِ، وتلك غَيرةُ العابدين.

(١) انظر: الأربعون في التصوّف، ٣٦.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري، ٤٨٢٢؛ وصحيح مسلم، ٢٧٦١؛ وسنن الترمذي، ١١٦٨؛ وصحيح ابن حبّان، ٢٩٣.

وثانيها: غَيْرةٌ على الحقِّ، وهي كِتمانُ ما تجلّى مِنَ المعارفِ على السرائر، وتجلّي به المُتوجّهُ مِنَ المواقفِ عند الخواطرِ، وتأسّف عليه مِنِ انقضاءِ ماضٍ في وقتِه يُغْفِلُه عن عمارة الضمائر، وهي غيرةُ المُريدين.

وثالثها: غيرةُ الحقِّ، وهي مِنَ اللهِ تعالى على عبدِه في رُكونه إلى شيءٍ مِن حُظوظِه بتنغيصِها[١] عليه حتى تقتطعَهُ بذلك إليه، ومِنَ العبدِ على اللهِ في اطّلاعِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ على شيءٍ مِن سرِّ الحقِّ، كما قال بعضُ المُفْرِطينَ مِنَ المُحِبِّينَ:

[الطويل]

أغارُ عليها أنْ يَرَى البدرُ وجهَها ... بغيرِ قِنـاعٍ[٢] والمُـحِـبُّ غَيُـورُ

غيرَ أنّه يَلزَمُ مِنَ الأدبِ أنْ لا يُقالَ: أغارُ على الله، بل يقال: أغارُ لله. وقال قومٌ: الغَيْرةُ لائقةٌ بالمُريدينَ، أمّا بالعارفينَ المُوحِّدينَ فلا؛ لأنّ الموحِّدَ مسلوبُ الاختيارِ، مجرَّدٌ عنِ النَّظرِ إلى الأغيارِ، مُبْعَدٌ عنِ القُربِ إلى الاعتراضِ على مَجاري الأقدارِ، ومَن كان مشغولًا بالحقِّ لم يتَّسِعْ في وقتِه | لِلغَيْرَةِ، ولا يندفعُ عن حالِه إلى شيءٍ مِنَ الفَترةِ[٣]. ١٢١ظ

قال أبو عُثمانَ المَغربيُّ: الغَيرةُ مِن عَملِ المُريدينَ، فأمّا أهلُ الحقائقِ فلا[٤]. وقال الشِّبليُّ: الغَيْرةُ غَيْرتانِ، فغَيْرةُ البشريّةِ على النُّفوسِ، وغَيْرةُ الإلهيّةِ على القلوبِ[٥]. وقال أيضًا: غَيرةُ الإلهيّةِ على الأنفاسِ أنْ تُضَيَّعَ فيما سِوى الله ﷻ[٦]. وقد تكون الغَيْرةُ مِن سَمَاعِ الذِّكْرِ بغير حُضورٍ معَ الله، فيُنْكِرُها السامعُ ويَزجُرُ عنها.

---

(١) في الأصل، ع: بتبعيضها.

(٢) س: خمار.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٥.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٥.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٥.

(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٥.

سَمِعَ النُّوريُّ رجُلًا يُؤذِّنُ، فقال: طعنةٌ وسُمُّ الموتِ، وسَمِعَ كلبًا ينبُحُ، فقال: لَبّيكَ وسَعْدَيكَ، [فقيل له: إنّ هذا تَرْكٌ للدِّين؛ فإنّه يقولُ للمؤمنِ في تشهُّدِه: طعنة الموتِ، ويُلبّي عند نباح الكلاب](١)!، فسُئل [عن ذلك](٢)، فقال: أمّا المؤذنُ فكان يَذْكُرُه على(٣) رأسِ الغفلة، وأمّا الكلبُ فقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الجُنيد: الغَيْرَةُ لا تكون إلّا في أوقاتٍ ثلاثةٍ: عِندَ الذِّكر بالغفلةِ، وعند المحبّةِ إذا بَرِئَ صاحِبُها مِنَ العلاقةِ، وعِند التعظيمِ.

قلتُ: أجرَى الحقُّ سبحانه عادتَه في خَواصِّ أوليائِه على تأديبِهم عنِ(٤) السُّكونِ إلى غيرِه، والارتياحِ إلى الأُنْسِ بما تتعلّق به حُظوظُ الأنفُسِ مِنَ العِزِّ والجَاهِ | والمالِ والأهلِ والوَلَدِ وطيبِ العَيشِ ولذّةِ الاتّصالِ، كآدمَ عليه السلام: لمّا ١٢٢و أعجبَتْهُ الجنّةُ، وتوطّنتْ نفسُه فيها(٥) على الخُلودِ أُزْعِجَ منها بالخُروجِ، وإبراهيمَ عليه السلام: لمّا أعجبَه ولَدُه إسماعيلُ أُمِرَ بِذَبحِه، ويعقوبَ عليه السلام: لمّا أحَبَّ يُوسُفَ ابْتُلِيَ بفِراقِه، وغيرِ ذلك ممّا لو تتبّعناه طالَ. وبه تمّ الكلامُ في الغَيرةِ(٦).

السادس
المُشاهَدة

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فقولُه: «شهيدٌ» إمّا بمعنى «شاهِد»، أي: مُعاينٌ حاضِرٌ بأنفاسِه معَ اللهِ عزّ وجلّ في عَدَدِ الساعاتِ، أو بمعنى «مَشهود»، فلا

(١) زيادة من الرسالة.
(٢) زيادة من الرسالة.
(٣) في الأصل، ع، س: عن. والمثبت من الرسالة.
(٤) س: عند.
(٥) س: منها.
(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ٥١٥.

يَغفُلُ ولا يَطرِفُ عَنِ المُلاحظةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فالمشاهدةُ مِيراثُ المُراقَبةِ، والمُراقَبةُ ثمرةُ المُحاسَبةِ، ورُتبةُ المُشاهَدةِ فوق رُتبةِ المُكاشَفة؛ لأنّ المُكاشفةَ لِلنَّعْتِ معَ بقاءِ شيءٍ مِنَ الرسمِ، والمشاهدةَ للعينِ مع ذَهابِ الأَيْنِ.

رَوَيْنا عن زيدِ بنِ أرقم قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: | «كُنْ كأنّك تَرَى اللهَ ١٢٢ظ
ﷻ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنّه يَراكَ، وكأنّك مَيتٌ، واتّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنّها مُستجابَةٌ»[1].

رَوَيْنا عن زيدٍ السُّلَمِيّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لِحارثةَ الأنصاريِّ: «كيف أصبحتَ يا حارثةُ؟» قال: أصبحتُ مُؤمِنًا حقًّا. فقال النبيُّ عليه السلام: «لِكلِّ إيمانٍ[2] حقيقةٌ، فما حقيقةُ إيمانِكَ؟». وربما قال: «لكلِّ قولٍ حقيقةٌ، فما حقيقةُ إيمانِك؟»، قال: عَزَفَتْ نَفْسِي عنِ الدُّنيا، فأَسْهَرْتُ لَيلِي، وأَظْمَأتُ نهاري، فكأنّني أنظُرُ إلى عَرشِ ربّي، وكأنّي أنظرُ إلى أهلِ الجنّةِ يُخيّرونَ فيها، وإلى أهلِ النارِ يَعْوُون فيها، فقال النبيُّ ﷺ: «مؤمِنٌ» – وربما قال: «عبدٌ» – «نَوّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبِه، عَرَفْتَ فالْزَمْ». قال: أُدْعُ اللهَ لي يا رسولَ اللهِ بالشهادةِ. فدَعَا له، فاستُشهِدَ في أوّلِ سَريّةٍ خرجتْ[3].

قال الجُنيدُ: المُشاهَدةُ ثلاثةٌ: مشاهدةُ الربِّ، ومشاهدةٌ مِنَ الربّ، ومشاهدةٌ للربّ.

فالمشاهدةُ على ثلاثِ طبقاتٍ:

| مشاهدةٌ بالحقِّ، وهو[4] نظرُ الموجوداتِ بوجوه الِاستدلالاتِ على وحدانيّة ١٢٣و
الذات.

(١) انظر: كنز العمّال، ٥٢٥٥.

(٢) في الأصل: إنسان [تصحيف] والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: الأربعون في التصوّف، ١٠؛ وجوامع آداب الصوفية، ٣٥.

(٤) س، إتحاف: وهي.

ومشاهدةٌ للحقِّ، وهي نظرُ الحقِّ في قيامِ المصنوعاتِ، وتمامِ المُبدَعاتِ[١]، وصيانتها عن الآفاتِ.

ومشاهدةُ الحقّ، وهي (*نظرُ الحقِّ*٢) قبلَ الأشياءِ، ورُؤيتُه سابقًا على الأشياءِ[٣]، وهي رؤيةٌ خاليةٌ عنِ الكَيفِ[٤]، عاريةٌ عنِ الوصفِ، عاليةٌ عن الكشفِ[٥].

قال سهلُ بنُ عبدِ الله: لا يُكمِلُ العبدَ شيءٌ حتّى يَصِلَ عملَه بالخَشيةِ وفِعلَه بالوَرَعِ، ووَرَعَهُ بالإخلاصِ، وإخلاصَه بالمُشاهَدةِ، والمُشاهدةُ: التَّبَرِّي ممّا[٦] سِواه.

وقال الجُنيدُ: المُشاهَدةُ إقامةُ الرُّبُوبيّةِ بإزالةِ[٧] العُبوديّة معَ فِقدانِ الكُلِّ دُوْنَه[٨].

وقال مُحمّدُ بنُ خفيفٍ: المُشاهَدةُ اطّلاعُ القلوبِ بصفاءِ اليقينِ على ما أخبرَ اللهُ عنه مِنَ الغيوبِ.

وقيل لِحاتمٍ: على ما أَصَّلْتَ أمرَكَ هذا؟ قال: على خِصالٍ أربَع: عَلِمتُ أنّ لي رِزقًا لا يأكلُه غَيري فاطمأنّتْ نفسِي، وعَلِمتُ أنّ لي عملاً[٩] لاً يعمَلُه غيري،
١٢٣ظ فأنا به مشغولٌ، وعلمتُ أنّ لي أَجَلًا لا أدري | متى هو، فأنا مُبادِرُه، وعلمتُ أنْ لا أَغِيبَ عَنْ عَينِ الله، فأنا مُسْتَحْيٍ منه[١٠].

---

(١) التأييد: المبتدعات.

(*-*٢) إتحاف: نظره.

(٣) س: الإنشاء.

(٤) في الأصل: الكشف. والمثبت من التأييد والإتحاف.

(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٨؛ وإتحاف السادة المتقين، ١: ٢٥٠.

(٦) ع، س: إتحاف: عما.

(٧) التأييد: بإزاء.

(٨) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٨؛ وإتحاف السادة المتقين، ١: ٢٥٠.

(٩) في الأصل «عمل» بالرفع. والمثبت من: ع، س.

(١٠) انظر: حلية الأولياء، ٨: ٧٣.

السابع
القَبْضُ والبَسْط

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، القبضُ والبسطُ (*حَالَانِ يعترضانِ بعد قَطعِ حالَي الخَوفِ والرجاءِ*[1])، وهما مِن أحوالِ العارفينَ.

والفرقُ بين القبضِ والبسطِ، والرجاءِ والخوفِ: أنّ الخوفَ والرجاءَ يتعلّقانِ بمُتوقَّعٍ وجودُه في زمنٍ مُستقبَلٍ، مِن وقوعِ مَحذورٍ أو فَرَقِ مأمولٍ، وأمّا القبضُ والبسطُ فلِمعنًى قد حَصَلَ، ووارِدٍ قد نَزَلَ، فالمتجلّي[2] لهما ناظرٌ مِن أمرِه في عاجلٍ، والخوفِ والرجاءِ مُتطلِّعٌ في حالِه إلى آجِلٍ[3].

والأحوالُ في القَبضِ والبَسْطِ متفاوتةٌ على قَدْرِ التمكُّنِ والتلوُّن وضَعفِ الوارد وقُوّتِه، فمقبوضٌ لا اتّساعَ فيه لِمَزيدٍ، كما رُوِيَ عن بعضِهم أنّه قال: أنا ردمٌ[4]، لا سَعَةَ فِيَّ لِحَمْلِ شيءٍ، ومقبوضٌ فيه لِلسَّعَةِ مَجالٌ، وفيه لِلحملِ مَقالٌ.

كان جعفرُ بنُ محمّدٍ الخُلْديّ يقول: سمعتُ الجُنَيْدَ يقول: الخوفُ [مِن الله][5] يَقبِضُني، والرجاءُ [منه][6] يَبسُطُني | ، والحقيقةُ تَجْمَعُني، والحقُّ يُفرِّقُني، ١٢٤و
إذا قَبَضَنِي بالخوف أفنانِي عنّي، وإذا بَسَطَني بالرجاءِ رَدَّني علَيَّ، وإذا جَمَعَني بالحقيقةِ أحضَرَني، وإذا فرَّقَني بالحقِّ أشْهَدَني غيري، فغَطّاني عنه، فهو مع[7] ذلك

(*–*1) الرسالة: حالتان، بعد ترقّي العبد عن حالة الخوف والرجاء.
(2) س: بهما.
(3) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية، ٥٨.
(4) الرّدم: الميّت في قبره.
(5) زيادة من الرسالة.
(6) زيادة من الرسالة.
(7) الرسالة: في.

كُلِّه مُحرِّكِي غيرُ مُسَكِّنِي[١]، ومُوْحِشِي غيرُ مُؤنِسِي، (*فحضوري لذوق*[٢] طَعمِ وُجودي، فلَيْتَهُ أفناني عنِّي فمَنَعَنِي، أو غَيَّبَنِي [عنّي][٣] فَرَوَّحَنِي[٤].

قلتُ: البَسْطُ تَجَلِّي صِفةِ الرّحمن[٥]، الرحيمةِ التي هي صفةُ[٦] الجَمالِ، فيجعلُ[٧] ذلك على الِاسترسالِ في صفاءِ الأحوالِ وشُهودِ الِاتّصالِ[٨] بالنَّوَالِ.

ويقعُ الِانبساطُ بالأقوالِ والأفعالِ، وذلك خَطرٌ على تنقُّلاتِ الأحوالِ، فَلْيَحْذَرْ مَن عاناه المكرَ والِاستدراجَ في المآل، ولْيَلْزَمِ الأدبَ خائفًا من سَطْوةِ الجَلال.

ولهذا قِيل: قِفْ على البِساط، وإيّاكَ والِانبساطَ[٩]. وقال بعضُ المُحقّقينَ: فُتِحَ علَيَّ بابٌ مِنَ البَسْطِ، فزَلَلْتُ زَلّةً، فحُجِبتُ عن مَقامِي[١٠].

وأمّا القَبْضُ فإنّه مُنَغِّصٌ للعيشِ، مُكَدِّرٌ للشربِ، مُضِرٌّ لِلفِكرِ. ووراءَهُما ما ١٢٤ظ | هو أتمُّ منهما.

فمِن هذا الوجهِ استعاذ منه[١١] أكثرُ المُحقّقين، واعتقدوا أنّ ذلك مِنَ القُصور في التمكين. واللهُ المُوَفِّقُ والمُعِين.

(١) الرسالة: ممسكي.

(*-*٢) الرسالة: فأنا بحضوري أذوق.

(٣) زيادة من الرسالة.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٨.

(٥) لا توجد في: س.

(٦) س: صفات.

(٧) س: فيحمل.

(٨) س: الإفضال.

(٩) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٨. وعلى هامش الأصل إشارة إلى أنّ العبارة في مخطوط آخر هي: واصبر على ضربِ السِّياطِ، وإيّاكَ حتى تجوزَ على الصِّراطِ.

(١٠) انظر: الرسالة القشيرية، ١٩٨.

(١١) في الأصل، ع، س: منها.

قال فارسٌ: أولًا القَبْضُ، ثمّ البَسطُ، ثمّ لا قَبضٌ ولا بَسطٌ، وهو مَحلُّ التمكين[١]. وقال الواسِطيّ: يَقبِضُك عمّا لك، ويَبْسُطُكَ فيما له. وبه تمّ القولُ في القبضِ والبسطِ.

الثامن

الفناء والبقاء

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]. البقاءُ والفناءُ صِفتانِ مُعْتَورِتان[٢] في نفسِ العبدِ، إحداهُما تَخلُفُ الأخرى، وهما في لسانِ الإشارةِ: فَناءُ الوصفِ المذموم، وبقاءُ الوصفِ المحمود[٣]، إذِ المَحَلُّ[٤] لا يقُومُ به إلّا وصفٌ واحد. فمَن بقي بالوصفِ المحمودِ استَتَرَ عنه المذمومُ، ومَن فَنِيَ عنِ الوصفِ المذمومِ تجلّى عليه الوصفُ المحمودُ.

فلِلمُكلَّفِ أفعالٌ وأخلاقٌ وأحوالٌ؛ فالأفعالُ تصرُّفه بالاختيارِ، والأخلاقُ جِبلّةٌ، وقد تنتقلُ بالرياضةِ عند الاعتبارِ، والأحوالُ ما يَرِدُ على العبدِ على وجهِ الاختبارِ[٥]. | فهي متردِّدةٌ بين الأخلاقِ والأفعالِ، فإنْ جَدَّ في الخِدمةِ وعَمِلَ ١٢٥و على الصفاءِ والوفاءِ وتزكية النفسِ كانت أحوالُه سَنِيّةً رَضِيّةً، فهي كالأخلاقِ الجِبلّيّةِ[٦] في تبدُّلِها وتغيُّرِها باستعمال ما يُؤدِّي إلى ذلك مِنَ الخَلْوة والرياضة والأدب.

(١) انظر: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ١:٩٧.
(٢) في الأصل: معتوتان. والمثبت من: ع، س، التأييد.
(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.
(٤) ع: العمل.
(٥) ع: الاختيار.
(٦) في الأصل، ع: الجلية، والمثبت من: س.

وكذلك إنْ راعَى أفعالَه وحمَلها[١] على الاستقامةِ والصِّدقِ في المَقاصِد ارتفعتْ بها أعمالُه إلى دَرجةِ القَبولِ، وتمكّنتْ أحوالُه سالمةً عنِ الخَلَلِ في الأصولِ.

مِثالُه: مَن قام في مقامٍ محمودٍ كالزُّهدِ، فَنِي عنْ ضِدِّه الرّغبةِ، ومَن فَنِيَ عنِ الرغبةِ بَقِيَ بصدقِ الإنابةِ، ومَن نظرَ في إصلاحِ خُلقِه، فأزال عن نفسِه الحَسَدَ والكِبْرَ وغيرَ ذلك مِنَ الخُلُق المذمومِ وما تتعاطاه الأنفُس من الرُّعوناتِ، يُقال فَنِيَ عن سُوءِ الخُلُق، فإذا فَنِيَ عنه[٢] بقي بالفُتوّةِ والصِّدق[٣]، وهذا مثالٌ[٤] يَعملُ عليه مَن سَلَك هذا المَذهبَ.

فإذا تمّ فَناؤُه عنِ الأخلاقِ والأفعالِ والأحوالِ، ترقّى منه إلى فنائِه عن نفسِه وعن الخَلْقِ باستيلاءِ (*شُهودِ الحَقِّ*٥).

١٢٥ظ ففي | هذه الحال[٦] الخَلْقُ ونفسُه موجودانِ، وإنما حصَلَ له مِنَ الذُّهولِ ما غَيَّبَهُ عنِ الإحساسِ بوجودِهم[٧]، وفيما قبل ذلك، فقد عدم منه[٨] ما فَنِيَ عنه، فلا وجودَ له بحالٍ.

قلتُ: الفناءُ استغراقٌ في شُهودٍ مانعٍ عن مُلاحَظةِ الحُظوظِ المتعلّقة بموجودٍ محدودٍ، فيسقُط عنه التمييزُ[٩] بين الأشكالِ اشتغالاً بمن[١٠] فَنِيَ به، يعني عن

(١) في الأصل، ع: وكملها، والمثبت من: س.
(٢) الرسالة: عن سوء الخُلُق.
(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٢١٢.
(٤) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.
(*-*٥) التأييد: شهوده.
(٦) التأييد: الحالة.
(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.
(٨) لا توجد في الأصل، والمثبت من: س.
(٩) التأييد: التميُّز.
(١٠) التأييد: بما.

رُؤيةِ الِاشتباهِ والِامتثالِ[١]، كما رُوِيَ عن عامرِ بنِ عبدِ الله: «ما أُبالي، أَمْرَأَةً[٢] رأيتُ أمْ حائطًا».

والمتولِّي له في حركاتِه وسكناتِه الحقُّ سبحانه وتعالى، فيقوم بوظائفِه ويَحفظُه في تصرُّفاته، ويَحمِيه عن مُخالفاتِه، وذلك مُستنبَطٌ مِن معنى قولِه في الحديثِ: «كنتُ له سَمْعًا وبَصَرًا»[٣].

وأمّا البقاءُ الذي يَخْلُفُه فهو الإقامةُ على ما لله عليه بعد الفناءِ عمّا له مِنَ الحُظوظِ، فتبقى الأشياءُ كلُّها عِندَه كشيءٍ واحدٍ، فهو أبدًا دائبٌ في المُوافقاتِ دُونَ المُخالَفاتِ، باقٍ بالمُوافقاتِ، فانٍ عنِ المُخالفاتِ[٤].

فالباقي بالحقِّ عبارةٌ عن عَبدٍ فَنِيَ عن نفسِه، فهو يفعلُ الأشياءَ | لا لِحَظٍّ، ١٢٦و بجَلْبِ منفعةٍ أو بِدَفْعِ[٥] مَضَرّةٍ، بمعنى أنّه لا يَقصِدُ ذلك، لا بمعنى أنّه لا يجدُ حظًّا، بل إذا عَمِلَ قُربَةً يَقصِدُ عملَها لموافقةِ الأمرِ، لا لِلذّةِ نفسِه في ذلكَ العملِ ولا لطلبِ ثوابٍ[٦] عنه[٧].

ويقال: البقاءُ مقامُ الأنبياءِ، أُلْبِسُوا السَّكِينةَ، فلا يَمنعُهم ما حَلَّ بهم عن فَرْضٍ ولا فضيلةٍ، ذلك فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ.

قلتُ: ولا يَظُنَّ جاهِلٌ بعلومِ هذه الطائفةِ أنّ معنى الفناءِ هو تركُ التمييز بين حقائقِ الأشياءِ وأحكامِها، فتصيرُ الموجوداتُ كلُّها كشيءٍ واحدٍ، وتبقى المُخالفاتُ له مُوافقاتٍ، فبقي التمييزُ[٨] عنده كالأمرِ؛ لفنائِه عنِ التمييزِ في الأحكامِ، فإنّ هذا مذهبٌ مَعلولٌ مَدخُولٌ، ذهَبَ إليه مَن قصَدَ تعطيلَ الشرائعِ

---

(١) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.

(٢) في الأصل، ع: بامرأة. والمثبت من: س، التأييد.

(٣) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.

(٤) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.

(٥) التأييد: يدفع.

(٦) في الأصل، ع: ثوابًا.

(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.

(٨) التأييد: النهي.

وإبطالَ التكاليفِ[١]، وهو مذهبُ الإباحيّة، وإنّما المعنى فيه ما قدّمناه مِن أنّه يَفنَى[٢] عن أوصافِه وملاحظاتِ أغراضِه، ويبقى[٣] بأوصافِ الحقِّ. فإنّه إنما يفعلُ الأشياءَ لغيره لا له؛ لوجود استغنائِه عنِ (*المَنافعِ والمَضارِّ*[٤])، فالفاني
١٢٦ظ محفوظٌ | بإثباتِه في حالة فنائِه بالموافقاتِ للأمرِ والنهي[٥].

وللفناءِ مَراتبُ أربعٌ:

أحدُها: فناءٌ عن رُؤيةِ المُخالَفاتِ والحركةِ بها نِيّةً وعمَلًا، وبقاءٌ بالمُوافَقاتِ والحركةِ بها نِيّةً وعملًا.

وثانيها: فناءٌ عن تعظيمِ شيءٍ غيرِ اللهِ، وبقاءٌ بتعظيمِ اللهِ.

وثالثُها: فناءٌ عن تعظيمِ الدنيا وطلبِ الحُظوظِ فيها، كما رُويَ عن أبي حازم أنّه قال: ما الدنيا؟! أمّا ما مضَى كأحلامٍ[٦]، وما بَقِيَ فأمانِيٌّ وغُرورٌ، وما الشيطانُ حتّى يُهابَ؟! ولقد أُطِيعَ فما نَفَعَ، وعُصِيَ فما ضَرَّ، (*وبقي بتعظيم الآخِرة ونعيمها*[٧]).

ورابعُها: فناءٌ بالغَيبةِ عنِ الأشياءِ كلّها[٨]، كفناءِ مُوسَى عليه السلام: عِندَ التجلّي لِلجبلِ صُعِقَ، فلم يُطِقْ، ولم يُخبر عمّا فيه مِنَ الوصفِ بحقٍّ[٩].

---

(١) التأييد: التكليف.
(٢) التأييد: فنى.
(٣) التأييد: وبقى.
(*-*٤) التأييد: النافع والضارّ.
(٥) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.
(٦) ع، س: فأحلام.
(*-*٧) لا يوجد في: ع.
(٨) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٩) في الأصل، ع: محق. والمثبت من: س.

قال إبراهيمُ بنُ شَيْبانَ: الفناءُ والبقاءُ يدُور على إخلاصِ الوحدانيّةِ وصِحّةِ العبوديّة، وما كان غيرَ هذا فهو المَغالِيطُ والزَّنْدَقةُ. ونُقل معناهُ عن أبي يعقوبَ النهرجوريّ.

قال أبو سعيدٍ الخرّازُ: علامةُ الفاني في ذَهابِ حظِّه مِنَ الدنيا والآخرة إلّا مِنَ اللهِ تعالى، ثمّ يبدو له بادٍ مِن حقٍّ[1] الله | ، فيُريهِ ذَهابَ حظِّه [مِن الله ١٢٧و تعالى إجلالًا لله، ثم يبدُو له بادٍ مِنَ الله تعالى، فيُريه ذَهابَ حظِّه][2] مِن رؤية ذَهابِ حظِّه، وتبقى رؤيةُ ما كان مِنَ اللهِ لله، وتنفردُ (*الوحدانيّة بالصّمد*[3]) في أبديّته[4]، فلا يكون لغيرِ الله معَ الله فناءٌ ولا بقاءٌ[5].

قلتُ: ذَهابُ الحظِّ في الدنيا تَرْكُ الأغراضِ، وفي الآخرةِ طلَبُ[6] الأَعْوَاضِ، وحظُّه مِن رُؤيةِ حظِّه مِنَ اللهِ أنْ يتلاشَى لها عِند نفسِه، فلا يَرَى لها في جانبِ عظمةِ الله قَدْرًا؛ لِحَقَارتِها، فيشتغلُ باللهِ عن رُؤيةِ ذلك، فيبقى ما كان باللهِ للهِ، وبفناءِ ما سِوى الله، فيكونُ كما كان في عِلم اللهِ قبل إيجادِه[7].

فإذًا: الفناءُ على وُجوهٍ:

فناءُ العِلْم: وهو فناءُ المعرفةِ في المعروفِ، وبه بقاءُ المعلومِ بعد إسقاطِ العِلْم، عَيْنًا لا علمًا.

وفناءٌ بالحدّ: وهو فناءُ العيان في المُعايَن، وبه بقاءُ المشهودِ بعد إسقاط الشهودِ وجودًا لا نعتًا.

---

(١) التعرُّف: قدرة.

(٢) زيادة من التعرّف.

(*-*٣) س، التعرُّف: الواحد الصمد.

(٤) التعرّف: أحديته.

(٥) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١: ١٢٥.

(٦) التأييد: ترك طلب.

(٧) انظر: تأييد الحقيقة، ٩٩.

وفناءُ المَحوِ: وهو الفناءُ عن شُهودِ الفناءِ، وبه بقاءُ ما كان أزلًا على مَن لم يَزَلْ أبدًا.

الأول: (*فناءُ صفاتِه ببقاءِ صفاتِ الله*[١])، والثاني: فناؤه عن صفاتِ الحقِّ ببقاءِ[٢] الحقِّ، والثالث: (*فناؤه عن فَنائِه ببقائِه في اضمحلالِه*[٣]) في وجودِ الحقِّ لجلالِه.

التاسع
التوحيد

١٢٧ظ قال اللهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، فمعنى قوله: «شهد» أي: حَكَمَ وقَضَى وأَلْزَمَ وأَمْضَى وأَعْلَمَ وبَيَّنَ ورَسَمَ وعَيَّنَ، إذِ الشهادةُ تستندُ إلى العِلمِ المُتيقَّنِ الذي لا شَكَّ يَعترِيهِ. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأصلُ الشهادةِ: الإخبارُ عنِ المُشاهَدةِ، وهي المُعايَنةُ، ثم يُتجوَّزُ بها للحضورِ والعلمِ. قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي عَلِمَ دُخولَه.

فالحقُّ سبحانه مُشاهِدٌ للأشياءِ، عالِمٌ بها، حاضِرٌ معها، لا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذرّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ. وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

فالتوحيدُ: «تفعيل»، مِنَ الوَحدةِ، وهي الحُكمُ بأنّ الشيءَ واحدٌ والعِلْمُ بذلك، وأصلُ أحد: «وَحد»، قُلبتِ الواوُ المفتوحةُ [همزةً، والواوُ المفتوحةُ قد تُقلب همزةً][٤] كما تُقلبُ المكسورةُ والمضمومةُ، ومنه: امرأةٌ (*أسماءُ، بمعنى

(*–*١) الرسالة: فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق.

(٢) الرسالة: بشهود.

(*–*٣) الرسالة: فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه.

(٤) الرسالة: بشهود.

وَسْمَاء*[١] مِنَ الوَسامة، [*وأوقيت في وقيت، وأشاح في وشاح*[٢]. يقال: [*وَجَدَ يَجِدُ فهو واجِدٌ، ووَجدٌ ووَجِيدٌ*[٣]، كما يقال: فَرَدَ فهو فاردٌ، وفرِدٌ وفريدٌ، هذا | مِن حيثُ اللغةُ. ١٢٨و

أمّا مِن حيثُ العِلْمُ ولسانُ الحقيقةِ: فالتوحيدُ يقعُ في الذاتِ والصفاتِ والأفعالِ، [*نفيُ الذاتِ: نفيُ التقسيم بالأجزاء، وفي الصفاتِ: نفيُ التشبيه بالأسماءِ، وفي الأفعال: نفيُ الشريكِ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ*[٤].

قال محمدُ بنُ موسى الواسطيُّ: جملةُ التوحيد أنّ كُلَّ ما يتّسعُ به اللسانُ، ويُشيرُ إليه البَنَانُ مِن تعظيمٍ أو تجريدٍ أو تفريدٍ، فهو معلولٌ، والحقيقةُ[٥] وراءَ ذلك[٦].

قلتُ: إنّ تلكَ مِن أوصافِكَ، وهي مُحْدَثةٌ معلولةٌ مِثلك، والحقيقةُ تقضي أنّ الحقَّ هو مَن كان وصفُه له لا يَزولُ. فالتفريدُ: نفيُ ما سِوى الله بإفرادِ النظرِ إليه. والتجريدُ: تركُ التطلُّع لِلأغيارِ بتجرُّدِ الفِكر عنهم. والتعظيمُ: هو قيامُ الهَيْبةِ في القلبِ.

وقال بعضُهم: تَفَرَّدْ بالله حتّى تكُونَ مُجرَّدًا مِنَ الأغيارِ، وتكونَ واحدًا لواحدٍ، وفردًا لمُفرَدٍ[٧]. قال ﷺ: «إنّ الله وِترٌ يُحِبُّ الوِتْر»[٨]. وقال الشِّبليّ: صِفةُ المُوحِّدِ حقيقةٌ، وحِليةُ المُوحِّدِ رَسْمٌ[٩].

(*-*١) في الأصل: اسمًا في رسمًا. والمثبت من الرسالة. وانظر: تاج العروس (أ. س. م).

(*-*٢) س: وأُقِتَتْ في وُقِتَتْ وشاجٌ في أشاجٍ.

(*-*٣) س: وحد يحد ووحيد.

(*-*٤) الرسالة: نفي التقسيم لذاته، ونفي التشبيه عن حقّه وصفاته، ونفي الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته.

(٥) لا توجد في: س.

(٦) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١٣٥.

(٧) ع، س: لفرد.

(٨) انظر: سنن الترمذي، ٤٥٣؛ وسنن ابن ماجه، ١١٧٠.

(٩) في الأصل، ع، س: رسمًا. وانظر: الرسالة القشيرية، ٥٨٤.

١٢٨ظ قال فارسٌ: لا يصحُّ التوحيدُ ما بَقِيتْ عليه[١] عَلَقَةٌ مِنَ | التجريدِ. والمُوحِّدُ بالقولِ لا يَشهدُ السِرَّ منفردًا به، والموحِّدُ بالحالِ غائبٌ بحالِه عنِ الأقوالِ، ورؤيةُ الحقِّ حالٌ لا يَشهَدُ إلّا كُلّ مُتَألِّه، ولا سبيلَ إلى توحيدِه بلا قالٍ ولا حالٍ[٢].

وسُئل الجُنيدُ عنِ التوحيدِ، فقال: معنًى تَضمحلُّ فيه الرُّسومُ، وتندرجُ فيه العُلومُ، ويكُونُ اللهُ تعالى كما لم يزَل[٣].

وقال الشِّبليُّ: لا يتحقّقُ العبدُ (*مِنَ التوحيدِ*٤) حتّى يَسْتَوحِشَ مِن سِرِّه وحِسِّه، لِظُهورِ الحَقِّ عليه[٥].

وقال أبو سعيدٍ الخرّازُ: التوحيدُ على سبعةِ مقاماتٍ:

المقامُ الأوّل: جمعُ كلِّ شيءٍ، وهو التفكُّرُ في كلِّ شيءٍ، والاِعتبارُ بكلِّ شيءٍ.

والمقامُ الثاني: تفرقةُ كلِّ شيء.

والثالثُ: الجمعُ في كلِّ شيء.

والرابعُ: فناءُ كلِّ شيء.

والخامسُ: إقامةُ كلِّ شيء.

والسادسُ: الخروجُ عن كلِّ شيء.

والسابعُ: بَدَا فيما به تَجَلّي، وتجلّى فيما به بَدا.

وقال بعضُهم: أركانُ التوحيدِ سبعةٌ: إفرادُ القديم[٦] عنِ الحدثِ[٧]، وتنزيهُ القديمِ عن إدراكِ المُحدَث له، وتركُ التساوي بين النُّعوتِ، وإزالةُ العِلّةِ عنِ

---

(١) التعرُّف: عليك.

(٢) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١٣٥.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية، ٥٨٣؛ واللمع في التصوّف، ٤٥.

(*-*٤) س، التعرُّف: بالتوحيد.

(٥) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١٣٥.

(٦) التعرُّف: القدم.

(٧) س: الحادث.

الرُّبُوبيّة، | وإجلالُ الحقِّ عن(١) أنْ تَجْرِيَ قُدرةُ الحَدثِ عليه [فتُلَوِّنه](٢) وتُنزِّهه(٣) ١٢٩و
عنِ التمييزِ والتأمُّلِ، وتنزيهُه عنِ القياسِ(٤).

وقال الحُصَريُّ: أصولُنا في التوحيدِ خمسةُ أشياءَ: رفعُ الحَدثِ، وإفرادُ القِدَم(٥)، وهجرُ الإخوانِ، ومفارقةُ الأوطانِ، ونِسيانُ ما عُلِم وجُهِلَ(٦).

وقال بعضُهم: التّوحيدُ(٧) مَن حالَ اللهُ بينَه وبين الدارَين جميعًا؛ لأنّ الحقَّ يَحمِي حَرِيمَه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [فُصّلت: ٣١](٨).

وقال الجُنيدُ(٩): أشرفُ كلمةٍ في التوحيدِ ما قالَه أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سُبحانَ مَن لم يَجعلْ لِخَلْقِه سبيلاً إلى مَعرفتِه إلّا بالعجزِ عن معرفتِه»(١٠).

قلتُ: المعرفةُ على ضَرْبَيْنِ: كسبيّةٌ وضروريّةٌ.

فالكسبيّةُ: اشتركَ فيها الخاصُّ والعامُّ؛ لأنّها حادثةٌ عنِ الاستدلالِ، وهذه لم يَعتدَّ بها الصدّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالنسبةِ إلى الضروريّة.

وأمّا الضروريّة: فهو ما وجدَه أهلُ الذوقِ، ونازلَهُ أهلُ الشّوقِ(١١)، فتبقَى الكَسْبِيّةُ بالنسبةِ إلى الضروريّة كضَوْءِ السِّرَاج بالنسبةِ إلى أشعّةِ انبساط(١٢) الشّمسِ
في الوجودِ. وقد نَبَّهَ النبيُّ | ﷺ على ذلك بقولِه في سُجودِه: «أعوذُ برضاكَ مِن ١٢٩ظ

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س، التعرّف.
(٢) زيادة من التعرّف.
(٣) التعرّف: وتنزيهه.
(٤) انظر: التعرُّف لمذهب التصوّف، ١٣٤.
(٥) س: القديم.
(٦) انظر: الرسالة القشيرية، ١٣٥.
(٧) س: الموحد.
(٨) انظر: التعرّف لمذهب التصوّف، ١٣٥.
(٩) لا توجد في: س.
(١٠) انظر: الرسالة القشيرية، ٥٨٥؛ وتأييد الحقيقة، ١٠٠.
(١١) في الأصل: الشرف، والمثبت من: س.
(١٢) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

سَخَطِكَ، وبمُعافاتِك مِن عُقوبتِك، وبِكَ مِنكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك»[١].

فإذا اتّضحَ ما أشْكَلَ مِنَ التّوحيدِ على العارفِينَ، صَرَخَ[٢] بلبلُ أفراحِهم، يُطْرِب ما حَزِنَ مِن أرواحِهم على ما فاتَ في (*جنابِه مِنَ*٣) انفساحِهم، فتنعّمُوا بانشراحِهم في مَيادينِ فَلاحِهم، (*ولم يتعلّق لهم أملٌ إلّا بمن أنعم عليهم بصلاحِهم*٤)، فهُمْ باللهِ لله يَعملونَ، وفي خِدمتِه يَدأبونَ، وأنفُسَهم في التأدُّبِ بين يَدَيْهِ يُكِدُّونَ، ونعمةُ اللهِ التي عَمَّتْهُم لها يَعُدُّونَ، أُولئكَ حِزبُ اللهِ، ألَا إنّ حزبَ اللهِ هُمُ المُفلِحونَ.

فالموحِّدُ نفسُه قد غَرِقَتْ عنِ الفكرةِ فيما يُدْنِي إلى الحَسْرةِ، وعَرَفَتْ قَدْرَ شرَفِ الحَضْرةِ، فوَقَفَتْ بالأدبِ في تِلك الرُّتَبِ، (*وقعدتْ بين منازلِ*٥) الطّربِ والحرَبِ، وعَجَزَتْ عن مَنالِ الأرَبِ.

رَوَيْنا عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أصبحَ وهِمَّتُه غيرُ اللهِ فليس مِنَ اللهِ بشيءٍ، ومَن أصبحَ لا يهتمُّ بأمرِ المسلمينَ فليس منهم»[٦].

١٣٠و وقال بعضُهم: لا يَصِحُّ لأحدٍ توحيدُه | حتّى يُجرِّدَ توحيدَه عن أربعةِ أشياءَ: الشِّرْكِ والشَّكِّ والتشبيهِ والتعطيل.

ولو تَتبَّعْنا ما قيلَ في التوحيدِ لَخَرَجْنا عن فضلِ التقريبِ إلى التبعيدِ[٧]. وبه تمّ القولُ في التوحيد.

---

(١) انظر: المعجم الأوسط، ١٩٧؛ والمعجم الكبير، ٧٢٩٨؛ وسنن أبي داود، ٨٧٩؛ وسنن ابن ماجه، ١١٧٩.

(٢) في الأصل، ع: شرح. والمثبت من: س.

(*-*٣) في الأصل: خيانة، والمثبت من: ع، س.

(*-*٤) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(*-*٥) غير واضح في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٦) سنن ابن ماجه، ٢٥٧؛ وشعب الإيمان، ١٧٤٤.

(٧) في الأصل: البعيد.

العاشر
الجَمْعُ والتفرقة

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

فأثبتَ الشهادةَ لنفسِه بنفسِه، وتلكَ حقيقةُ الشهادةِ القائمةِ الدائمة التي لا تتبدّلُ ولا تتحوّل، وهي الشهادةُ الصادقةُ؛ لِما تضمّنتْ مِن مُشاهدتِه لذاتِه. والشهاداتُ كلُّها فرعٌ عنها، فمَن شَهِدَ له مِنَ المُكلَّفينَ إنما شَهِدَ بمقدارِ ما تَعرَّفَ به إليه مِن فضلِه عليه، على قَدْرِ ما أَهّلَهُ له.

ثمّ قال: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾. فشهادتُهُمُ اضطراريّةٌ بِعِصمتِهم عن عِصيانِه ومُشاهَدتِهم لِما في غَيْبِه مِن إحكامِه لمصنوعاتِه وإتقانِه.

ثمّ قال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، وهم صِنفانِ:

صِنفٌ عَلِمُوا ظاهرَ الشرعِ، وزَهِدُوا في الدنيا، فهُم أربابُ مُعامَلةٍ ومُواصلةٍ، فهُمُ الزاهدون.

وصِنفٌ عَلِمُوا فعَمِلُوا على طهارةِ أنفُسِهم وحَبْسِها عن مُراداتِها وسَجْنِها | عن(١) مُوافقاتِها، وهم أربابُ حقائقَ، وهُمُ العارفونَ: تَفَرَّدُوا، ثمّ تَجَرَّدُوا، ثمّ توحَّدُوا. انفردُوا بأنفُسِهم ناظرةً إليه، وتجرّدوا عنِ النظرِ لغيرِه اعتمادًا عليه، وتوحَّدُوا فيه أدبًا بين يديه، فتخلَّقُوا بمَعاني أسمائِه وصفاتِه، وتَحقّقوا بما أشرقَ في قلوبِهم مِن أنوارِ ذاتِه، فيجمعُهم إليه ويُفرّقُهم به، فهُمْ مَعَهُ بحسَبِ ما يُقامُ فيهم مِنه، سُلِبَتْ منهمُ الإراداتُ، ونُقِلَتْ عنهمُ العاداتُ، وخُلِعَتْ عليهِم خِلَعُ السعاداتِ، ونُشِرَتْ لهم ألْوِيَةُ الزِّياداتِ. ١٣٠ظ

فأصلُ الجَمْعِ: جَمْعُ الهِمَّةِ وتركُ تَبَدُّدِها في مقاصِدها وأعراضِها، وقد وَرَدَ في الحديثِ: «مَن جَعلَ الهَمَّ هَمًّا واحدًا – هَمَّ المعادِ(٢) – كَفَاهُ اللهُ سائرَ الهُمومِ،

(١) ع: في.
(٢) الشعب: آخرته.

ومَنْ تشعّبَتْ به الهُمومُ لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هَلَكَ»[١]، وهذا حالُ المُجاهِدينَ والمُرتاضِين.

١٣١و والتفرقة: هو أنْ يُفرِّقَ بينه وبينَ اهتمامِه بحظوظِ نفسِه ومَلَاذِّها | وشهواتِها، فلا يتحرّكُ لأجْلِ نفسِه، بل لشاهدٍ يَقُومُ له، فيتحرّكُ به.

وهذانِ الوصفانِ حالُ المُبتدئينَ مِنَ المُراعِينَ لتأديبِ أنفُسِهم، والمُحافظين على تزكيتِها. وأمّا الجَمْعُ والفَرْقُ في لسانِ التوحيد فغيرُ ذلك.

سُئِلَ بعضُهم عنِ الجَمْع: ما هو؟، فقال: جمعُ الأسرارِ بأنْ ليسَ منه بُدٌّ، ولا شِبهَ له ولا ضِدَّ. وقال أبو عليٍّ الدقّاقُ: الفَرقُ ما نُسِبَ إليك، والجَمعُ ما سُلِبَ عنك[٢].

قلتُ: شهادةُ اللهِ في الآية، وهي عينُ الجَمْع، إذ هو الشاهدُ والمَشهودُ له، وشهادةُ مَن شَهِدَ معه هو لسانُ التفرقةِ، إذِ الكلُّ مُحْدَثُون.

ورَمْيُه هو عينُ الجَمْع، إذْ هو الرامي والمُصيبُ، ورَمْيُ الرسولِ: هو التفرقَةُ؛ لاختلافِ الرامي والمَرميّ، ويُجيزُهما بالزمانِ والمكانِ، فلا غِنًى بالعبدِ عنِ الجَمْعِ والفَرْقِ في أفعالِه وتوحيدِه، فإنّ مَن لا تَفرقةَ فيه لا عُبوديّةَ له، ومَن لا جَمْعَ عِندَه فلا معرفةَ له.

وقد وقعَ الجَمْعُ بينهما[٣] في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
١٣١ظ [الفاتحة: ٥]، فالعبادةُ لِلفَرْقِ، والاستعانةُ للجَمع. فالفَرْقُ ما توجَّهَتْ | إليه البشريّةُ مِن إقامةِ وظائفِ العبوديّة. والجَمْعُ مَا فُوتِح به العبدُ مِنَ المعاني السَّريّة، والأسرارِ الغيبيّة السِّرّيّة[٤]، وهو مُلاحِظٌ النِّعَمَ[٥] عليه في تلكَ القضايا العَليّة. فإثباتُ قيامِ الحقِّ هو مِن وصفِ الجَمْعِ، وإثباتُ قيامِ الخَلْقِ هو مِن بابِ التفرقةِ.

---

(١) انظر: سنن ابن ماجه، ٢٧٥؛ وكنز العمّال، ٦١٧٨؛ وشعب الإيمان، ١٧٤٤.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، ٢٠٧.

(٣) س: منهما.

(٤) لا توجد في: س.

(٥) س: المنعم.

وجمعُ الجَمعِ (*أتمُّ وأعظمُ*[1])، وهو أنْ يأخذَ العبدُ عنِ الإحساسِ بما برزَ[2] له مِن عالَمِ الغيبِ، ويُختطَفَ مِن عالَمِ الشهادةِ، فلا يُميِّز ولا يُفرِّق؛ لِما حُكِمَ عليهِ مِن قهرِ سُلطانِ الحقيقةِ، فهذا جَمْعُ الجَمْعِ. ووراء ذلك مَرتبةٌ عزيزةٌ، وتُسمّى الفرقَ الثانيَ، وهو إعادتُه في أوقاتِ الفرائضِ لأدائها، كما حُكيَ أنّه قِيلَ لِلجُنيدِ: إنّ أبا الحُسينِ النُّوريَّ قائمٌ في مسجدِ الشُّونَيْزيِّ[3] منذُ أيامٍ، لا يأكلُ ولا يشربُ ولا ينامُ وهو يقول: اللهُ اللهُ، ويُصلِّي الصلواتِ لأوقاتها. فقال بعضُ مَن حضرَه: إنّه صاحٍ. فقال الجُنيد: لا، ولكنّ أربابَ المواجيد[4] مَحفُوظونَ بين يَدَيِ اللهِ تعالى في مَواجيدِهم.

وقال أبو عليٍّ | الرُّوذْباريّ: الجَمْعُ: سِرُّ التوحيدِ، (*والتّفرقةُ: لسانُ التّوحيدِ*[5]). ١٣٢و
وقال خير النسّاجُ: الجَمْعُ: ما اجْتَمَعَ عليه أهلُ العِلمِ، والتفرقَةُ: ما اختلفوا فيه.

وقد اختلفَ أهلُ الطريقِ فيما يَعرِضُ من هذه الأحوالِ لِلرجالِ، فمنهم مَن جعلَ الجميعَ حالًا واحدةً وإنِ اختلفتِ العبارةُ، وحصلت إليها الإشارة، فعِنده الجَمعُ تفرقةٌ، والفناءُ بقاءٌ، والسُّكرُ صَحْوٌ، والغَيبةُ شُهودٌ؛ لاشتمالِ معنى أحدِهما على الآخَر.

فإنّ مَنِ اجتمعَ فقد فارقَ؛ لأنّه لم يَشهَدْ نفسَه ولا الخَلْقَ، فبقي دائمًا مع الحَقِّ، ومَن فَنِيَ عمّا هو له بَقِيَ بما هو لِلحَقِّ، ومَن بَقِيَ بالحقِّ فَنِيَ عمّا له، ومَنِ اجتمعَ فإنّه لا يَشهَدُ غيرَ الحقِّ، فهو فانٍ عن سِواه، ومَن فَنِيَ فهو غائبٌ سَكرانُ؛ لِمفارقةِ المُلاحظةِ لحظِّه، واطِّراحِ التمييزِ عِندَه، وزوالِه عنه، وما يَعْني بذلك عدَمَهُ منه،

(*-*1) الرسالة: فوق هذا.

(2) س: يبرز.

(3) عامر بن أحمد بن محمد، أبو الحَسَن الشُّونيزيّ الشافعيّ المتوفّى سنة ٣٠١ هـ، سكن إصبهان، وَحَدَّثَ عَنْ أحمد بن عبد الجبّار، وعبد الله بن محمد بن النُّعمان، وإبراهيم بن فهد، وعنه: الطبراني، وأبو الشيخ. انظر: تاريخ الإسلام، ٧: ٣٥.

(4) في الأصل: المواجد، والمثبت من: ع، س.

(*-*5) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

بل يعني به استواءَ المكروهِ والمحبوبِ، والألمِ واللذّةِ، والوَصلِ والفَصلِ، والغَيْبَةِ والشُّهودِ ... وغيرِ ذلك مِن حيثُ اتّحادُ الأشياءِ عِندَه في مَصدرِها ومَوردِها
١٣٢ظ عن مُدبِّرِهَا ومُريدِها، فهو لا يَشهدُ اختلافًا ولا يَجْحَدُ ائتلافًا، والحقُّ | لا يصرفهُ إلّا في مُرافقاتِه[1]، فإذا اتّحدَتِ الأشياءُ عِنده لم يَبْقَ للتمييزِ وجهٌ، وهذا هو غايةُ ما ينتهي إليه القُوى البشريّةُ مِنَ القيامِ بوظائفِ العُبوديّة، وذلك مِنَ التشبيه بالصفاتِ المَلكيّة، إذ سُلِبَتْ مِنهُمُ الإراداتُ، وطُرِحَتْ عنهم كُلفةُ التطلُّعِ إلى العاداتِ، فسَلِمُوا مِن سَطوةِ المُنازَعاتِ وغَنِمُوا، وفَهِمُوا قُدْرَةَ الإلهيّة عند المطالعاتِ لأسرارِها وعَلِمُوا، فَهُمْ حِزبُ اللهِ الغالِبونَ العارفونَ، وعِبادُه القانِتُونَ الآمِنُونَ، لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكبرُ، وتتلقّاهُمُ الملائكةُ، هذا يومُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوْعَدُونَ.

ومنهم مَن قال: هي حالاتٌ مُتواردةٌ، ووَطَناتٌ مُتزايدةٌ، وهو اختيارُ الأكثرِ. وبه تمّ[2] القولُ في الجَمْعِ والفَرْقِ.

وقد نَجزَ بحمدِ الله ما قَصَدْنَاهُ مِنَ الكلامِ في المقاماتِ والأحوالِ بحسَبِ ما تَأتّى في ذلك مِنَ المَقالِ.

ولم نُطَوِّلْ ذلك بكثرةِ الحكاياتِ وذِكْرِ المقالاتِ، فإنّا لم نَضَعْ هذا إلّا بحسَبِ المَدخلِ إلى التعرُّضِ بلسانِ أهلِ التصريفِ.

١٣٣و ومِنَ اللهِ نسأل الإمدادَ بالتوفيقِ للتحقيقِ | والتشريف منه على طريقِ هذه الطائفةِ بالتّوقيف على التدقيقِ، فإنّها الطائفةُ التي فَهِمَتْ مَستُورَ الأسرارِ عن خالقِها، وعَلِمَتْ مدخولَ الأنوارِ في مَغاربِ الأقدارِ ومشارقِها[3]، فهي مِنَ اللهِ مُلْهَمَةٌ، وأسرارُها بالفناءِ عنِ الأغيارِ مُعْلَمَة.

وبذلك انتهى ما أردناه مِنَ النوعِ الثاني مِنَ الطرفِ الثاني. واللهُ أعلمُ.

---

(١) س: موافقاتها.

(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) لا توجد في: س.

القولُ في التَّتِمّة

المقصودُ بما نَحَوْنَاهُ في هذا الموضوع أنْ يَكتفِيَ به المُطالِعُ له عن كثيرٍ مِنَ الكتُبِ المُصنَّفةِ في عُلومِ هذه الطائفةِ، فَلْنَخُصَّ هذه التتِمّةَ بما يُعايِنُه السالكُ في خَلْوتِه مِن رياضتِه، وما يُدانِيهِ مِنَ الأعمالِ المُوَصِّلةِ لِاعتنائِه[1].

فنقولُ: أوّلُ مبادئِ سعادةِ المُريدِ التطلُّعُ لطلبِ المَزيدِ، والتنبُّهُ والاِنزجارُ عمّا كان يَرتكبُه مِنَ الأخطارِ، ثمّ اليقظةُ والاِعتبارُ، ثمّ الحَياءُ والاِعتذارُ، ثمّ التوبةُ والاِستغفارُ، ثمّ العُزلةُ عنِ الأغيارِ، ثمّ الخَلْوةُ لتصفيةِ الأكدارِ، ثمّ الإخلاصُ في المقاصدِ، وتركُ الإشراكِ في المَصادرِ مِن أمرِه والمَواردِ، | ثمّ الصدقُ[2] فيما ١٣٣ظ
يُعايِنُه مِن تركِ العوائدِ، ثمّ التقوى بارتكابِ المَصالحِ واجتنابِ المَفاسِدِ، ثمّ الوَرَعُ بالتحرِّي في اكتسابِ الفوائدِ، ثمّ الزُّهدُ في الدنيا؛ فإنها آفَةٌ قاعِدةٌ بالمَراصدِ. فالزُّهدُ غايةُ مُرتقَى العابِدينَ، وهو مقامُ العَوَامِّ مِنَ المُتوجِّهِينَ، والتوحيدُ نهايةُ مقامِ العارفِينَ، وبينهما مَراتبُ تتردّدُ فيها آثارُ العامِلِينَ، فمِن أعظمِ الإعانةِ العُزْلةُ والخَلْوة.

[العُزلة والمُعَاشَرَةُ، أيُّهما أفضلُ؟]

وقد اختلفَ أهلُ العِلمِ في الأفضلِ مِنهما:

فقال قومٌ: العُزْلةُ. وقال قومٌ[3]: المُعاشَرةُ. وفَرَّقَ آخَرُونَ بَيْنَ مَن فيه مَنفعةٌ متعدّيةٌ، كالعالِمِ[4]، وبين مَن لا منفعةَ فيه، كالعابدِ. فالعزلةُ أَوْلَى.

---

(١) س: لإغاثتِه.

(٢) ع: القصد.

(٣) ع، س: آخرون.

(٤) ع: كالعِلْمِ.

وأمّا العالِمُ فإنّه يُقاسُ[١] بعِلمِه، ولو كانتِ العُزلةُ على الإطلاقِ أَوْلَى لَبَطَلَتِ الحِكمةُ، ونقصت الهِمّةُ، ولَخَرِبَ ما في الوجودِ مِن عَمارةِ الهِدايةِ، ولَرَغِبَ عنِ الهُدى مَن كان مُقيمًا على العَمايةِ. فالقولُ بالفَرْقِ أَوْلَى، والمَيْلُ إلى الحقِّ
١٣٤و لِقَدْرِ العبدِ أعلى، فالعُزْلَةُ والخَلْوةُ منشأُ السعادةِ | ومبدأُ الزيادةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٨]، فأخبرَ اللهُ عن إبراهيمَ باعتزالِه لقومِه ليتأسّى به مَن تَبِعَهُ، فمَن آثَرَ الخَلْوةَ على العِشْرةِ، فيتعيّنُ عليه ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: خَلْوةٌ مِنَ الأذكارِ إلّا ذِكْرَ مَولاهُ في الجَهْرِ والإسرارِ.

وثانيها: تركُ جميعِ الإراداتِ.

وثالثُها: عَزْلُ نفسِه عن ولايةِ المُطالَباتِ، فإنْ عزَبَتْ[٢] عن هذهِ الصفاتِ كانت فتنةً في جميعِ الحالاتِ.

وفي العُزْلَةِ والخَلْوةِ مِنَ الفوائدِ وُجوهٌ عشَرةٌ:

أحدُها: سَترُ حالِه مِنَ الاِطِّلاعِ عليه مِن عدُوٍّ فيَشمَتُ به، أو صديقٍ فيَغتمُّ له.

وثانيها: كِتمانُ فاقَتِه وإخفاءُ حاجتِه.

وثالثُها: إعانتُه على تكثيرِ فائدتِه مِن تحصيلِه لِلعِلم ودراستِه، وفراغِ خاطرِه مِنَ الشواغِلِ المُتنوِّعةِ بتنوُّعِ إرادتِه.

ورابعُها: عدمُ الإعوانِ[٣] على الغِيْبةِ والبُهتانِ والمعصيةِ والطُّغيانِ.

وخامسُها: الأمنُ مِن تغييرِ المُنكَرِ؛ فإنّه لو شاهَدَه لَغَيَّرَهُ، ولو غَيّرَه لم يأمَنْ
١٣٤ظ مِنَ الغَوائلِ في | تغييره.

---

(١) س: يُعاش.

(٢) س: عريت.

(٣) س: عون.

وسادسُها: راحتُهُ مِنَ النظرِ إلى زينةِ الدنيا وفِتنةِ أهلِها بها، فإنّه لو عاشَرَهم لَاشتغلَ فِكرُه بهم، وشاركَهم فيما هُم فيه.

وسابعُها: المُفارَقةُ لِذُلِّ الأملِ والطمع[1]، والمُرافقةُ لعزِّ القناعةِ والورَعِ.

وثامنُها: البُعدُ عنِ اعتراضِ الناس على أقوالِه وأفعالِه فيما يصدُر عنه أو يَظهَرُ عن سَهوٍ وغفلةٍ.

وتاسِعُها: سلامتُه من خوفِ التعبِ بمُعاشَرةِ العَوَامِّ ومُخالَطتِهم، ومُراعاةِ أخلاقِهم، ومُعاناةِ أمراضِ عُقولِهم.

وعاشِرُها: الأمنُ مِنَ الذِّلّةِ والمَهنةِ لِلعامّةِ، والمَلالةِ للخاصّةِ والأصدقاء[2]، فإنّ كُلَّ مبذولٍ مملوكٌ، وكلَّ ممنوعٍ مأمولٌ.

فإذا عُلِمتْ هذه الفضيلةُ، وظهَرتْ هذه المنزلةُ الجليلةُ، فقد وردتْ أحاديثُ في فَضِيلتِها، منها ما رَوَيْنا عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ قال: سُئلَ رسولُ اللهِ ﷺ: أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قال: «رجلٌ جاهدَ في سبيلِ اللهِ»، قالوا: ثمّ مَن؟ «قال: مؤمنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعابِ يتّقي ربَّه ويَدَعُ الناسَ مِن شَرِّه»[3].

ورَوَيْنا عنِ | ابنِ عُمَرَ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ استعملَ رجُلًا على عَمَلٍ، فقال: ١٣٥و
يا رسولَ اللهِ، خِرْ لي. قال: «اِلْزَمْ بيتَكَ»، أو قال: «اِجلِسْ»[4].

ورَوَيْنا عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ الشّيءِ إلى اللهِ الغُرباءُ». قيل: يا رسولَ اللهِ، ومَنِ الغُرباءُ؟ قال: «الفَرَّارُونَ بِدِينِهم، يَبعثُهمُ اللهُ معَ عِيسى ابنِ مَريمَ يومَ القيامةِ»[5].

---

(١) في الأصل: والطبع، والمثبت من ع، س.

(٢) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٣) انظر: سنن أبي داود، ٢٤٨٧؛ وسنن الترمذي، ١٦٦٠؛ وسنن النَّسائي، ٣١٠٥؛ وصحيح ابن حبّان، ٦٠٦؛ وكنز العمّال، ١٠٥٣٢.

(٤) انظر: كنز العمّال، ٣٠٨٧٣.

(٥) انظر: الزهد الكبير، للبيهقي، ٢١٤؛ والغرباء، للآجُري، ٣٧؛ ومسند سعد بن أبي وقاص، ٨٠.

قال ابنُ عباسٍ: أفضلُ المَجالسِ مَجلِسٌ في قَعْرِ بيتِك، لا تَرَى ولا تُرى[١].

وقال الفُضيلُ بنُ عِياضٍ: مِن سخافةِ عقلِ الرجُلِ كثرةُ مَعارِفِه[٢].

وقال ابنُ سِيرينَ: العُزلةُ عِبادةٌ[٣]. وقال مَكحُولٌ: إنّ الفضلَ في الجماعةِ، والسلامةَ في العُزْلَةِ[٤].

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: أَقِلُّوا مَعرِفتَكُم مِنَ الناسِ، ولا تَعْرِفُوا إلّا مَن تَعرِفُون، وأَنْكِرُوا مَن تَعرفون.

وكَتَبَ عبدُ اللهِ بنُ داودَ إلى أخٍ له: أمَا آنَ لكَ أنْ تَستوحِشَ مِنَ الناسِ؟![٥].

وكان الربيعُ بنُ خُثَيْمٍ يقول: تَفَقَّهُوا ثمّ اعتزِلُوا ثمّ تَعَبَّدُوا.

ولو تَتَبَّعْنَا ما قِيلَ في العُزلةِ أَطَلْنَا؛ فَلْنَقتصِرْ على ما ذكَرْناه. فنقول:

١٣٥ظ العُزْلَةُ مُجانَبةُ الخَلقِ بالجَسَدِ، ومُباعدةُ | الناسِ مِن خوفِ النكَدِ.

والخَلْوةُ: مُقاطَعةُ العِبادِ بمُطالَعةِ المُرادِ.

فالعُزْلَةُ ابتداءٌ، والخَلْوةُ انتهاءٌ. هذا ما يتعلّقُ بحُكمِها على العُمومِ.

أمّا ما يتعلّقُ بدُخولِ الخَلْوة الخاصّة التي وَقَعَ الاِصطلاحُ بين الصُّوفيّة عليها، فإنهُمُ اقتصَروا مِن عَددِ الأيّام على أربعينَ، وسمَّوهَا بالأربعينيّةِ.

فالكلامُ يقعُ في مَبدإِ أصلِها، وفي ذِكْرِ فَضلِها، وفي أدب فِعلِها، وفي ثمرةِ قَصْدِها. فَلْنَجعلِ الكلامَ فيها في أربعةِ أقسامٍ:

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، ٤: ٢٥٢.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، ٤: ٢٥٢.

(٣) انظر: العزلة والانفراد، ١٤؛ والعزلة، للخطابي، ٢٦.

(٤) انظر: العزلة والانفراد، ٢٦.

(٥) انظر: العزلة والانفراد، ١٩٧.

القسم الأول
في مبدإ أصلِها

قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. رَوَى أهلُ السِّيَرِ أنّ موسى ﷵ وَعَدَ قومَه إذْ كانُوا بمِصرَ أنّ عدُوَّهم إذا هلَكَ ونَجَوا منه، فإنّه يأتِيهم بكتابٍ مِن عِندِ الله، فيه بيانُ[1] الحلالِ مِنَ الحرامِ والحُدودِ والأحكامِ، فلمّا حصلَ الهلاكُ لِعدُوِّهم سألَ موسى مِن ربِّه الكتابَ، | فأمرَه اللهُ بصومِ ثلاثينَ يومًا ١٣٦و – ذو القعدة – فلمّا انقضَتْ[2] أنكرَ خَلُوفَ فَمِهِ، فتَسَوَّكَ بِعُوْدٍ مِنْ خرنوبٍ، فقالت له الملائكةُ: كُنّا نَشُمُّ مِن فِيكَ رِيحَ[3] المِسكِ فأفسَدْتَهُ بالسِّواكِ!، فأمرَه اللهُ بصومِ[4] عشَرةِ أيامٍ مِن ذي الحِجّة، لِيعُودَ الخَلُوفُ، وقال له: أمَا عَلِمْتَ أنّ خَلُوفَ فَمِ الصائمِ عِند اللهِ أطيبُ مِن ريحِ المِسكِ؟، (*وكان صومُ موسى طيًّا[5] مِن غير تخلُّلِ أكلٍ لا صومًا وفِطرًا بالليلِ*[6]). وقِيل: إنّ الميقاتَ كان شهرَ ذِي الحِجّةِ وعشرَ المُحرَّم. الأوّلُ أكثرُ وأشهرُ.

وورد في الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ: «مَن أَخلَصَ لله العبادةَ أربعينَ صباحًا ظهرتْ ينابيعُ الحِكمةِ مِن قلبِه على لِسانِه»[7]، ورُوِيَ: «تفجّرتْ».

فلمّا وقع التحديدُ لميقاتِ موسى بالأربعينَ وبالإخلاصِ بالأربعين، جَعَلَ أهلُ الطريق ذلك بابًا لمدخلِ المُتوجِّهينَ، ولم يُعَيِّنُوا الأربعينَ لِمَقصِدٍ،

---

(١) ع، العوارف: تبيان.

(٢) العوارف: تمت.

(٣) العوارف: رائحةُ.

(٤) ع، العوارف: أن يصوم.

(٥) لا توجد في الأصل، س: طيبًا، والمثبت من: ع.

(*–*٦) العوارف: ولم يكن صوم موسى ﷵ ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل.

(٧) انظر: الزهد، لهناد، ٦٧٨؛ والزهد، لابن المبارك، ١٠١٤.

يُخَصّصُونها بهِ دُونَ باقي أزمانِهم. لكنّهم لمّا بُغِتُوا نفحاتِ المخالفاتِ في أعمِّ ١٣٦ظ | ما يتكرّر عليهم مِنَ الأوقاتِ، اختارُوا ضبطَ الوقتِ عن التبدُّدِ، وحَصْرَهُ بالتقَيُّدِ، وعَيَّنُوا منه الأربعينَ، تَرَجِّيًا منهم لانسحاب الحُكمِ في الأربعين على ما يُسْتَقْبَلُ مِن أزمانِهم، فيَبقوا في أوقاتِهم كُلِّها كما كانُوا في الأربعينَ، فإنّ الخيرَ لِلأنفُسِ عادةٌ.

والحِكمةُ في التقيُّدِ بالأربعينَ والتّحديدِ لها بالتّعيينِ فيه سِرٌّ خَفِيٌّ، حتّى لا يَطّلِع على حقيقتِه إلّا الأنبياءُ ومَن اختَصَّهُ اللهُ بالعنايةِ مِنَ الأولياءِ.

على أنّه قد روى[1] أهلُ السِّيَرِ أنَّ اللهَ سُبحانَه خَمَّرَ طِينةَ آدمَ بيدِه أربعينَ صباحًا، فلا يَبْعُدُ أنّ اللهَ سبحانه (*لمّا استخلَصَه*[2]) لِعَمَارةِ الدارَيْنِ – العاجِلةِ والآجِلة – كَوّنَه مِنَ التُّرابِ وجعَلَه تركيبًا مُتناسبًا، فعَمّرَ به عالَمَ الحِكمةِ والشهادة، وهي دارُ الدنيا. فلولا تركيبُه مِن أجزائِها الكثيفةِ لَمَا تَمَكَّنَ مِن عَمَارتِها؛ لأنّ وُجودَ المناسبةِ يقتضي حُكمَ المُصاحبةِ، فلمّا رَكَّبَهُ مِنَ الأجزاءِ الأرضيّة السُّفْليّةِ خَمَّرَهُ تلكَ المُدّةَ ١٣٧و لِيُبْعِدَه عن عالَم الغيبِ بأربعينَ حِجابًا | كلُّ يومٍ بقيامِ حِجابٍ، في كلِّ حجابٍ إبداءُ معنًى يُياهَلُ[3] به لِصلاحِه[4] عَمارةَ هذه الدارِ، ويتعوّقُ به عن النُّهوضِ إلى مَواطنِ القُربِ مِنَ الربِّ، (*فأُبعدَ بتلكَ الحُجُبِ عمّا كان فيه مِنَ القُرَبِ*[5])، حتى يقُومَ بوظيفةِ الخِلافةِ في الأرضِ وعمارةِ عالَم الحِكمة، فإذا لاحَ لبصيرتِه نورُ الهُدى، وخُلِعَ على قلبِه خِلَعُ الرِّضَى تَذَكَّرَ تلك المعاهدَ الأُولى، فحَنَّ إليها، فأقبلَ بقلبِه، وتَبَتَّلَ إلى ربِّه، وأعرضَ عنِ التوجُّهِ لتدبيرِ مَعايشِه، فدَخَلَ إلى الخَلْوة لِقَطْعِ تلك الحُجُبِ المتّصلةِ به، فما ينقضي عنه يومٌ إلّا وقدِ ارتفعَ عنه حجابٌ، وتجدّدَ مِنَ الجنّات العُلَى منزلة الاقترابِ. فبتمامِ الأربعينَ يُرفَعُ[6] الحِجابُ، ويتمكّنُ القُربُ مِنَ الجَنابِ، وتتفجّرُ ينابيعُ الحكمةِ على ما عَلَا منه مِنَ الهمّةِ.

---

(١) في الأصل: رأوا. والمثبت من: ع، س.

(*–*٢) س: لما استصلحه، العوارف: لما كان مستصلحًا.

(٣) ع: تأهّل، س: يتأهّل.

(٤) ع: لصاحبه، س: لصلاحية.

(*–*٥) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٦) ع: تُرفع عنه.

وعلامةُ صِحّةِ خَلوةِ الأربعينيّة جَودةُ[١] حالِه بعد خُروجِه منها، وتَنَقُّلُ ما كان فيه مِن ذَمِيمِ صِفاتِه، وتبدُّلُ ما كان عنِ الصوابِ حائلًا مِن حالاتِه، بإقبالِه بعد رغبةٍ على زَهَادتِه، وتَجافِيهِ عن دارِ الغُرورِ، وإنابتِه إلى دارِ الخُلودِ، فإنّ الزهادةَ لازِمَةٌ لإشراقِ ظهُورِ نُورِ | ١٣٧ظ الحِلْيةِ[٢]، فمَنْ لم يَزْهَدْ لم يَظفَرْ بالحِكمةِ، ومَن خَرَجَ مِنَ الأربعينَ ولم يَظفَرْ بالحِكمةِ بعدَها دَلَّ على أنّ دُخولَه كان مَعلُولًا، وأنّ شَرْطَ صِحّتِها كان مَدخُولًا، وأنّه لم يُخْلِصْ في توجُّهِه وعِبادتِه، فلم يكن عملُه مقبولًا. فإنّ الإخلاصَ أساسُ قَبُولِ الأعمالِ المُتَقَرَّبِ بها إلى الله تعالى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥].

رَوَيْنا عن عبدِ الحميدِ بنِ ثابتِ بنِ ثَوْبانَ: حدّثني أبي عن جَدّي عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «طُوبَى لِلمُخلِصينَ، أُولئكَ أصحابُ الهُدَى، تَنْجَلِي عنهُم كُلُّ فتنةٍ ظَلْمَاءَ»[٣].

ورَوَيْنا في حديثٍ مُسَلْسَلٍ عن حُذيفةَ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عنِ الإخلاصِ: ما هو؟ قال: «سألتُ جِبريلَ عليه السلام عنِ الإخلاصِ: ما هو، قال: [سألتُ ربَّ العِزّةِ عنِ الإخلاصِ ما هو؟ قال][٤]: سِرٌّ مِن سِرّي، أُوْدِعُه[٥] قلبَ مَن أحببْتُ مِن عِبادي»[٦]. فمَن لا إخلاصَ له في عملِه فإنّه لا وُصولَ له في خَلْوتِه إلى شيءٍ مِن أملِه[٧].

---

(١) في الأصل، ع: لجودة، والمثبت من: س.

(٢) ع، س: الحكمة.

(٣) انظر: شعب الإيمان، ٦٨٦١.

(٤) زيادة من نصّ الحديث.

(٥) ع: أودعته.

(٦) انظر: العجالة في الأحاديث المسلسلة، ١: ٨٩؛ وأخرجه القشيري في «الرسالة» عن أبي عبد الرحمن السُّلمي لسنده إلى الحسن عن حذيفة – والحسن لم يسمع عن حذيفة – وهو مسلسل بالسؤال. انظر: الرسالة القشيرية، ١: ٩٥.

(٧) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٣٠.

١٣٨و وفي الصّحيحِ مِن حديثِ عُروةَ عن عائشةَ قالتْ: «أوّلُ ما | بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤيا الصالحةُ في النومِ، فكان لا يَرَى رُؤيا إلّا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثمّ حُبِّبَ إليه الخَلَاءُ، فكان (*يخلُو بغارِ*١) حِراءٍ، فيتحنّثُ فيه اللياليَ ذاتَ(٢) العَدَدِ، ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثمّ يَرجِعُ إلى خَدِيجةَ يَتَزَوَّدُ لِمِثلِها، حتّى فاجَأَهُ الحقُّ في غارِ حِراءٍ ...» الحديث بِطُولِه(٣).

قلتُ: فالخَلْوةُ مَبادئُ الكرامةِ بوصولِ رُتبةِ الإمامةِ لِمَن أُهِّلَ لِدرجتِها(٤)، وأُقيمَ في رُتْبتِها، أو لِحُصولِ السلامةِ في دارِ المُقامةِ، لِمَن كانت له مِنَ اللهِ عِنايةٌ، وله منه وإليه في نفسِه إعانةٌ ورعايةٌ.

فهذا هو الأصلُ في الخَلْوة وتحديدِها بالأربعينَ؛ لِما في ذلك الأمرِ(٥) مِنَ الرِّبحِ المُبِينِ(٦) لِلمُتوجِّهينَ.

وقد رُوِيَ لنا أنّ داوُدَ عليه السلام لّما ابْتُلِيَ بالخَطيئةِ خَرَّ لله ساجدًا أربعينَ يومًا وليلةً، حتّى أتاهُ الغُفرانُ مِن ربِّه(٧).

ورُوِيَ عن سفيانَ الثوريِّ أنّه قال: كان يُقالُ: ما أخلَصَ (*عبدٌ للهِ*٨) أربعينَ صباحًا إلّا أنبتَ اللهُ الحِكمةَ في قلبِه، وزَهَّدَهُ اللهُ في الدنيا، ورَغَّبَهُ في الآخِرةِ، و(*بَصّرَهُ داءَ*٩) النفسِ، وبَصَّرَه بداءِ | الدنيا ودَوائِها(١٠).
١٣٨ظ

(*–*١) العوارف: يأتي.

(٢) س، العوارف: ذوات.

(٣) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٣١.

(٤) س: لدرجها.

(٥) ع، س: للأنفس.

(٦) س: المتين.

(٧) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٤١.

(*–*٨) العوارف: العبد الله.

(*–*٩) محوٌ في الأصل بمقدار كلمتين، والمثبت من: ع، س. وفي العوارف: بصّره بعيوب.

(١٠) انظر: عوارف المعارف، ٢٤١.

القسم الثاني
في ذِكر فضلِها

قد تقدّمتِ الأحاديثُ في ذِكرِ فضلِها[١] – فضلِ الخَلْوة – على الإطلاقِ مِن غيرِ تقييدٍ بزمنٍ مُعيَّنٍ، وقد تقدّمَ[٢] أنّ هذا العَددَ لم يُقصَدْ إلّا لِتُمَرَّنَ النفسُ على الخَلْوةِ في هذه المدّةِ، فيألَفُها الطَّبْعُ، وتَنقادُ لها النفسُ، ويَسكُنُ إليها ما تَحرَّكَ مِنَ الخاطرِ، ويشتغلُ بها ما توزّعَ مِنَ الفِكْرِ الحاضرِ، ويجتمعُ فيها ما تَفرّق مِنَ السِّرِّ السائرِ، ويستأنسُ بها – في الباطنِ– ما استوحشَ بما اتّصلَ مِنَ الذِّكرِ الوافرِ، وتَشرُف الأعمالُ بكثيرٍ من نتائجِها وثمراتِها ومقاصدِها.

والمقصودُ منها رَفْعُ الحُجُبِ عنِ القلبِ، وصفاءُ السرِّ، وتصحيحُ المعاملةِ، وهذه كلُّها أمورٌ[٣] للشرعِ مطلوبةٌ، فكانتِ المحافظةُ عليها محبوبةً.

ولا يختلِجْ في سِرِّ مَن يتوجّهُ إلى بابِ ربِّ العالمينَ مِنَ المُريدينَ إلى طَيِّ الأربعينَ أساسٌ في وَصْلةِ المنقطعينَ، ولكنّه زيادةٌ في رُتبةِ المُقرَّبينَ، وعِبادةٌ مِن جُملةِ | وِجْهةِ المُخلصينَ. ١٣٩و

ولو كان ذلك كذلك لَمَا فاتتْ هذه الفضيلةُ جملةً مِنَ السلفِ الماضِينَ، ولَتقرَّبَ بها الرسولُ ﷺ ومَن قَبْلَه مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ، ولا إشكالَ أنّ لها أثرًا[٤] في التطهيرِ مِن دَنسِ الرذائلِ، وإنْ كانتِ المواهبُ الإلهيّة لا تتوقّفُ ولا تنحصرُ في تعاطي الفضائلِ؛ فقد يُوجَدُ مَن يتناول الغِذاء كلَّ يومٍ وهو مِنَ المُقرَّبينَ، ومَن يطوي الأربعينَ وهو مِنَ المُبعَدِين المَغرورين؛ فعِلَلُ النفوسِ وآفاتُها ليس لها غايةٌ، ومِنَحُ الله وعطاياهُ ليس لانقضائِها نهايةٌ.

---

(١) انظر فيما تقدم ٢٣٩.

(٢) س: تقرّر.

(٣) ع: للشّرِّ.

(٤) في الأصل: أثر.

قال محمّدُ بنُ حامدٍ: جاء رجلٌ إلى زيارةِ أبي بكرٍ الوَرّاقِ، فقال له: أَوصِني. فقال: وجدتُ خيرَ الدنيا والآخرةِ في الخَلْوة والقِلّة، ووجدتُ شرَّهما في الكثرةِ والاختلاطِ[1]. وبه تمّ القسمُ الثاني.

القسم الثالث
في أدبِ الدُّخولِ في الأربعينَ، وما يتوجّب[2] المحافظةُ عليه فيها، لِمن رغبَ فيها مِنَ المتوجّهينَ

١٣٩ظ قد تقدّم بيانُ شرَفِ العُزلة، وما | فيها لِلعبدِ مِنَ الوَصلةِ، وبيانُ وجهِ تحديدِها بالأربعين. وقد تقدّم بكاءُ داوُدَ على خطيئتِه أربعينَ يومًا وليلةً، وأنّ اللهَ غَفَرَ له[3].

فإذا عزَم المُريدُ على الدخولِ في الخَلْوةِ، فلا بدّ من شُروطٍ قَبْلَها:

أحدُها: شيخٌ يَسُوسُه، فإنْ تَعَذّرَ فصاحِبٌ عارفٌ يُؤنِسُه. وثانيها: الرياضةُ على ما شَرَطَهُ الناظرونَ مِنَ التنقيصِ بالتدريج. قال الشيخُ أبو طالبٍ المَكّيُّ: عَرَفْنَا مَن طَوَى أربعينَ يومًا برياضةِ النفسِ في تأخيرِ القُوتِ، كان يُؤَخِّرُ فِطْرَهُ كلَّ ليلةٍ إلى نصفِ سُبعِ الليلِ حتّى يَطويَ ليلةً في نصف شهرٍ، فيطوي الأربعينَ في سنةٍ وأربعةِ أشهرٍ، فتندرجُ الأيامُ والليالي حتى تكونَ «الأربعين» بمنزلةِ يومٍ واحدٍ[4].

قلتُ: الإقدامُ على الجُوعِ بالتّقليلِ[5] والطَّيِّ مِن غيرِ تدريجٍ جهلٌ بالطريقِ، وخروجٌ عن أدبِ الشريعةِ والحقيقةِ. وقد تعَاطى قومٌ إدخالَ تابِعِيهِمُ الخَلَواتِ،

---

(١) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٣٣.

(٢) ع، س: يتوجّه.

(٣) انظر فيما سيأتي، ٢٤٧.

(٤) انظر: عوارف المعارف، ١٤٦–٢٤٧.

(٥) ع: بالقليل.

فاختلّت أذهانُهم، وذهبتْ عقولُهم، ومات منهم جماعةٌ، | وهذا جُرأةٌ[١] على ١٤٠و
الله وعلى أهلِ الطريقِ وقِلّةُ دينٍ مانعةٌ مِنَ المَشْي على قَدمِ التوفيقِ.

وللناسِ فيه مذاهبُ: أحدُها هذا. والآخرُ: قَدْرَ ما يأكُل بِنَوًى أو حَصًى متقاربٍ أو قُضْبانٍ[٢] خُضْرٍ، فَيَزِنُ بعد ذلك قُوْتَهُ، ويُسْقِطُ (*كلَّ يومٍ*[٣]) نَوَاهُ، وإنْ كان بالقُضْبانِ. فكُلَّ يومٍ يجُفُّ، فيجوعُ ولا يتأذّى، ولا ينحلّ له مِزاجُ، وتبقى له عادةً، فلا يتضرّرُ بالوصالِ بعد ذلك، ولا بالطَّيّ؛ لِاعتيادِه له.

وثالثُها: صِحّةُ القصدِ في دُخولِ الخَلْوة، فإنّ الغَلَطَ قد كثُر في داخلِيها ومُتعاطِيها لَمّا سَمِعُوا أنّ جماعةً فَعَلُوها، وفُتِحَ عليهم فيها، وهذا مِنهم تلاعُبٌ في الطريقِ، وعُدولٌ عن سبيلِ التحقيقِ، وتحريفٌ لِلكَلِمِ عن مَواضِعِه، قد فتحَ الشيطانُ به عليهم بابَ الغُرورِ، وسَلَكَ بهم مَسالكَ الجُرأة على اللهِ وارتكابِ الفُجورِ، فبَنَوُا الأساسَ في خَلْوتِهم على شَفا جُرُفٍ هارٍ، وفاتَهُم نُورُ الإخلاصِ
الذي به في الأعمالِ يكون وجودُ الِاختصاصِ. | وهذا عملٌ معلولٌ، وقَصْدٌ ١٤٠ظ
مَدخُولٌ، تُعْدَمُ منه الفوائدُ، وتوجدُ فيه الأَوَابِدُ، وبِصِحّةِ النِيّاتِ وتصحيحِها تزكُو الأعمالُ، وتتزيّنُ بالقَبولِ في جملةِ الأحوال.

وهذه الطائفة إنّما اختارتِ الخَلْوةَ؛ لِما قدّمناه مِنَ الفوائدِ العَشْرِ فيها، على ما تَقدَّمَ في القسم الأوّل[٤].

ومَقصِدُ هذه الطائفةِ فيها خمسةُ أوجُهٍ: أحدُها سلامةُ الدينِ، وثانِيها تفقُّدُ أحوالِ النفسِ، وثالثُها مُراقَبةُ خواطِرِها، ورابعُها قَطعُ وساوِسِها بالذِّكرِ، وخامسُها إخلاصُ العملِ لله وحده[٥] سِرًّا عن أعيُنِ الناظِرِينَ معَ ما يَفتحُ اللهُ به على المُتوجِّه مِن تصحيحِ النيّة، فإنّ النيّاتِ الصالحةَ هي أساسُ كُلِّ خيرٍ.

---

(١) ع: جزاؤه.

(٢) شجرة ذات حجم متوسّط يتراوح ارتفاعها ما بين ٤٥ و٥٠ قدمًا، وشكلها بيضاويّ، وينمو الجذع البنّي الداكن اللون بشكل مستقيم، ويصل قطرها غالبًا إلى ٥ أقدام.

(*-*٣) لا يوجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

(٤) انظر فيما سبق...

(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.

ولِأجْلِ هذا قال ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنيّاتِ، وإنّما لِكُلِّ امرئٍ ما نَوَى»[١]. فعلى النيّةِ مَدَارُ تصحيحِ الأعمالِ، ومنها مَثَارُ إصلاحِ الأحوالِ. فمَنْ دَخَلَها على صِحّة عَزْمِه وقُوّةِ هَمِّهِ، فُتحتْ له أبوابُ الزِّياداتِ، فأشرَقتْ عليه أنوارُ
١٤١و السعاداتِ، | ومَن دَخَلَها لِيَرَى ويَسمعَ، ويُخاطَبَ ويُكَلَّمَ ويُشْرِفَ على عالَمِ الغَيبِ، ويُشاهِدَ حالَ أهلِ القَبضتَيْنِ عِندَ النشأَتَيْنِ، ويُعَظَّمَ[٢] في عينِ العِبادِ بما يَتِمُّ له مِنَ المُرادِ، ولِيكُونَ مِن جُملةِ[٣] المُقرَّبينَ والأبرارِ، والمُطَهَّرِينَ الأسرارِ، لم يكُن سَعْيُه مشكورًا، ولا حظُّه مِنَ اللهِ مَوفُورًا، بل إنّما يدخُلُها لِما قَدَّمْنا.

وإنّه يُلازِمُ تِلكَ البُقعةَ مُلازَمةَ المَيْتِ لِبُقعةِ قبرِه، خاليًا عن إرادتِه، والشيخُ أوِ الرفيقُ الذي تَبِعَه[٤] هو الذي يتولّى تدبيرَ أمرِه، حتّى يَظهَرَ له ما يَرِدُ عليهِ مِن أمرٍ ببقاءٍ أو نَهْيٍ عن استدامةٍ[٥].

قال الشيخ أبو تميم المَغربيُّ: مَنِ اختارَ الخَلْوةَ على الصُّحبةِ ينبغي أنْ يكونَ خاليًا مِن جميعِ الأذكارِ إلّا ذِكْرَ ربِّه، (*وخاليًا مِن جميعِ المُراداتِ إلّا مُرادَ ربِّه*٦)، وخاليًا مِن مُطالبةِ النفسِ مِن جميعِ الأسبابِ، فإنْ لم يكُن بهذه الصفةِ فإنّ خَلْوتَه تُوقِعُه في فِتنةٍ أو بَلِيّةٍ[٧].

فإذا صحّتِ النيّةُ لِلمُريدِ في دُخولِ الخَلْوةِ، فالأجملُ[٨] له التجرُّدُ مِن كلِّ
١٤١ظ شيءٍ يَملِكُه، حتّى لا | يتعلّقَ أملُه بشيءٍ خارجٍ عنه، وأنْ يَغتسِلَ غُسْلًا يَنوِي

(١) انظر: سنن أبي داود، ٢٢٠٣؛ والسنن الكبرى، ١٨٤؛ وسنن ابن ماجه، ٤٢٢٧؛ والمعجم الأوسط، ٤٠؛ وصحيح ابن حبان، ٣٨٨.

(٢) في الأصل، ع: وتعظيم، والمثبت من: س.

(٣) لا توجد في: س.

(٤) ع، س: معه.

(٥) ع: استدامته.

(*-*٦) لا يوجد في: ع.

(٧) انظر: الزهد الكبير، ١٩٧؛ والرسالة القشيرية، ١: ٢٢٣.

(٨) س: فالأكمل.

به[١] التأهُّبَ لِلِقاءِ ربِّه[٢]، فإنّه في كلِّ نفَسٍ منه إلى اللهِ سائرٌ، يَقطعُ مسافاتِ الحُجُبِ الحائلةِ بينه وبين الاِتّصالِ، ويَحتاطُ في طَهارةِ ثِيابِه وبُقْعَتِه التي يَمكُثُ فيها، ويُصلّي رَكعتَينِ يَنوي بهما الاِستخارةَ في الوقتِ الذي يدخُل فيه إليها.

فإذا تَحقَّقَ منه العَزْمُ دخلَ إلى مكانِ خَلْوته، وبدأ باليمينِ في دُخولِه، وصَلَّى رَكعتينِ يَنوي بهما التوبةَ ممّا كان فيه مِن مُتابعةِ العاداتِ ومُطالبةِ النفسِ بالمُراداتِ، فإذا سَلّمَ جَدَّدَ التوبةَ وأكثَرَ مِنَ الاِستغفارِ والتضرُّعِ والخضوعِ والبكاءِ والاِستكانةِ وقد رأَى أنّه كعَبْدٍ أَبَقَ دَهْرًا، ثمّ عادَ مِن إباقِه يطلُبُ رِضَى سَيِّدِه، ويُسَوِّي بينَ سَريرتِه وعلانيتِه.

ثمّ يَمكثُ في مَوضِعِه ذاكرًا لا يفتُر ولا يقصُر، دائمَ الطهارةِ، لا ينامُ إلّا عن رغبةٍ[٣]، ولا يخرجُ منه إلّا لِصلاةِ جُمُعةٍ أو جماعةٍ؛ فإنّه يقال إنّ ذلك يَحفَظُ مِن تطرُّقاتِ[٤] | الآفاتِ العارضةِ في الخَلَوَاتِ، ولعلّه ما أُتِيَ على كَثيرٍ في خَلْوتِه ١٤٢و
إلّا بتهاونِه[٥] بتَركِ جماعتِه وجُمُعَتِه.

وَلْيَكُنْ[٦] ذاكرًا إذا خَرَجَ، غاضًّا لِبَصَرِه عن مُشاهَدةِ ما يَعْرِضُ له في طَريقِه، فإنّ الذِّهنَ إذا صَفَا انْتَقَشَتْ فيه المُبصَراتُ[٧]، فينشأُ عنها حديثُ النفسِ، فيُخشَى الاِسترسالُ فيه إلى هَدمِ ما قد بَنَاهُ في خَلْوَتِه.

وَلْيَتأهَّبْ لِلإقامةِ في الصلاةِ حتّى يُدْرِكَ تكبيرةَ الإحرامِ مع الإمامِ. وينصرف عند انقضائِها، ويَحْذَر أنْ تَجِدَ نفسُه حَلاوةَ تطلُّعِ الناسِ إليه[٨].

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) س: الله.
(٣) ع، س: غلبة.
(٤) ع، س: تطرُّق.
(٥) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٦) ولكن.
(٧) ع: المصنوعات.
(٨) انظر: عوارف المعارف، ٢٤١-٢٤٢.

والعِلمُ إنّما هو مِنَ الخَلْوة عليه، فإنّه يقال: «لا يَطْمَع عبدٌ في المَنزلةِ عِندَ الله وهو يُريدُ المَنزلةَ عند الناسِ». وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ وأصلٌ كبيرٌ مُعتَمَدٌ عليه في(١) تصحيح الأعمالِ؛ فمَن لَم يَعملْ فيما يقعُ عندَه منه على الإهمالِ فقد أتعبَ نفسَه وكَدَّها، وفوَّتَ ما أَمِلَ أنْ يَجِدَه بِخَلوتِه عِندها.

وَلْيَجْعَلْ وقتَه كُلَّه فيها وقتَ رِضًى عنِ الله بما يُقِيمُه فيه مِن طاعتِه، ولْيُوَزِّعْ أوقاتَه على تلاوةِ القرآنِ إنْ كان يَحفظُه، وإلّا ما تَيَسَّرَ منه، وإلّا قَرَأَ ١٤٢ظ | ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أو ذِكْرًا وصلاةَ نافلةٍ، أو مُرَاقَبَةً؛ فَمهما أَحَسَّ بفُتُورٍ أو عَجْزٍ، نامَ حتّى يَزُولَ عنه ما يَجِدُ، وإنْ وَظّفَ عليه عملًا معيّنًا مِن صلاةِ ركعاتٍ معلومةٍ أو تلاوةٍ محدودةٍ، أو أذكارٍ معدودةٍ، فلا بأس به، وإنْ جعلَ الحُكمَ لِلوقتِ في القِلّة والكثرة؛ فحسنٌ يعملُ على ما هو أخفُّ عليه وأنشَطُ لنفسِه. وهو مُخَيَّرٌ في إطالةِ القيامِ في الصلاةِ والركَعاتِ والسجَداتِ على قَدْرِ ما يَجِدُ في نفسِه في حالِ التوجّهاتِ. فَلْيُحافِظْ على ذلك عَدَدَ ما في الليلِ والنهارِ مِنَ الساعاتِ.

وأفضلُ الذِّكرِ لِلمُبتدئِ: «لا إلهَ إلّا اللهُ»، وَلْيَمُدَّها بحسَبِ ما يستطيعُ مِنَ المَدّ. قال سهلُ بنُ عبدِ الله: إذا قلتَ: «لا إله إلّا اللهُ» مُدَّ الكَلِمةَ، وانظُرْ إلى قِدَمِ الحَقِّ فأَثْبِتْهُ، وأَبْطِلْ ما سِواهُ.

فَلْيَلْزَمْ هذا الذِّكرَ حتّى يُفتحَ له، أوْ يَأمُرَه الشيخُ، أو مَن له نَظَرٌ وكَشْفٌ، أو يَرَى هو ما يقتضي الِانتقالَ عنه، فإنْ سَئِمَ مِنَ الذِّكرِ بلِسانِه قال ذلك بقلبِه بغيرِ حركةِ لسانٍ(٢).

١٤٣و وأمّا القُوتُ في الأربعينيّة فإنّه يختلفُ | باختلافِ الأمْزِجَةِ والأزْمِنَةِ والعَوائدِ.

والمقصودُ التّقليلُ، وأكْلُ ما يَحفَظُ القُوَى، ويَمنعُ العقلَ مِنَ الِاختلال، ويَحفظُ الرُّطوبةَ على الجَسدِ مِن غيرِ(٣) نَهَمٍ ولا شَرَهٍ، فأوّلَ ما يَدخُلُ يأكُلُ قَدْرَ

(١) لا توجد في الأصل، والمثبت من: ع، س.
(٢) انظر: عوارف المعارف، ٢٤٢.
(٣) لا توجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

ثُلثَي ما كان يأكلُ، ثمّ لا يزالُ يُنقِصُ كُلَّ يومٍ شيئًا إلى مِقدارِ الثُّلُث. ثُمّ الناسُ في ذلك يَختلفون: منهم مَن يُفطِرُ كلَّ ليلةٍ (*على شيءٍ يَسيرٍ، ومنهم مَن يُؤَخِّرُ الفِطْرَ إلى السَّحَرِ، ومنهم مَن يُنْقِصُ كُلَّ ليلةٍ*[١]) مِن قُوْتِه القليلِ نَزْرًا يَسيرًا[٢].

وقدِ ارتضَى جماعةٌ مِنَ المَشايخ أنّ رَطْلًا مِنَ الطعامِ يُقِيمُ البِنْيَةَ، فإنْ قَنِعَ به بغيرِ إدامٍ بيسيرِ مِلْحٍ أو غيرِه فلا بأسَ، ولْيَكُنْ ذلك بعد العِشاءِ أو في السَّحَرِ، وإنْ قسَمَهُ في الوَقتَيْنِ حتّى يَكُونَ أخَفَّ عليه كان أَوْلَى؛ فإنّ النفسَ مَهما خَفَّتْ مِنَ الأغذيةِ جَدَّتْ في الخِدمةِ.

وبعضُ المشايخ يَرَى أنْ يُطْعَمَ في الخَلْوةِ الأَدهانَ، ويُؤمَرَ بالأكلِ على قَدْرِ الحاجةِ دُونَ التقليلِ، ويقول: الذِّكرُ يُذِيبُ ذلك ويُفْنِيه، ويُظْهِرُ مِنَ الخبثِ ما كان فيه.

وقدِ اتّفقَ (*أهلُ الطريقِ*[٣]) على أنّ | بناءَ أمرِهم على أربعةِ أقسامٍ: قِلّةِ الطعامِ، ١٤٣ظ
وقلّةِ المَنامِ، وقلّةِ الكلامِ، (*وتركِ الاِجتماعِ بالأنام*[٤]).

ومَنْ تَدَرَّجَ في قِلّةِ الأكلِ على ما حَرَّرهُ السالكون، وأخلَصَ في ذلك، لم يُخْشَ عليه تغيُّرُ عَقلٍ ولا تأثُّرُ جِسمٍ، وكان في وقتِه طَيِّبًا.

واخْتُلِفَ في حَدِّ الجُوعِ المُفْرِط؛ فقال بعضُهم: أنْ لا تمييزَ[٥] بين الخُبزِ وغيرِه، يعني في الأكل.

وقال آخرُ: هو أنْ يَبْزُقَ، فلا يقع على ما[٦] ألقاه ذُبَابٌ، فإنّه يَدُلُّ على خُلُوِّ المَعِدَةِ مِنَ الرُّطوبةِ المُمِدّةِ لِلجَسَدِ، كالماءِ لا يَقربُه ذُبابٌ.

(*-*١) لا يوجد في: ع. [انتقال نظر].

(٢) انظر: عوارف المعارف، ٢٤٣.

(*-*٣) العوارف: مشايخ الصوفيّة.

(*-*٤) العوارف: والاعتزال عن الناس.

(٥) كذا في الأصل، ولعلّها: يُميِّز.

(٦) لا توجد في الأصل، س، والمثبت من: ع.

(*رُوِيَ عن أبي بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه أنّه كان يَطوي ستًّا، وعن ابن الزُّبير أنّه كان يطوي سبعًا، وعن الثّوريِّ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ كانا يطويانِ ثلاثًا ثلاثًا*[1])

قال شيخُنا شهابُ الدين في كتاب «عَوَارف المَعارف»: واشْتُهِرَ حالُ جَدِّنا مُحمّدِ بنِ عبدِ الله، المَعروفِ بعَمّوَيْه – وكان صاحبَ أحمدَ[2] الأسودِ الدِّيْنَوريِّ – أنّه كان يَطوي أربعينَ يومًا، وأقصى ما بلَغ – في هذا المعنى– مِنَ الطَّيِّ رجلٌ أدْرَكْنَا زمانَه، وماتَ وما رأيناهُ، كان في أَبْهَرَ[3]، يقالُ له: الزاهدُ خليفة. كان يأكلُ في كلِّ شهرٍ لَوْزةً، ولم يُسمَعْ أنّه بَلَغَ في هذه الأُمّةِ أحدٌ بالطَّيِّ والتدريجِ إلى هذا الحَدِّ، وكان في أوّلِ أمرِه – على ما حُكيَ – يُنقِصُ القُوتَ بنشافِ

١٤٤و العود. ثمّ طَوَى حتّى | انتهى إلى اللوزة في الأربعينَ[4].

قلتُ: قد تعدّى على إدخالِ الخَلْوةِ مَن كانتِ الغفلةُ عليه مُسْتَوليَةً، فتأذّى بِسَببِهِ جماعةٌ كثيرةٌ، وهو مندرجٌ تحت قولِه عليه السلام: «حتّى إذا لم يَبْقَ عالِمٌ، اتّخذَ الناسُ رُؤساءَ جُهّالًا، قالُوا[5] فأَفْتَوا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»[6]، فكانوا سببًا لإتلافِ العقولِ والنفوسِ؛ فإنّهم عالَجُوا مَن أدخَلُوه الخَلْوةَ بالخَيَالِ المَعكُوسِ.

ومَن لم يُحْكِمْ مِنَ المشايخِ مِنَ العِلْمِ بالظاهرِ ما يَرجِعُ به إليه المُريدُ في نَوازلِه، ومِن الطِّبِّ[7] ما يَعرفُ به أَمزجةَ مَن يُدخِلُه الخَلْوةَ في تغييرِها، ومِنَ العِلْمِ بالباطنِ مِن آفاتِ النفوسِ وعِلَلِها حتّى يترَكَها، ومِنَ الصفاتِ الحميدةِ الجالبةِ

(*–*1) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٢) لا يوجد في الأصل، ع، والمثبت من: س.

(٣) مدينةٌ مشهورةٌ بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والعجم يسمُّونها أوهر. انظر: معجم البلدان، ١: ٨٢.

(٤) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٤٥.

(٥) ع، س: فسُئلوا.

(٦) انظر: سنن الترمذي، ٢٦٥٢؛ وسنن ابن ماجه، ٥٢.

(٧) س: الطلب.

للحالاتِ السَّنِيّة حتّى يَرتكِبَها[١]، ومِنَ السّياسةِ الحَسَنةِ لنفسِه ولِمَن أدخَله الخَلْوةَ حتّى يسلُكَها، لَمْ يَجُزْ له أنْ يتعرَّضَ لذلك، وهو ممّنِ اعتدى في فِعْلِه، فارتدَى بِرِداءِ جَهلِه؛ فإنّه تعاطَى ما ليس هو مِن أهلِه. وبه تمّ القسمُ الثالثُ.

القسم الرابع
في ثمرتِها وما يتجدّدُ بعد فِعلِها من تركها

قد درجَ سلفُ هذه | الطائفةِ على ما ذكرناه مِنَ الخَلْوةِ والعُزْلةِ، والتقديرُ ١٤٤ظ
بالأربعينَ ليس على التعيينِ حتّى لا يقعَ التغييرُ فيها بالزيادةِ والنقصِ.

وجَهِلَ العَوَامُّ مِن أهلِ الطريقِ مَقصِدَ أهلِه بالخَلْوةِ، فقَصَدُوا بها غيرَ ما وُضِعَ أساسُها عليه، وقد تَقَدَّمَ بيانُ ذلك فأَغنَى عن إعادتِه[٢]، فمَن دخَلَ الخَلْوةَ لِعِلّةٍ نالَ منها ما رَامَ، وكان ذلك حظَّه مِنَ السعادةِ، ومَن سَلِمَ مِنَ العِللِ في دُخولِها، ووَفَّى بشروطِها، وقام بحدودِها، ظَهَرَ له مِنَ الأسرار الغَيْبيّة والأنوارِ الإلهيّة ما يَستغرقُ به وجودَه، ويستوثقُ فيه[٣] عن جُحودِه لِشهودِه.

رُوِيَ عن أبي عُمرَ الأنماطيِّ أنّه قال: لنْ يَصفُوَ للعاقلِ فهمُ الأخيرِ إلّا بإحكامِ ما يجبُ عليه مِن إصلاحِ الحالِ الأوّلِ، والمَواطِنِ التي ينبغي أنْ يعرف منها، أمُزْدادٌ[٤] هو أو مُنتقصٌ، فعليه أنْ يطلبَ موقعَ الخَلْوة، لكي لا يُعارِضَه شاغلٌ، فيُفسِدَ عليه ما يُريدُ[٥].

ومدارُ الوصول في هذا الطريقِ على أربعةِ فصولٍ: الصمت، والعُزْلة، والجوع، والسهر.

---

(١) ع: يتركها.

(٢) انظر فيما سبق ٢٣٩.

(٣) لا توجد في: س.

(٤) في الأصل، ع: أيزداد، والمثبت من: س، العوارف.

(٥) انظر: عوارف المعارف، ١:٢٣٣. وفيه: يريده.

١٤٥و فالصمتُ: حَبْسُ اللسانِ عنِ النُّطقِ، وحَبْسُ | القلبِ عنِ الفِكرةِ في غير الله وما يُقَرِّبُ منه.

والعُزْلةُ: سببٌ للصمتِ، وفي عُزلةِ الزاهدينَ بالأجسامِ وعُزلة العارفينَ بالقلوبِ. والجُوعُ على ضَرْبَينِ: اختياريٌّ، وهو جوعُ السالكينَ، واضطراريٌّ، وهو جوعُ العارفينَ، فإنّ العارفَ مأخوذٌ عن نفسِه ومُراعاتِها[١]، وهو بحسَبِ ما يُقامُ فيه: فإنْ كان في مقامِ الأُنْسِ قَلّ[٢]، وإنْ كان في مقامِ الهَيْبةِ كَثُرَ.

وأمّا السهرُ فإنّه لِلجوعِ تابعٌ، وهو على ضربَينِ: سهرُ عينٍ عنِ النومِ، وسهرُ قلبٍ عنِ الفِكْرِ.

قال أبو عثمانَ المغربيُّ: الخَلْوةُ والسماعُ لا يَصْلُحانِ إلّا لعالِمٍ رَبّانيٍّ، فالخَلْوةُ المحمودةُ إذا سُلِكتْ بشُروطِها فُتِحَ على مَنِ انفصلَ بمُلازَمةِ الاستقامةِ في الأعمالِ، والزهادةِ في إرادةِ العُلُوِّ وجَمْعِ الأموالِ، والتخلُّقِ بحَمِيدِ الخِلالِ، وإيثارِ الباقي على الفاني في جميعِ الأحوالِ، ومُطالَعةِ عالَمِ الغيبِ في الحالِ والمآلِ، ومُرابطةِ السَّيرِ[٣] على التوحيدِ في الإدبارِ مِنَ الوقتِ والإقبالِ، ومُحافظةِ الجَوارحِ
١٤٥ظ على الطاعاتِ في الإكثارِ منها[٤] والإقلالِ، فهذا مِن فُتوحِ | الغيبِ وثمرةِ الخَلْوةِ[٥] السّالمةِ عنِ الاعتلالِ، وليس كلُّ مَن دَخَلَ الخَلْوةَ يبدُو له مِن شَواهدِ الغيبِ ما يتنزّهُ به في عالمِ الملكوتِ؛ فإنّ بعضَ الأنفسِ تكُونُ لها قُوّةٌ للكشفِ، فترتفِعُ عنها الحُجُبُ الساترةُ، وبعضُ الأنفُسِ تَعدَمُ[٦] هذه القوّةَ، ولا يكونُ عدمُها دليلاً[٧] على نقصٍ ولا حرمانِ عطاءٍ.

---

(١) س: وداعاتها.
(٢) س: قلل.
(٣) س: السِّر.
(٤) لا توجد في الأصل، والمثبت من: س.
(٥) س: القلب.
(٦) في الأصل: بعدم. والمثبت من: ع، س.
(٧) في الأصل، ع: بالرفع.

وكم مِن مُكاشَفٍ بعيدٌ، ومستورٍ عنه الكشفُ قريبٌ، وقد تقدّم أنّ أفضلَ الذِّكرِ لِلمُبتدِئ: «لا إلهَ إلّا اللهُ»[١].

رَوَيْنا أنّ عيسى ابنَ مريمَ – على نبيِّنا وعليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ – قال: ربِّ أَنبِئْني عن هذهِ الأمّةِ المَرحُومةِ. قال: «أمّةُ محمّدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ عُلماءُ أَخفِيَاءُ[٢]، أنقِيَاءُ[٣]، حُلَمَاءُ، [أَصفِيَاءُ][٤]، كأنّهم أنبياءُ، يَرضَونَ منّي بالقليلِ مِنَ العطاءِ، وأرضَى منهم باليسيرِ مِنَ العملِ، وأُدخِلُهُمُ الجَنّةَ بِـ «لا إلهَ إلّا اللهُ»، يا عِيسى، هُم أكثرُ سُكّانِ الجنّة؛ لأنّها لم تَذِلَّ أَلْسِنَةُ[٥] قومٍ قطُّ بِـ «لا إله إلّا الله» كما ذَلّتْ أَلْسِنَتُهم، ولم تَذِلَّ رِقَابُ قومٍ [قطُّ][٦] بالسُّجودِ كمَا ذَلَّتْ رِقَابُهم»[٧].

فلِأجْلِ ذلك اختارَ | جمعٌ مِنَ المَشايخ هذه الكلمةَ مِن دونِ سائرِ الأذكارِ، ١٤٥و
فإنّ لها خاصّيّةً عظيمةً إذا ذُكِرَتْ بشروطِها في تنويرِ الباطنِ وضبطِ النفسِ عنِ المَلاذِّ[٨] في الخواطرِ وجميعِ الهَمّ.

فَلْيُداوِمِ العبدُ على ذِكْرِ هذه الكلمةِ في خَلْوتِه، لا يَفتُر عن ذِكْرِها حتى تتمكّنَ في قلبِه، وتَنزِلَ منزلةَ حديثِ نفسِه، فإذا تسهّلتْ على لِسانِه تأصّلتْ في قلبِه، وبَقِيَ القلبُ ذاكرًا، واللسانُ ساكتًا، فيتجوهَرُ القلبُ ويستقرُّ فيه نورُ اليقينِ، ويتّحدُ الذِّكرُ معَ رُؤيةِ عظَمةِ المذكورِ، فيكونُ الذِّكرُ إذْ ذاكَ ذِكرَ الذاتِ، وذلك هو المُكاشَفةُ والمشاهَدةُ والمعايَنةُ، فيتجوهرُ القلبُ بذِكْرِ[٩] الربِّ، وهذا هو معنى قولِه عليه السلام: «اللهمَّ اجعَلْ في قلبي نُورًا» إلى أنْ قال: «اللهمَّ اجعَلْ لي نُورًا، واجعلني

---

(١) انظر فيما سبق ٢٥٤.
(٢) العوارف: حنفاء.
(٣) ع، س، العوارف: أتقياء.
(٤) زيادة من العوارف.
(٥) العوارف: ألسن.
(٦) زيادة من العوارف.
(٧) انظر: عوارف المعارف، ٢٣٦.
(٨) ع، س: التبدُّد.
(٩) س: بنور.

نورًا»[1]. وهذا هو أقصى موضوعِ الخَلْوة عند أهلِها، وهي مَوهِبةٌ عظيمةٌ ومَرتبةٌ
عَليّة[2]. وقد تُنالُ هذه الحالةُ بتلاوةِ القرآنِ بالتدبُّرِ والاِعتبارِ، والتفكُّرِ والاِفتقارِ،
١٤٦ظ حتى يَشهَدَ عظَمةَ المَذكورِ فيما يُحاوِلُه مِنَ (*التلاوةِ | وغيرِه*[3])، فيُشرِق نورُ
الكلامِ (*على القلبِ، ويَستحضِر عظَمةَ المتكلّمِ، فيجمع بين نورِ الكلامِ*[4]) وبين
عظمةِ المتكلِّم به، فيستفيدُ به ما ذكَرْنَاهُ مِنَ اللَّذَاذةِ والحَلاوةِ والأُنْسِ سابقًا، هذا
معَ ما يفتحُ به عليه مِنَ العلومِ اللَّدُنِّيّة، والمُطالَعاتِ الغَيْبيّةِ، والأسرارِ الكَشْفِيّة،
والمَعارفِ الإلهاميّة، وإن كان دُوْنَ الأوّلِ.

وقد يَقوَى عليهِ الحالُ في الذِّكرِ، فيُؤخَذُ حتّى يبقى كأنّه في الذِّكرِ كصاحبِ
السُّبَاتِ أو النوم، إلّا أنّه ناطِقٌ، فتتجلّى له الحقائقُ كما تقعُ لِلنائمِ، فيحتاجُ إلى
تعبيرٍ، وقد تتجَلّى الحقائقُ لِلذاكرِ مِن غيرِ مثالٍ، فيكونُ كَشْفًا وعِلْمًا مِنَ اللهِ،
فتارةً بالعيانِ وتارةً بالسماعِ مِن خارجٍ، كالهاتفِ، وتارةً مِنَ الباطنِ.. كلُّ ذلكَ
ينالُه صاحبُ الخَلْوةِ الجاريةِ على أصلِ الصحّة، فيصيرُ هذا الفتحُ ممّا يَزِيدُهم
شَغَفًا بالاِستقامةِ، والصِّدقِ في المُعاملةِ، والقوّةِ[5] في الزَّهادةِ، والتلبُّسِ بمَحاسنِ
١٤٧و الأخلاقِ المُعتادة، وقد يقعُ بشيءٍ مِنْ | صورةِ الفتحِ على مَن واصلَ واعتزلَ،
ولم يسنَّ نفسَه بالسّياسةِ الشرعيّةِ، فيكونُ ذلك القَدْرُ سببًا لِبُعدِه وطردِه،
فيزدادُ حماقةً واستطالةً واحتقارًا بالعبادِ، ويتمادَى به الأمرُ في ذلك حتّى يَمْرُقَ
مِنَ الدِّينِ، ولا يَرَى الاِقتداءَ بالنّبيّينَ، ويَعتقد أنّ المُرادَ إنما هو الذِّكْرُ المُبِينُ
دونَ وسائطِ المُرسَلِينَ، ذلك هو الخُسرانُ المُبِينُ، فيخرُجُ بذلك عن جُملةِ مَن
يُعَدُّ منَ المُوحِّدِينَ، ويُثْبَتُ في دِيوانِ المُتزَنْدِقِينَ المُلحِدِين. وقد يقعُ التمويهُ على

(١) انظر: صحيح مسلم، ٧٦٣؛ ومسند الطيالسي، ٢٨٢٩؛ ومسند أبي عوانة، ٢٢٧٤.
(٢) انظر: عوارف المعارف، ١: ٢٣٦.
(*-*٣) س: التلاوة في الصلاة وغيرها.
(*-*٤) لا يوجد في: ع.
(٥) س: والفتوّة.

طائفةٍ أخرى بخَيَالاتٍ، وهي ناشئةٌ عنْ جَهَالاتٍ، وليستْ بوَقائعَ عن أربابِ الحالاتِ. وعلى كلِّ واحدٍ مِن أهلِ الِاعوِجاجِ والِاستقامةِ دَلَالاتٌ.

وقصدُ الِاختصارِ في المَقالةِ يَحمِلُنا على الِاقتصار عنِ الإطالةِ، والمَواجِيدُ التي تَرِدُ على قُلوبِ المُتوجِّهِينَ لا يَسَعُ التصبُّرُ [١]عنها لِلمُستمِعينَ، وإنّما لها آثارٌ تَلُوحُ عِندَ المُستبصِرينَ، ورَوَائحُ تَفُوحُ عِندَ المُستَنشِقِينَ، (*ومَطاعِمُ تُذاقُ | في أَلْسِنةِ ١٤٧ظ المُستطعِمِينَ*[٢])، ومَلَابِسُ تُكتَسَى[٣] مِنَ النُّورِ المُبِينِ، ومَوَاهِبُ تُفاضُ على العُقولِ مِنَ الفضلِ العَمِيمِ، ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيم.

وبذلك تَمَّ ما أَرَدْنَا مِنَ الِاقتداءِ بالِاهتداءِ، ونعُوذُ باللهِ مِن جَهدِ البَلاءِ، ودَرَكِ الشقاءِ، وسُوءِ القَضَاءِ، وشَماتةِ الأعداءِ، والحاجةِ إلى الأَكْفَاءِ[٤]، وصلَّى اللهُ على سيّدِنا مُحمَّدٍ خاتَمِ الأنبياءِ، وعلى آلِه وصَحبِه البَرَرَةِ الأتقياءِ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

---

(١) س: التعبير.

(*–*٢) لا يوجد في: ع.

(٣) س: تُكسى.

(٤) ع: الاكتفاء.

وَافَقَ الفراغُ مِن نَسْخِه [صُـ]بْحَ اليومِ المُبارَكِ، يومِ الجُمُعةِ
سادسِ ذِي الحِجّةِ سنة اثنينِ وثمانينَ وسِتِّ مئة،
على يدِ العبدِ الفقيرِ إلى رحمةِ ربِّه مُحمَّدِ
ابنِ قيمازَ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ الله
ابنِ محمّدِ بنِ رِضوانَ
الشافعيِّ السُّعُوديِّ،
غَفَرَ اللهُ له زَلَلَهُ،
ولِمَنْ طَالَع فيه
وسدَّ خَلَلَهُ،
ولِجميعِ
المُسلِمينَ

ثبت المصادر والمراجع[1]

أولًا: المصادر

القرآن الكريم.

الآجُري: أبو بكر محمّد بن الحسين البغدادي، المتوفّى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م.

الغُرباء، تحقيق بدر البدر، دار الخلفاء، الكويت، ط١، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

أثير الدين الأندلسي: أبو حيَّان محمّد بن يوسف بن عليّ، المتوفّى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م.

البحر المحيط، تحقيق عبد الرزّاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

أحمد بن حنبل: (الإمام) أبو عبد الله بن محمّد الشيباني، المتوفّى سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م

المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٨م.

ابن الأزرق: محمّد بن علي بن محمّد الأصبحي الغرناطي، أبو عبد الله، المتوفّى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م.

بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشّار، وزارة الإعلام العراقية، بغداد ١٩٧٨م

الأشموني: علي بن محمّد بن عيسى الشافعي، المتوفّى سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م.

شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

البخاري: (الإمام) محمّد بن إسماعيل الجُعفي، المتوفّى سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠م.

الجامع الصحيح، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مكتبة النهضة الحديثة، مكّة المكرّمة، ١٩٥٦م.

(١) مرتب على حروف المعجم بدون ابن، أبو، و ال التعريف.

الأدب المفرد، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، ١٩٨٩م، المصوّرة عن طبعة القاهرة ١٩٥٥م.

البزّار: أبو بكر أحمد بن عمرو العُتْكي، المتوفّى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م.

مسند البزّار المسمى **البحر الزّخار**، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة - بيروت، ٢٠٠٩م.

أبو بكر بن العربي: محمّد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، المتوفّى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م.

أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، المتوفّى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م.

السنن الكبرى، مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ٢٠٠٢م.

كتاب الزهد الكبير، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسّسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

الترمذي: محمّد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحّاك، المتوفّى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م.

السنن، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٥م.

الثعلبي: أحمد بن محمّد بن إبراهيم، المتوفّى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م.

الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢ م.

الجُرجاني: علي بن محمّد بن علي الزين الشريف، المتوفّى سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م

كتاب التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

ابن الجعد: علي بن عبيد الجَوْهَري البغدادي، المتوفّى سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م.

مسند ابن الجعد، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسّسة نادر للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

ابن جنّي: أبو الفتح عثمان ابن جنّي الموصلي، المتوفّى سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م.

الخصائص، تحقيق محمّد علي النجّار، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٦٥م.

ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المتوفّى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م

ذمّ الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٢م.

صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، المتوفّى سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

الحاكم النيسابوري، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المتوفّى سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م.

المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

أبو حامد الغزالي: محمّد بن محمّد الطوسي، المتوفّى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١٢م

إحياء علوم الدين، تحقيق اللجنة العلمية بدار المنهاج، جدّة ٢٠١١م.

ابن حِبّان: محمد بن حبّان بن أحمد بن حبّان بن معاذ بن مَعْبد، التميمي الدَّارمي البُستي، المتوفّى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م

صحيح ابن حبّان، حقّقه شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي، المتوفّى سنة٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

لسان الميزان، تحقيق غنيم بن عباس بن غنيم، وخليل بن محمد العربي، القاهرة، دار الفاروق الحديثة، ١٩٩٥م.

الحُميدي: محمّد بن أبي نصر فتوح الأزدي الميورقي، المتوفّى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٨م.

تفسير غريب ما في الصحيحين، تحقيق زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٩٥م.

الخطَّابي: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البُستي، المتوفّى سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م.

العزلة، تحقيق عادل عبد الموجود، مراجعة محمد الزناري، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٧م.

الدَّارقطني: علي بن عمر بن أحمد البغدادي، المتوفّى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م.

السنن، تحقيق السيّد عبد الله هاشم يماني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٦م.

الدَّارمي: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل التميمي، المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م.

السنن، مطبعة الاعتدال، دمشق، ١٩٣٠م.

ابن أبي الدنيا: عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي، المتوفى سنة ٢٨١هـ/٨٩٥م.

ذمّ الدنيا، تحقيق مجدي السيد، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨م.

الصمت وآداب اللسان، تحقيق أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

محاسبة النفس، تحقيق مجدي السيد، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٧م.

العزلة والانفراد، تحقيق مشهور آل سليمان، دار الوطن، الرياض ١٩٩٧م.

أبو داود الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود البصري، المتوفّى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م.

المسند، تحقيق محمّد عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

الدّورقي: أحمد بن إبراهيم بن كثير، المتوفّى سنة ٢٤٦هـ/٠م.

مسند سعد بن أبي وقّاص، تحقيق عامر حسن صبري، بيروت ١٩٨٧م.

الدَّيلمي: شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع، المتوفّى سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م.

الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

الذهبي: محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، المتوفّى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م.

سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسّسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢م.

الربيع بن حبيب: ابن عمرو الفراهيدي البصري، المتوفّى أواخر القرن الثاني للهجرة.
مسند ابن حبيب، تحقيق محمد إدريس، وعاشور بن يوسف، مكتبة الاستقامة ودار الحكمة، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

ابن رجب الحنبلي: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد السلامي البغدادي ثم الدمشقي، المتوفّى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م.
جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ابن رشيد السبتي: محمّد بن عمر الفهري، المتوفّى سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م.
ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، (رحلة السبتي) تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للكتاب، تونس ١٩٨١م.

السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، المتوفّى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م.
طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٤م.

السخاوي: محمّد بن عبد الرحمن بن محمّد بن أبي بكر، المتوفّى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م.
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٨م.
القول المنبي في ترجمة ابن العربي، تحقيق خالد بن العربي مدرك، رسالة ماجستير غير منشورة.

ابن سعيد المغربي: أبو الحسن علي بن موسى، المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٧م.
المغرب في حلى المغرب، قسم مصر، تحقيق حسين نصّار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

السُّلمي: أبو عبد الرحمن محمّد بن الحسين بن محمّد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري الأزدي، المتوفّى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م.
طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م
جوامع آداب الصوفية، دار جوامع الكلم، القاهرة، ١٩٩٩م.
الأربعون في التصوّف، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٨١م.

السّهروردي: عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصدّيقي، أبو النجيب، المتوفّى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م.

آداب المريدين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٢م، تحقيق عاصم بن إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.

عوارف المعارف، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر، المتوفّى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م.

الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦م.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري، المتوفّى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.

الأعمال الكاملة للسيوطي في التصوّف الإسلامي، تحقيق عبد الخالق محمود، وأحمد جمعة عبد الحميد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠١١م.

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

همع الهوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.

ابن شاذان: الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد، أبو علي البَزَّاز، المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٤م.

مشيخة ابن شاذان الصغرى، تحقيق: عصام موسى هادي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنوّرة، ١٩٩٨م .

الشافعي: (الإمام) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطّلبي، أبو عبد الله، المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨٢٠م.

مسند الشافعي، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٥م.

الشهاب القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون المصري، المتوفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م.

مسند الشهاب، تحقيق حمدي عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

أبو الشيخ الحِبّاني: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبّان الأصبهاني، أبو محمد، المتوفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩م.

الأمثال في الحديث، تحقيق عبد العليّ عبد الحميد حامد، الدار السلفية، بومباي، ط٢، ١٩٨٧م.

الصاحب بن عبّاد: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المتوفى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م

المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م.

الصنعاني: عبد الرزاق بن همّام بن نافع الحميري اليماني، المتوفى سنة ٢١١هـ/٨٢٦م.

المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.

أبو طالب المكي: محمد بن علي بن عطية الحارثي، المتوفّى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م.

قوت القلوب، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.

الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، المتوفى سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م.

الدعاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ١٩٩٣م

المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٩٤م.

المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٩٨٣م.

ابن أبي عاصم: أحمد بن عمرو بن الضحّاك بن مخلد الشيباني، أبو بكر، المتوفّى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م.

الآحاد والمثاني، تحقيق باسم فيصل وأحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض، ١٩٩١م.

ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، المتوفّى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م

تاريخ دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري، أبو الفلاح، المتوفى سنة ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٩٥م.

الفاسي المكي: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب الحسني، المتوفى سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، محمود الطناحي، محمد حامد الفقي، مطبعة السنّة المحمّدية، القاهرة، ١٩٥٨م.

ابن فرحون المالكي: إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين اليعمُري، المتوفّى سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م.

الديباج المُذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م.

ابن فهد المكي: محمد بن محمّد، تقي الدين الهاشمي، أبو الفضل العلويّ الشافعي، المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م.

لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفّاظ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن قيم الجوزيّة: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، المتوفى سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق ناصر سليمان، وصالح بن عبد العزيز التويجري، وآخرين، دار الصميعي، الرياض، ٢٠١١م.

الكاشاني: عبد الرزاق جمال الدين بن أحمد بن أبي الغنائم محمّد، المتوفّى سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م.

معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق عبد الخالق محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، المتوفّى سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م.

سنن ابن ماجه، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٢م.

مالك بن أنس: (الإمام) أبو عبد الله الأصبحي، المتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م.

الموطّأ، تحقيق تقي الدين الندوي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٩٩١م.

ابن المبارك: عبد الله بن واضح الحنظلي، التركي ثم المروزي، أبو عبد الرحمن، المتوفى سنة ١٨١هـ/٧٩٧م.

الزهد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٦م.

المتقي الهندي: علي بن عبد الملك حسام الدين، المتوفى سنة ٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م.

كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني، وصفوت السقّا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

مجد الدين ابن الأثير: المبارك بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، المتوفّى سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م.

جامع الأصول من أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣ – ١٩٨٥م.

المرتضى الزَّبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، المتوفى سنة ١٢٠٥ﻫ/١٧٩١م.

إتحاف السادة المتّقين في شرح إحياء علوم الدين، المطبعة الميمنية، القاهرة، ١٨٩٣م.

تاج العروس، منشورات دار مكتبة الحياة، والمطبعة الخيرية، بيروت، والقاهرة، ١٩٨٨م.

المقري التلمساني: شهاب الدين أحمد بن محمد، المتوفّى سنة ١٠٤١هـ/١٦٠٥م.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، أبو محمد، المتوفى سنة ٦٥٦هـ، ١٢٥٨م.

الترغيب والترهيب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

ابن منظور: محمّد بن مكرم بن علي الرويفعي الإفريقي، المتوفّى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م.

لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١.

أبو نُعيم الأصفهاني: أحمد بن عبد الله بن أحمد، المتوفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

أَبُو نَصْر السَّرَّاج: عبد الله بن علي الطوسي، المتوفّى سنة **٣٧٨** هـ/٩٨٨م

اللمع في التصوّف، تحقيق نيكلسون، ليدن ١٩١٤م.

النووي، يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، أبو زكريا، المتوفى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م.

شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، **١٣٩٢**هـ.

أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، المتوفى بعد سنة **٣٩٥**هـ، بعد **١٠٠٥**م.

جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الفكر، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م.

هَنَّاد بن السَّرِي: أبو السَّرِي بن مصعب بن أبي بكر التميمي الدَّارمي الكوفي، المتوفى سنة **٢٤٣**هـ/ ٨٥٧م.

كتاب الزهد، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبّار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ.

أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، المتوفى سنة ٣٠٧هـ.

المسند، تحقيق حسن سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤م.

اليونيني: موسى بن محمّد بن أبي الحسين أحمد البعلبكي، قطب الدين، أبو الفتح، المتوفّى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م.

ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع

إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وآخرون

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، **٢٠٠٥م**.

إسماعيل باشا البابانى: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي، المتوفّى سنة **١٣٣٩هـ/١٩٢٠م**.

هديّة العارفين في أسماء الكتب والمصنّفين، دار الفكر، القاهرة، **١٩٨٢م**.

حبيب الله حسن أحمد

جهود القطب القسطلاني في رسم الطريق إلى الله، مصر للخدمات العلمية، القاهرة، **٢٠٠٢م**.

الزركلي: خير الدين، المتوفّى سنة **١٩٧٩م**.

الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، **٢٠٠٥م**.

قرة بلوط، على رضا، وأحمد طوران

معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم، دار العقبة، تركيا.

كارل بروكلمان

تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجّار، ويعقوب بكر، ورمضان عبد التوّاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، **١٩٩٣ – ١٩٩٩م**.

الفاداني المكي: علم الدين محمد ياسين بن محمد عيسى، أبو الفيض، المتوفّى سنة **١٤١١هـ/١٩٩١م**

العجالة في الأحاديث المسلسلة، دار البصائر، دمشق، **١٩٨٥م**.

المخطوطات الموقّعة: أعمال المؤتمر الدولى الثاني لمركز المخطوطات مكتبة الإسكندرية، أبريل **٢٠٠٥م**.

الكشّافات

كشّاف الآيات القرآنية

الآيـــــــــة	رقم الآية	الصفحة
﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾	الأعراف: ١٤٢	٢١١
﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾	الأعراف: ١٥٦	٩٢
﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾	الأعراف: ١٩٩	٦٣، ١٤٩
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾	الأعراف: ٢٠١	٥١
﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾	الأعراف: ٢٠٢	٥١
﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾	الأنفال: ١٧	٢٠٣
﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾	الأنفال: ٢٣	١٦٢
﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾	التوبة: ٦٧	٨٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾	التوبة: ١١٩	٧٧
﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾	التوبة: ١١٩	١٣٧
﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ﴾	هود: ٥٦	١٤٥
﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	هود: ٨٦	١٣٢
﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾	هود: ٨٨	١٢١
﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾	هود: ١١٢	١٤٧
﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾	هود: ١٢٣	١٤٦

كشّاف الأحاديث النبوية

كشّاف المصطلحات والمقامات والأحوال

المصطلحات

المقامات والأحوال

كشّاف الأعلام

كشّاف الأشعار

(الهمزة)

(الدال)

(الهــاء)

(اليــاء)

Bibliografische Information der Deutschen Bibliothek

Die Deutsche Bibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über https://portal.d-nb.de abrufbar

Für den nichtarabischen Raum: Klaus Schwarz Verlag Berlin
ISBN 978-3-87997-698-0



Für den arabischen Raum: Dar al-Farabi Beirut
ISBN 978-614-432-469-1



 Gedruckt mit Unterstützung des Orient-Institut Beirut in der Max Weber Stiftung – Deutsche Geisteswissenschaftliche Institute im Ausland – aus Mitteln des Bundesministeriums für Bildung und Forschung.

Druck: Dergham
Gedruckt im Libanon

IQTIDĀʾ AL-GHĀFIL BI-HTIDĀʾ AL-ʿĀQIL

Quṭb al-Dīn Muḥammad b. Aḥmad

b.ʿAli al-Qasṭallānī

614-686 H.

1218-1287 AD.

EDITED WITH INTRODUCTION BY

AHMED GOMAA ʿABD AL-HAMID

REVISION BY

THE ORIENT-INSTITUT BEIRUT

BEIRUT 2015



IN KOMMISSION BEI

KLAUS SCHWARZ VERLAG BERLIN

BIBLIOTHECA ISLAMICA
GEGRÜNDET VON HELLMUT RITTER

HERAUSGEGEBEN VOM
ORIENT-INSTITUT BEIRUT

BAND 54

IQTIDĀʾ AL-GHĀFIL BI-HTIDĀʾ AL-ʿĀQIL

9 783879 976980

